

الأعمال
الإبداعية

مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦

الباب المفتوح

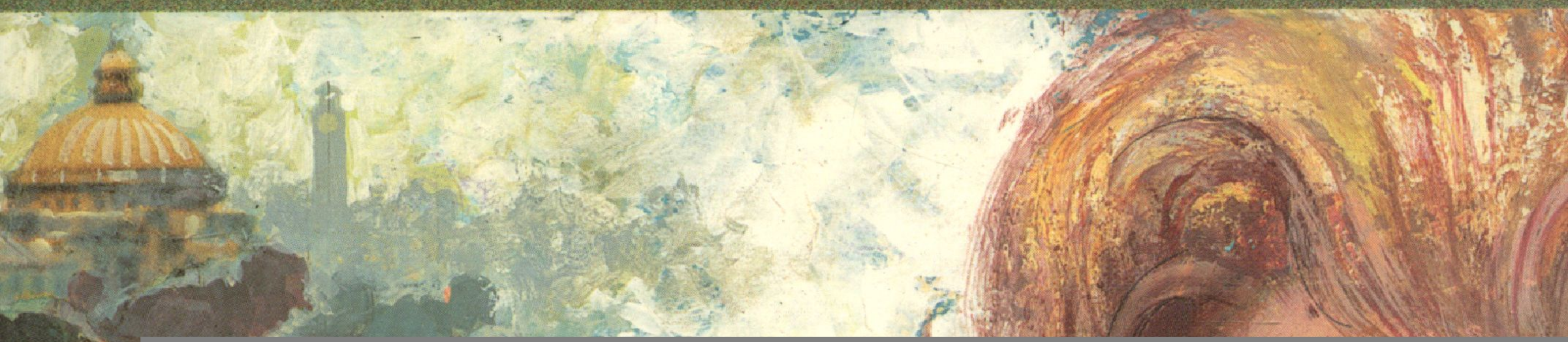
د. لطيفة الزيات

الحائزة على جائزة

الدولة التقديرية ١٩٩٦



الهيئة المصرية
العامة للكتاب



الباب المفتوح



مهرجان القراءة للجميع ٩٦
مكتبة الأسرة
پرعاية السيدة سوزان مبارك
(الأعمال الإبداعية)

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلي
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: هيئة الكتاب

الباب المفتوح
د. لطيفة الزيات

لوحة الغلاف
للفنان جمال قطب

الإنجاز الطباعي والفني
محمود الهندي

المشرف العام
د. سمير سرحان

الباب المفتوح

د. لطيفة الزيات

على سبيل التقديم . . .

لأن المعرفة أهم من الثروة وأهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهى الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبة عصر المعلومات.. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً ورجالاً ونساءً..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كأضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربى من أعمال فكرية وإبداعية وأيضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة.

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما أنتجته عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من أهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الأسرة فى الأسواق بأسعار رمزية أثبتت التجربة أن الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية على أن يأخذ مكانه اللائق بين الأمم فى عالم أصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة.

د. سمير سرحان

كانت الامسية أمسية ٢١ فبراير سنة ١٩٤٦ والساعة السابعة ،
والهواء ساكن فيه برودة محببة والجو نظيف كما لو كانت السماء قد
أمطرت وغسلت الارض . والقاهرة على غير عهدا لا تتلأأ بالانوار
والناس على غير عهدهم لا يزدحمون فى شوارعها الرئيسية يدخلون دور
السينما والمحال العامة ويخرجون منها ويتوقفون عند محطات الاتوبيس
والترام .

كانت دور السينما مضرية وكذلك المحال العامة والاتوبيس
والترام . وسيارات البوليس تمر فى الشوارع ببطء محملة بجنود
مسلحين بالبنادق والمارة قلائل جماعات من اثنين أو ثلاثة أو أربعة
يسيرون فى الشوارع فى بطء أو يقفون عند مفارق الطرق ويتحدثون ،
يتحدثون بلهجات متباينة ، وبمستويات لغوية مختلفة ، ولكن الحديث
يدور حول نفس الموضوع حول ما حدث فى الصباح فى ميدان الاسماعيليه :
.. يا سيدى التصادم ماجاش صدفه ، التحرش كان مقصود ، مظاهرة
من ٤٠٠٠٠ شخص ، مظاهرة قايمه أساسا ضد الانجليز يقوم الانجليز
يخرجونها خمس عربيات مسلحة تمر وسطها .

.. فوتك انت احنا برضه بلد الجدعنة ، العربية دهست الواد من
هنا والتلاميذ رفعوا قميصه بالدم والخلق تقولش اتجننت ، هجمت على
عربيات الانجليز فرتكتها وبقوا يرموا جنتهم على مدافع الانجليز تقولشى
مدافع حلاوة .

.. أنا شخصيا أعتقد أن المظاهرة دى كانت مرحلة جديدة من
مراحل كفاحنا الوطنى ، أول حاجة - اصطدام مباشر مع الانجليز ، تانى
حاجة الجيش امتنع عن تفريق المظاهرة - ومش بس كده ، عربيات الجيش
كانت ماشية فى البلد وعليها شعارات وطنية .

.. ثم اشتراك العمال مع الطلبة والشعب كله .

.. بقول لك أنا دى بلد الجدعنة ، دا حتى النسوان خرجت من
بيوتها .. شفت النسوان فى باب الشعرية .

.. المهم السلاح ، الرصاص كان نازل من المعسكرات والشعب
أعزل ، لو كان الشعب مسلح !

.. طيب شفت يا بنى الطوب لما نزل على الانجليز زى المطر ، ياخوى
أنا باستعجب الخلق جاب الطوب دا كله منين ؟

.. طيب ولما ولعوا النار فى الحواجز الى الانجليز مستخبية
وراها .

.. الواد من دول كان يقلع جلابيته ويغرقها فى البنزين ويولعها
النار تشعل ، حتاكل جتته ولا يهمه ، ويزحف والرصاص نازل عليه
زى المطر ولا يهمه ويزحف هاجم على ..

.. الهموم النهارده ماكانش موجه ضد الانجليز بس ، الهجوم
كان ضد الانجليز والملك وعملاء الاستعمار على العموم ، ودى مرحلة
جديدة من مراحل الوعى الوطنى ، دا رأى أنا شخصيا ..

.. أنا شخصيا لو عشت ميت سنة مش حانى المنظر الى شفته
فى سليمان باشا .

.. أعلام .. أعلام من دم ، دم الى ماتوا وانجرحوا عشان مصر .
.. ٢٣ ماتوا و ١٢٢ انجرحوا

* * * *

وبالنسبة لهؤلاء الناس كانت المعركة قد انتهت والمكاسب والخسائر
قد تحددت ، ولكن المعركة لم تكن قد انتهت بعد ولا تحددت الخسائر
بالنسبة لعائلة محمد أفندى سليمان الموظف بالمالية والذي يسكن بالمنزل
رقم ٣ بشارع يعقوب بالسيدة زينب .

وفى الصلاة على كرسى أسيوطى موجه للباب الخارجى جلس سليمان
أفندى يتمم بآيات قرآنية ويتوقف ما بين الحين والحين ليرهف السمع
لخطوات على السلم تقترب من باب الشقة ويركز عينيه الرماديتين على
الباب ويجمد وجهه ولكن الخطوات ما تلبث أن تتجاوز باب الشقة الى
الادوار العليا ، ونهدل كتفاه ويشدد وجهه الابيض شحوبا وتبدو فيه
نقط حمراء ثم يعود يتمم بالآيات القرآنية .

وفى نافذة حجرة الاستقبال المجاورة للصلاة وقفت زوجته ، سيدة

بيضاء مليحة ممثلة قصيرة ، وقد تدلى نصفها الاعلى من النافذة وتركز
كيانها فى عينيها الصغيرتين العسليتين . . عينيها اللتين تدوران فى
محجريهما الى اليمين والى الشمال وتمتدان حتى تكادا تخترقان ظلمة
الطريق .

وفى وسط حجرة الاستقبال أمام مائدة مستديرة وقفت ليلى ، فتاة
فى الحادية عشرة من عمرها سمراء مليئة ويدها تعبت فى حركة آلية
بصندوق خشبى للسجائر ، وعيناها اللامعتان تنظران بعيدا . . الى
لا شىء . وطرقت ليلى غطاء صندوق السجائر فى عنف وسارت الى الصالة
فى خطوات ثابتة وجاوزت أباها حيث يجلس واتجهت الى باب الشقة
ووضعت يدها على المزلج .

وارتجفت شفتا الاب وشحب وجهه ورفع اليها عينيها باهتتين كأنهما
عينا ميت وقال بصوت مختنق :
- رايحه فين ؟

وقالت هى فى صوت فيه نبرة تحدى :
- رايحه أفتش على محمود .
ولمعت عينا الاب الرماديتان وهلة ، ثم أغمضهما وقال فى صوت
متهالك :

- امشى ادخلى جوه .
وعزز كلامه بإشارة من يده وكأنما شعر بضعفه .
واقتربت منه ليلى ووقفت الى جانبه ، وأرادت أن تقول له شيئا
ولكنها لم تستطع ، ومدت يدها تريد أن تضعها على كتفه ، ولكن يدها
وقفت فى منتصف الطريق وبقيت وهلة معلقة فى الهواء ثم سقطت الى
جانبها . . وجرت ليلى والدموع تغطى عينيها الى أمها فى حجرة
الاستقبال وأمسكت بذراعها وهمست :

- ماما . . ماما .
وارتجفت الام وكأن تيارا كهربائيا قد مسها واستدارت وقد
ارتسم الرعب على وجهها تقول فى صوت ملهوف :

- ايه ؟ فيه ايه ؟

- ماتخافيش يا ماما ، ماتخافيش • أنا عارفه ان محمود بخير •
دلوقتي ييجى ، ضرورى ييجى ضرورى ضرورى ، الصبح ••

وخنقتها الدموع ولم تستطع أن تكمل

وتململ أبوها فى جلسته •• الصبح ، الصبح قلت له :

- ما تخرجش يا محمود •

وعند الباب وقف •• طولى :

- ماتخافش يا بابا ، دى مظاهرة سلمية •

- يعنى المظاهرة مش حاتقوم من غيرك ؟

وضحك محمود وقال :

- طيب يا بابا لما كل واحد يقول كده ، ماهى ماتقومش فعلا •

- انت صغير ، لما تبقى تروح الجامعة ابقى اعمل الى انت عايز
تعمله ••

- أنا مش عيل أنا فى رابعة ثانوى وعندى النهارده ١٧ سنة ••

وجز الاب على شفته السفلى بأسنانه ، لو ضربه ، لو حبسه ، لو
رماه فى حجرة وأخذ مفتاحها لعرف مكانه الآن على الاقل • لو بلغ
البوليس الآن لقبض عليه ، ولو قبض عليه •• انه صدقى ، صدقى باشا
الذى يدفن الناس أحياء • ولكن ماذا يعمل ؟ قد يكون مجروحا •• قد
يكون ••

ودمدم الاب وهو يخذى الشيطان

وبدأت الساعة المعلقة فى الصلاة تدق والأُم تنصت لدقاتها ، وتنفسها
يكاد يتوقف ، وأعلنت الساعة السابعة وجدت الام فى مكانها لحظة ثم
اندفعت الى الصلاة ووقفت أمام زوجها تنظر اليه بعينين زائغتين
وتقول :

- الولد راح •• راح خلاص راح !

وهى تضرب كفا بكف دون أن يسمع للضربة صوتا •

وفجأة اكتسبت ملامحها اللينة الضعيفة صرامة غريبة وهي تقول :

- ان ما كنتش حاتنزل ..

وماتت الكلمات على شفתי الام وقام الاب من مكانه مضطربا ..
على السلم اتضححت خطوات ، خطوات أكثر من شخص خطوات ثقيلة
بطيئة ، خطوات تزحف .. وجرت ليلى الى الباب وخلفها الاب واندفعت
الى السلم وصرخت : محمود .

وفقدت الام توازنها وكادت تسقط ولكنها استندت الى حافة
المقعد ..

وعندما دخل محمود مستندا الى كتف عصام سقطت على الارض
مغشيا عليها .

وفي صباح اليوم التالى طلبت ليلى أن ترى أخاها قبل أن تذهب
الى المدرسة ، ونظرت اليها أمها بعينين حمراوين منتفختين نظرة غريبة
وكأنها تخفى سرا وأخبرتها بصوت هامس أن محمود ما زال نائما ،
وانزعجت ليلى من نظرة أمها وطريققتها فى الكلام :

- فيه ايه يا ماما ؟

ومالت الام على ليلى وقالت بنفس الصوت الهامس وقد جمعت
عينها وكأنها ترى مسدسا مصوبا اليها :

- رصاصه ، رصاصه دخلت فى فخده .

- طيب ما أنا عارفه .

وتدخل الاب فى المناقشة والصابون يغطى وجه وقال وهو يوجه
الكلام الى الام :

- حاكم انتى تحبى تهولى كل حاجة ، قلت لك الدكتور قال انه
جرح بسيط .. خدش .

وأشاحت الام بيدها تستبعد كلام الاب وسارت تصرف شئون

البيت على أطراف أصابعها والنظرة الغريبة فى عينيها وكأنها تخفى
سرا ..

وهزت ليلي كتفها ووقفت أمام باب الشقة فى انتظار ابنة خالتها
جميلة التى تسكن فى الدور السابع من نفس العمارة ، وفتحت ليلي
الباب عندما لمحت يد جميلة تمتد من خلف الزجاج لتضرب الجرس
وخرجت وأقفلت الباب خلفها فى ببطء وحرص شديدتين .

وعلى السلم قالت جميلة :

- مالك يا ليلي ؟

- مافيش .

- لاء والنبي صحيح ..

وخرجتا الى الشارع فى طريقهما الى المدرسة وقالت ليلي :

- أما امبارح كان يوم !!

- ليه ؟ كان فيه ايه ؟

وضربت ليلي على صدرها بيدها وهى تقول :

- هو عصام ما قالش ؟

وقالت جميلة فى انزعاج :

- قال ايه ؟

وشردت عينا ليلي فى حركة تمثيلية وهى تقول فى صوت هامس

- على الى حصل لمحمود ، محمود أخويا .

وتوقفت جميلة وقد بلغ بها الانزعاج أقصاه وقالت :

- ماله ، ماله محمود ؟

وجمدت عينا ليلي كأنها ترى مسدسا مصوبا اليها ومالت على

جميلة وهى تقول بصوت هامس وببطء :

- رصاصة .. رصاصة دخلت فى فخذه .

وسقطت الحقيبة من يد جميلة ، ونظرت اليها ليلى لحظة ثم تابعت المشى وجرت خلفها جميلة وأنفاسها متقطعة .

- رصاصة ! والرصاصة دى جت له ازاي ؟

ورفعت ليلى رأسها .

- الانجليز ضربوه .. ضربوه عشان وطنى ، عشان بطل .

- ضربوه ؟ ضربوه فين !

- هو انت ماتعرفيش حاجة أبدا يا جميلة ! فى المظاهرة بتاعة امبارح فى ميدان الاسماعيلية .

- والدكتور قال ايه ؟ مش يمكن حاجة بسيطة ؟

وأرادت ليلى أن تخبر جميلة بما قاله الطبيب وبما أكده أبوها ، ولكنها رأت نظرة الخوف فى عينيها والاكبار وبدلا من أن تقول الحقيقة قالت وهما تدخلان باب المدرسة

- حيقول ايه ؟ .. رصاصة !

رصاصة .. وطنى .. مظاهرة .. وانتشر الخبر فى المدرسة ، ووجدت ليلى نفسها وهى التلميذة فى أولى ثانوى موضعا للاهتمام والاعجاب طول النهار ، البنات الكبار يتلفن حولها والمدرسات يستوقفنها فى الممرات يسألنها وتجيبن . وانتشت ليلى وانطلقت ، انطلق خيالها اسمه ؟ محمود سليمان . عمره ؟ ١٧ سنة . ومارحش المستشفى ليه يا ليلى ؟ يروح المستشفى ازاي ، دا يقبضوا عليه . آمال عمل ايه .. ساعة ما انجرح برضه فضل يضرب فى الانجليز يضرب والدم ينزل منه ، صاحبه يقول له كفاية ، مافيش فايدة . وبعدين فضل وراه لغاية ما جرجره على بيته فى عمارة استرا ، وجاب له دكتور قريبه عشان ماحدش يعرف ، وفضل مستخبي لما الدنيا تضلم ، لو كان خرج فى النور وهو مجروح كده .. يا خبر !

وفى نهاية اليوم الدراسى كان محمود أسطورة فى المدرسة ، كان هو الذى أشعل النار فى العربات الجيب ، وفى الحواجز التى اختفى خلفها الانجليز . وهو .. وهو ..

وشعرت ليلي وهي تخرج من باب المدرسة بأسف لانتهااء اليوم
الدراسى . وعند الباب استوقفتها عنايات وهي تشد على خصرها النحيل
حزاما من الجلد الاسود وترسل شعرها فى خصلات على جبينها .

وتورد وجه ليلي . . كانت كل فتاة فى فصلها تتمنى أن تكلمها
عنايات .

وقالت عنايات وهي تعبت بطرف حذائها العالى فى الرمل :

- محمود أخوكى شكله ايه يا ليلي ؟

وبدا الارتباك على وجه ليلي ، وقالت عنايات :

- يعنى أسمر أبيض ، طويل قصير ؟

- لا هو أسمر ولا أبيض ولا هو طويل ولا قصير

وضحكت عنايات ومالت برأسها الى كتفها .

- حلو !

واحمر وجه ليلي ثم رفعت وجهها مبتسمة فى تحدى :

- زى القمر .

ولتدل على كلامها أبرزت صورة محمود من الحلية المعلقة فى
صدرها .

ودرست عنايات الصورة فى تمنع ثم ضمت شفيتها وقالت :

- مش بطل ، جذاب .

وأخذت ليلي الحلية ولبستها فى رقبتها وهي تنظر الى الارض ثم
رفعت رأسها فجأة .

- حا أقول لمحمود ، عنايات بتقول عليك جذاب .

- وهو محمود يعرفنى منين ؟

- كل طلبه الخديوى اسماعيل بيعرفوك ، وكمان بيقولوا انك
ملكة جمال السنية .

وضحكت عنايات فى رضا ، ثم قرصت خد ليلي :

- اوعى يا ليلي .. أحسن أزعل منك .
ودبت ليلي على الارض بقدمها :
- حا أقول ، حا أقول .
وانطلقت تجرى الى البيت واندفعت الى حجرة محمود :
- محمود ..

* * * *

ولم تكمل ، شعرت أن الجو مكهرب ، كان محمود نائما على جنبه
مواجهها للحائط وعيناه مسمرتان عليها ، وكأنه لم يتحرك منذ الأمس ،
لم يغير موضعه . وعصام ابن خالتها يجلس على حافة السرير وهو يحك
ذقنه بيده والى جانبه وقفت أمها وفى يدها كوب من الليمون . وقالت
الام :

- قوم يابنى ، قوم بل ريقك .
ولم يبد على محمود ما يدل على أنه قد سمع .
وتقدمت الام ووضعت الليمون على مائدة قريبة ، ومالت على السرير
ومدت يدها تتحسس جبين محمود :

- مالك يابنى ، طمنى ؟ فيك آيه ؟ حاسس بأيه ؟
وأربد وجه محمود وقال دون أن يستدير :
- ما فيش .

- مافيش ازاي ؟

والتفتت الام الى عصام :

- عاجبك الحالة دى يا عصام ! أهو من ساعة ماجه وهو مكتوم
الكتمة السوداء دى !

وفجأة استدار محمود على السرير وجلس وواجه أمه وهو يصيح
بصوت أعلى من صوته ، صوت يجد صعوبة فى اخراجه من حنجرتة :

- عشان ايه الدوشة دى ؟ عشان ايه ؟ قلت لك خدش ، لعب
عيال .. لعب عيال ..

وانهار صوته وهو يكرر الكلمتين الاخيرتين وسقط على ظهره منهكاً .
ورمقته أمه لحظة . . كان وجهه شاحب البياض وعيناه الخضراوان
واسعتين لامعتين كأنه محموم ، وحببات العرق تتجمع على جبينه . . وفتحت
الام فمها لتقول شيئاً ثم أطبقته واستدارت خارجة وعندما وصلت الى
الباب قال محمود بصوت ضعيف :

- ماما . .

وعادت الام ووقفت على مبعدة منه ، وجلس محمود فى السرير
وأشار لها أن تقترب ، وعندما أصبحت على مقربة منه مال عليها بوجهه
وكأنه يسر لها بشيء وقال بصوت هامس :

- عارفه ، عارفه لما تدبى الفرخة ، والدم يسىح والفرخة ترفس
دقيقة ، دقيقة واحدة وتسكت على طول . . تخلص .

واربدت عينا محمود وانقلب وجهه ونزل بقبضته على المائدة المجاورة
للسرير وهو يقول بصوت يختلط به العويل :

- ناس كثير ماتوا . . ماتوا بالشكل ده .

وقالت أمه :

- أحسن لك تنام شويه يا محمود .

ومدت يديها الى كتفيه تريد أن تساعد على الاسترخاء ، ونحى
هو يدها عنه فى بطاء وعيناه تبحثان عن عيني عصام :

- ليه ؟ ليه يا عصام ؟

وهز عصام كتفه وقال بصوت هادئ :

- ليه ايه ؟

وهز محمود رأسه لحظة وكأنه يفيق من كابوس ، وأسند رأسه
الى ظهر السرير وقال :

- مافيش .

وخرجت الام من الغرفة وحلت ليلي محلها الى جانب المائدة المجاورة
للسرير ووقفت تنظر الى محمود فى وجوم .

وساد السكون لحظة ثم قال عصام :

- يعنى مش عايز تتكلم !

- وايه الفائدة ؟ لو قلت لك مش حاتفهم ، انت راجل كلك عقل
وحكمة واتزان .. راجل مايندفعش ، ما يضعفش .

- بلاش طريقة وحياة أبوك .

وابتسم محمود ابتسامة خفيفة وتسلمت الحمرة الى وجهه وهو
يقول :

- أنت عارف يا عصام أنا حاسس بأيه ؟ أنا حاسس كأنى انضربت
علقة ، علقه حامية ، وماقدرتش أضرب الى ضربنى : ماقدرتش حتى
أصرخ ..

وارتجفت شفتا ليلي وتقلص وجهها تقلصات متتالية كأنها تعاني
ألما داخليا وقال عصام :

- يوم ما حيكون السلاح فى ايدنا مش ..

وقاطعته ليلي صارخة : محمود ، واندفعت الى أخيها وقالت فى
صوت باك وهى تهز كتفيه :

- محمود .. انت الى ضربت الانجليز مش هم الى ضربوك ..
أنت .. أنت يا محمود .

ولم يجب محمود ، واستدارت هى برأسها الى عصام ويديها على
كتف محمود وقالت فى استعطاف :

- عصام ، محمود هو الى ضرب الانجليز . مش كده يا عصام ؟

وقال عصام وهو يبتسم باستخفاف :

- ودى عايزة كلام .

ولم تقتنع ليلي ، استدارت الى محمود وقالت بصوت مختنق :

- أنت ، أنت يا محمود أنت .

وحاول محمود أن يتجنب عينيها ولكنهما واجهتا وفيهما مزيج من

الامل واليأس المميت .. ودفن رأسها في كتفه وقال وهو ينظر بعيدا :

- أيوه يا ليلي .. احنا الى ضربنا الانجليز .

وضحكت ليلي على كتفه وضحكات متلاحقة مختلطة بالمشيخ ثم رفعت رأسها مبتسمة وقالت والدموع تلمع في عينيها :

- أنا عارفه - عارفه كده ، وكمان قلت لهم في المدرسة .

وقال محمود .

- قلت لهم ايه ؟

- كل حاجة والمدارس مبسوطين منك و ..

ووضع محمود يده على فمها ونحت ليلي يده وهي تضحك وتقول في خبث :

- وحتى عنايات بتقول عليك حلو !

وحاول محمود أن يكتم ابتسامته

وقال عصام :

- عنايات ! عنايات مين ؟

والتفتت اليه ليلي ويدها ما زالتا تحيطان بكتفي أخيها :

- يعنى مش عارف عنايات .. ملكة جمال السنية !

وقال عصام :

- يابن الايه ! عنايات حنة واحدة ..

وغرق محمود في الضحك . وشعرت ليلي أن مهمتها قد انتهت فنزلت من السرير واندفعت تجرى ، واستوقفها محمود عند الباب :

- ليلي .

- أفندم ..

- أولا انت كدابة ..

- كدابة ! كدابة ليه ؟

- يعنى ، يعنى .. عنايات حاتشوفنى فين عشان تقول على حلو ولا وحش ؟

وأخذ عصام يرقبهما وقد علت شفتيه ابتسامة ماكرة .

وقالت ليلي وهى تشير الى الحلية فى صدرها :

- شافت صورتك دى .

وبدا الاهتمام فى عينى محمود :

- ورينى كده .. أنهى صورة دى ؟

وتركتها بين يديه ، يفحصها باهتمام .

واتسعت ابتسامة عصام ووضع يده على فخذ محمود وقال :

- محمود ..

والتفت اليه محمود ويده اليسرى ممسكة بالحلية :

- أيوه يا عصام .

- ايه أخبار العلة دلوقت ؟

ولكز محمود عصام بقدمه وترك الحلية تسقط من يده على الارض
وركعت ليلي على ركبتيها وانحنى بجسمها لتلتقط الحلية والتقطتها ثم
رفعت جسمها لتقوم وحين أصبحت رأسها بحذاء رأس محمود توقفت
ولمعت عيناها وكأنما خطرت لها فكرة رائعة وقالت :

- أنا كمان لما أكبر حاضرب الانجليز .. حاضربهم بالسلاح ..

لما أكبر .

وقال عصام :

- ودى عايزة كلام .

ونفضت ليلي بسرعة واتجهت خارجة وهى تقفز قفزات رتيبة كما
يفعل المتظاهرون وترفع يدها اليمنى وتخضعها وتقول منغمة : السلاح
السلاح .. نريد السلاح . وفجأة تسمرت فى مكانها وسقط ذراعها الى

جانبيها وماتت الكلمات على شفتيها .. اصطدمت بأبيها وهو يدخل
الحجرة .

وبعد أيام قليلة عادت الحياة تجري مجراها العادي ، وتشغل كل
فرد بمطالبها اليومية ، وبدأ الناس كما لو كانوا قد نسوا ما حدث ،
ورجع محمود الى مدرسته ولم يعد أحد يسأل ليلى عنه ولا عن المظاهرة .
وأحست ليلى بمرارة فى بادىء الامر ثم بدأت تنشغل بأمورها الخاصة
هى الأخرى .

وفى ذلك الصباح استيقظت مبكرة كعادتها لتقرأ الجريدة قبل أن
يستيقظ أبوها وأخوها ، وجلست على المقعد الاسيوطى فى مواجهة باب
الصالة وعيناها تنتقلان بين عتبة الباب والساعة ، واندفعت الجريدة من
تحت العتبة . وحين فرغت ليلى من قراءتها كانت الساعة السادسة
والنصف ولم يستيقظ أحد بعد ، لا أبوها ولا أخوها محمود .

وقامت وهى تتغطى فى ارتياح وألقت بالجريدة على المقعد وقبل أن
تصل الى غرفتها رجعت وأعادت طيها ومرت بأصابعها على أطرافها وهى
تجز على شفيتها السفلى غيظا لاضطرارها الى ذلك العمل خوفا من تعليقات
أبيها . وأسرعت الى غرفتها تسدل على جسمها مريلة المدرسة ، وتبحث
محمومة عن الشراب والحذاء تحت السرير والدولاب ، وتمشط شعرها
الاسود القصير وهى تضع قدميها فى الحذاء ، وتخطف كتابا من على
المائدة وآخر من تحت وسادة السرير ، وتلقى بهما فى حقيبتها الجلدية
ثم تندفع الى حجرة الطعام وكأن انسانا يطاردها ولا تتوقف حين تصطم
بأخيها محمود ولكنها نبطىء خطاها حين ترى أباه يقف أمام الحوض
يخلق . وتضع على شفتيها ابتسامة مؤدبة .

- صباح الخير يا بابا .

ويدمدم أبوها بشئ غير مفهوم وهو يلقي برأسه الى الخلف يزيل
بالة الحلاقة شعرات فى رقبته .

وما أن تختفى خلف باب حجرة الطعام حتى تصرخ تطلب الاكل
وتنظر اليها أمها :

- الفول لسه ما جاش .

- ولا تثبط من همتها نظرة البرود التي تطالعها بها أمها .
- - أى حاجة .
- - ملحوقه على ايه ؟ الساعة لسه سابعة والجرس ثمانية ونص .
- - والمشوار ؟
- - عشر دقائق .
- - أنا عايزه آكل والسلام .

وتنتزع مقعدا من على المائدة وتغرسه فى الأرض بقوة وتجلس وتبسط قطعة من الجبن فى نصف رغيف من العيش وفوقها طبقة رقيقة من المربى وتقضم من الساندوتش قطعاً تجد صعوبة فى ابتلاعها لتخرج مسرعة الى المدرسة ، وتقذف بحقيبتها على العشب وتنضم الى زميلاتها ثم يذق الجرس وتستعيد بعد طول بحث حقيبتها لتدخل حصة الحساب .

* * * *

وتجلس على مقعدها وتضع ذراعها على الدرج وتسند اليه وجهها وقد تعلقت عينها بيد المدرسة وهى تكتب على السبورة ضرورى ضرورى تفهم كل كلمة وكل عدد ، ضرورى . أبله نوال قالت انها بقيت أحسن فى الحساب ولكن لازم تبقى أحسن وأحسن ، أحسن واحده فى الفصل عشان أبله نوال تحبها ، ضرورى تحبها ضرورى .

وكانت هذه هى الضرورة الوحيدة فى حياة ليلي فى هذه الفترة ، ضرورة التغلب على هذه المدرسة النحيلة التى تشد شعرها وتجمعة خلف رأسها . وتلبس ملابس شبيهة بملابس الرجال . وتركز عينيها الصغيرتين المستديرتين فيك وكأنها تستطيع أن تنفذ الى أفكارك وتختفى شفتاها الرقيقتان وهى تكتم ابتسامتها .

وفى أول السنة وضعت ليلي على شفتيها ابتسامة مؤدبة وجلست فى حصة الحساب وقد ربت ذراعيها ، وتجاهلت همسات عديلة التى تشاركها الدرج بل ذهبت أكثر من ذلك واكتفت بأن تجز بأسنانها على شفتها السفلى حين لكزتها عديله بقدمها ، كل ذلك وأبله نوال ولا هى هنا . وفى آخر الحصة انتظرت ليلي حتى فرغت آخر تلميذه من وضع كراسيها على مائدة المدرسة ووضعت كراسيها وسوت كومة الكراريس واستعدت لتسير بها الى حجرة المدرسات خلف أبله نوال ولكن أبله

نوال ضغطت شففتيها وأخذت منها الكراريس بعد أن شكرتها . وتحيرت ليلي من هذه المدرسة الغريبة التي ترفض أن تحمل تلميذه كرايسها ولكنها لم تيأس . فهناك طريقة تنجح دائما ، فأنت تعطى المدرسة وردة جميلة وحين تدخل حجرة المدرسات بأي حجة تجد المدرسة وأمامها الوردية في كوب وتعرف حينئذ أن ارتباطا ما قد بدأ بينك وبينها . ألم تحتفظ بالوردية ، وردتك في الكوب أمامها ؟ ولكن أبله نوال لم تحتفظ بالوردية في الكوب ولم تخرج بها حتى عن الفصل . . . أخذتها نفيسة ، نفيسة ذات الأنف الافرط والشعر الاكتر . بدأ كل شيء طبيعيا ثم تحول ، في أول الحصة أعطت ليلي الوردية للمدرسة ، قربت أبله نوال الوردية من أنفها وشممتها ثم وضعتها في عناية على كراسة التحضير ووقفت تكتب مسائل الحساب على السبورة وقبل أن تكمل كتابة المسألة الاولى استدارت فجأة وواجهت الفصل :

- أول واحدة حاتل المسألة دي حتاخذ منى الوردية .

وأخذتها نفيسة وجمد وجه ليلي وقررت أن تخصم أبله نوال وخاصمتها فعلا ولكن حدث في البيت ما جعلها ترجع عن قرارها ، طلبت منها أمها أن تناولها المنبه لثملأه فسقط منها المنبه وتحطم زجاجه ، تحطم كما تحطمت الزهرية الخضراء ذات الورد الابيض وكما تحطمت العروس التي تفتح عينيها وتقول ماما ، وكما يتحطم في البيت كل شيء ، كل شيء في يديها . وصرخت أمها صرخة طويلة وكأن حريقا شب في البيت واتجهت نحوها وقد احمر وجهها وضربتها على كفيها ثم مسحت العرق من على جبينها وهي تقول :

- لكن أعمل ايه ، أعمل ايه في بختي المنيل ، ربنا شقيك من كله ، ربنا ياخذك أحسن ويريحنا .

وأنهى أبوها الموضوع ، وقف على باب حجرته هادئا وقال بصوت قاطع وبلا غضب :

- أنا قلت ان دي مش بنت دي فتوة .

ثم دخل غرفته وأقفل وراءه الباب .

ووقفت ليلي أمام المراة البيضاء في حجرتها وأخرجت لسانها ثم أخذت تحركه في حركة دائرية حول شففتيها . . بنت . . بنت . . بنت ظريفه أبله الناظرة قالت في الحوش وقرصبتها في خدها ، أبله

الناظرة بتحبتها وأبله زينب وأبله زاهيه وأبله رتيبه وكل المدرسات . . كل المدرسات الا . . وسحبت ليلي لسانها وأطبقت فمها . . الا أبله نوال ، ضرورى ، ضرورى كل واحدة فى المدرسة تحبها ، ضرورى أبله نوال تحبها وأغمضت عينيها وأدارت ظهرها الى المرأة . . رأت نفيسة تقرب الى أنفها الافطس وردة حمراء - ثم خطرت لها فكرة وأسرعت الى حقيبة كتبها وأخرجت كراسة الحساب والكشكول وقلم رصاص وانبطحت على الارض وفتحت الكراسة من أولها .

وبدأت محاولة عنيفة من جانب ليلي للتغلب على الارقام . . أرقام عارية تقفز أمام عينيها بلا معنى تتفرق وتتجمع ، وتتضاعف وتنقسم ثم تواجهها بالحل يحدق فيها . . أبله نوال قالت استعملى عقلك ، ولكن فى الحساب عقلها جامد لا يمشى ، فى الانشاء العربى يمشى عقلها ، كلمة تجر كلمة وجملة تجر جملة وتسرع يدها تلاحق عقلها ، وهى طائريخلق فى السماء عاليا فوق كل الطيور ويعود الى العش بالحلب لطيوره الصغيرة يحيطها بجناحيه ويدفئها ، وهى طفلة تائهة فى الطريق بين ناس غرباء ينظرون اليها ولكنهم لا يرون دموعها وهى مدام كورى وبطل يحطم قضبان السجن لينقذ شعبه من الاستعمار وهى كل هذا وأكثر من هذا أو هى على الاقل معهم . أما فى الحساب فهى مع بقال يبيع سكرًا ويشترى زيتًا ومع صنبور يقطر فى الدقيقة عددا من قطرات الماء ومع حوض يمتلئ بهذه القطرات ومع أرقام تقفز أمام عينيها بلا جمال ولا معنى . معنى أو لا معنى ، من الضرورى أن تفهم كل كلمة وكل حرف . وبدأت تتغلب على الارقام ، تجمع خيطا من هنا وخيطا من هناك وتلفها وتمسك بها بين قبضتها فى فرح . وبدأت تتقدم وأبله نوال تشجعها خطوة وراء خطوة حتى لم يتبق أمامها الا نفيسة فما زالت نفيسة تحل المسائل قبل أن تحلها هى وما زالت درجات نفيسة فى الكراسة أحسن من درجاتها . وتركز كيان ليلي فى هذه الفترة فى محاولة التغلب على نفيسة .

★ ★ ★ ★

وقامت نفيسة ترد على سؤال لابله نوال ، قامت فى بطاء ، وتكلمت فى بطاء ، وأجابت الاجابة المطلوبة لا أكثر ولا أقل . . هل يمكن أن تسبق نفيسة ؟ ان نفيسة قوية فى الحساب ، طول الدراسة الابتدائية وهى أقوى منها بمراحل ، فهل يمكن أن تسبقها فى حساب أولى ثانوى وحساب أولى ثانوى صعب ؟ وهى ضعيفة ، ضعيفة فى الحساب وفى كل شئ .

ووجهت أبله نوال لليلي سؤالاً مفاجئاً وتلعثمت ليلي ثم أجابت •
وجلست وانصرف اهتمامها الى حل مسائل الحساب ، وساد السكون
الفصل وأبله نوال تمر بين الصفوف تقرأ الحلول من فوق رؤوس
الطالبات •

وحين وقفت أبله نوال الى جانب ليلي أطرقت برأسها وبقي القلم
معلقاً في يديها وكأنها تفكر • وقرأت أبله نوال الحلول وضمت شفيتها
ومالت على ليلي :

- بقينا هايلين خالصن •

والتقت عينا ليلي بعيني أبله نوال وهي تميل عليها وشعرت بشيء
يقف في حلقها وابتلعت ريقها في صعوبة • ومدت أبله نوال يدها تشير
شعر ليلي وكأنها تمشطه من أسفل الى أعلى ثم مضت في طريقها •

ومدت ليلي كفيها الى رأسها تسوى شعرها ولكنهما جمدتا لحظة
في مكانهما وطفرت الدموع الى عينيها وأدركت أنها تستطيع أن تسبق
نفيسه وعشرة مثل نفيسه ما دامت أبله نوال معها •

وقفت ليلي بعد انتهاء اليوم الدراسي تحت شجرة الجميز في المدرسة •
وعلى المقعد الخشبي المواجه لها جلست جميلة والى جانبها عى العشب
سناء وفي الوسط وقفت عديلة •

كانت عديلة تقلد مدرسة اللغة الانجليزية ، تضغط خديها
ويتصلب جسمها وتمشي جامدة دون أن تحرك ذراعيها وترفع ساقا في
حركة عمودية الى أعلى ثم تسقطها لترفع الاخرى ، ويخرج صوتها غائراً
وكانها دمية خشبية • وغطت جميلة وجهها بيديها وهي تضحك ومالت
سناء تسند بطنها بيدها ، وتكورت وجنتا ليلي وضاحت عيناها واندفعت
الضحكات من فمها في موجات تتابعت ثم تلاحقت وتشابكت حتى كادت
تحول بينها وبين التنفس • وأولت ظهرها الى زميلاتها وهي تستند الى
شجرة الجميز لتستجمع أنفاسها وأخرجت المنديل من جيبها لتجفف
دموعها ووقفت يدها في الهواء قبل أن تصل الى عينيها •

أدركت فجأة أن عديلة قد بدأت جملة ولم تكملها ، وأن الضحك
قد توقف وأن شيئاً ما قد حدث • شيئاً غير مرغوب فيه •

واستدارت ليلي تواجه زميلاتها ..

كانت سناء قد أرخت عينيها الى الارض وراحت تقتلع العشب بسرعة ، ما تكاد تفرغ من اقتلاع قبضة حتى تقتلع غيرها وكأنها مكلفة بذلك العمل . وكانت جميلة تنظر ساهمة الى الافق البعيد .

وقالت عديلة :

- ايه الاحمر الى في مريلتك يا ليلي ؟

وأدارت ليلي رأسها وجذبت ظهر المريلة الى الامام وقالت وقلق بسيط يتسلل اليها :

- ضرورى خبر .. حا يكون ايه يعنى ؟

وهزت جميلة رأسها تنفى هذا الاحتمال ونظرت الى ليلي نظرة طويلة ، نظرة حزينة . واندلع خوف غامض فى جسد ليلي وهمت بالاندفاع الى أحضان جميلة ولكنها لم تندفع ، لمحت فى عيني عديلة نظرة ساخرة متعالية ، وجمدت مكانها .

وقالت عديلة وهى تبتسم فى استخفاف :

- مبروك يا ست ليلي ، بلغت ..

وسحبت جميلة ليلي برفق ، وفى دورة المياه قطعت البقعة الحمراء من مريلتها بموس .

وحين رأت أم ليلي المريلة قالت :

طيب يا بنتى ماغسلتيش البقعة ليه بدل ما تقطعى المريلة ؟؟

ولكن الأم لم تعنف ليلي هذه المرة .

اعتدلت ليلي فى سريرها فى بطاء وحرص شديدين وكأن جسدها من زجاج هش سهل التحطيم ونامت على ظهرها وعيناها تحدقان فى الظلام .. غريبة ! انها لم تشعر بذلك الثقل فى جسمها قبل أن ترى هذه النظرة فى عيني جميلة .. نفس النظرة التى رأتها فى عيني أمها .

حدث لها ما حدث قبل أن تكتشف الامر عذيلة ، ربما من الصباح ومع ذلك لم تحس هذا الصباح بتعب فى جسمها ، بالعكس ، شعرت أنها خفيفة وأنها تريد أن تجرى وتضحك وتدفن رأسها فى أزهار الحديقة ، شعرت أنها قوية وأنها ذكية وأنها تستطيع أن تسبق نفيسه فى الحساب . . . واكتشفت ليلي فجأة وعيناها تحدقان فى الظلام ، أن كل شيء قد فقد أهميته . . . أبله نوال ونفيسه والحساب . . . كل شيء وكأنما قد حدث لها كل ذلك من زمن بعيد . . . وأغمضت عينيها وحاولت جاهدة أن تسترجع صورة أبله نوال وهى تميل عليها وركزت فكرها حتى شعرت بعرق ينفر فى جبينها ومع ذلك بدت لها الصورة باهتة لحظة واحدة ثم طمست خطوطها صورة شجرة الجميز وجميلة وهى تنظر اليها بعينين تعكسان حنانا حزينا .

وقالت ليلي بصوت مسموع : ليه يا جميلة ليه ؟ أنا عايزه أكبر عايزه أكبر . . . وعادت تحقق فى الظلام .

تكبر وتصبح مثل أمها ، لا ، مثل . . . مثل مفتشة التاريخ ذات الجبين الابيض العريض والرأس المرفوع الى أعلى والشعر الاسود الطويل الملفوف والمشية الهادئة كمشية الملكات .

وسمعت ليلي الباب الخارجى للمشقة يفتح وتسرب اليها نور الصالة ثم اختفى حين اتجه أبوها الى غرفته المجاورة لغرفتها . . . عندما عادت من المدرسة كان قد خرج وعلى المائدة قالت أمها أنه مدعو للعشاء .

سيعرف أبوها الآن ، سيعرف حتما ، ستخبره أمها ، ترى ماذا يقول ؟ سيفرح طبعاً كما فرح عندما بدأ الشعر ينمو فى ذقن محمود . . .

فى الصالة استوقف أبوها محمود وجذبه تحت النافذة فى الضوء ونظر اليه طويلاً نظرة خيل الى ليلي معها أن أباهما لم يعد يقف على الأرض بل يطير بمحمود عالياً . ثم تورد وجهه وضحك ضحكا طويلاً بلا سبب .

وساد السكون طويلاً خافتا وعينا ليلي تحدقان فى الظلام وكأنهما تنتظران شيئاً ، وسمعت أمها تتكلم بصوت منخفض ، وتصلب جسمها حين تبينت اسمها يتردد فى الحديث ثم أطبق الصمت مع الظلام على الحجرة من جديد .

وقطع الصمت صوت نحيب ، وقفزت ليلى كالملدوغة من السرير
ثم وقفت مسمرة في وسط الحجره حين عرفت في الصوت صوت أبيها ،
واختلط النحيب بدعاء يقطعه ما بين الحين والحين صوت أمها هادئا
منخفضا :

— يارب تقدرني يارب ، دى وليه يارب .

— كفايه ياسيدى البننت تسمعنا .

— الستر يارب الستر

وانخفض الصوت تدريجيا وأعقبته غصة ثم صمت .

وشعرت ليلى بخواء في صدرها وسرت الرجفة في شفتيها وفي
يديها وساقها ، وانسحب مجرى من العرق من أعلى رقبتها الى أسفل
ظهرها ، وتخبطت في الظلام تبحث عن الباب وهمت أن تصرخ تنادى
أمها « ماتخافيش يا بنتى » أمها قالت العصر . وماتت الصرخة على
شفتيها وجررت ساقها الى السرير وتمددت على ظهرها . « ماتخافيش
يابنتى ماتخافيش ، انت كبرت . كبرت » وسحبت ليلى الغطاء على
جسمها وعلى وجهها حتى طرف رأسها .

ولم تفهم ليلى تلك الليلة لم نظرت اليها جميلة هذه النظرة الحزينة
ولم بكى أبوها ، ولكنها فهمت على مر السنين ، فهمت أنها ببلوغها دخلت
سجنا ذا حدود مرسومة وعلى باب السجن وقف أبوها وأخوها وأمها ،
والحياة مؤلمة بالنسبة للسجان والسجينة ، السجان لا ينام الليل خشية
أن ينطلق السجين ، خشية أن يخرج على الحدود ، والحدود محفورة حفرها
الناس ووعوها وأقاموا من أنفسهم حراسا عليها . والسجينة تستشعر
قوى لا عهد لها بها قوى النمو المفاجيء ، قوى جارفة تسعى الى الانطلاق ،
قوى فى جسمها تطوقها الحدود ، وقوى فى عقلها تشلها الحدود ، حدود
بلهاء عمياء صماء .

ورسم أبوها الحدود العامة وهم جلوس على مائدة الغذاء ، قال فى
صوت هادىء قاطع :

— انت ضرورى تدركى ياللى انك كبرت ، ومن هنا ورايح خروج
لوحدك مافيش ، زيارات مافيش ، من المدرسة على البيت . .

واتجه بعينيه الى محمود وأضاف :

- ومش عايز أشوف فى البيت روايات ولا مجلات خليعة •
فاهم ؟

وأطرق محمود ولوى شفته السفلى ، وقال الاب فى صوت أرق
- الى انت عايز تقراه اقراه بره ولا اخفيه ، أنا مش عايز حاجة
تسمم أفكار البنت •

والتقت عينا الاب بعينى محمود فى نظرة رجل لرجل ، وابتسم
محمود ابتسامة من يعرف ويفهم ، واستأنف الاب كلامه •

- وكمان يا محمود أنا مش شايف داعى ان أصحابك يزوروك فى
البيت ، يا أخى مش كفاية القهوة والنادى •

واتسعت ابتسامة محمود

- كفاية يا بابا ، بس المهم عصام - عصام بيذاكر ويايا • •
ورفعت الأم عينيها عن الطبق وقد ارتسم فيهما قلق :

- عصام ، هو عصام غريب ! عصام ابن خالتك يا بنى ، هى ليلي
حا تتغطى على ابن خالتها •

ومسح الاب فمه بالفوطة •

- عصام معلش ، عصام منا وعلينا •

ولم تقل ليلي شيئاً - لم يكن أحد ينتظر منها أن تقول شيئاً • وبدأ
دور الام ، دور لا ينتهى • • حتى أصبحت ليلي تلتفت خلفها كل ما سمعت
خطوات تنتظر تعنيف أمها لها عن شىء حدث منها ولا تعرف ما هو ، شىء
خارج أو ما يصحش أو ما يليقش ببنت ناس ، بنت محترمة • • الضحكة
الطليقة النابعة من القلب خارجة • • خارجة ليه ؟ عالية • والكلمة
المخلصة الصريحة خارجة • • خارجة عن ايه ؟ عن الاصول ، فيه حاجة
اسمها الاصول • • والقعدة :

- انت يا تقعدى مجعوسة ، يا تحطى رجل على رجل ، الناس
تقول ايه ؟ مش متربية ؟

- أنا زهقت من الناس مش عايزه أشوف حد •

- لا ضرورى الناس تشوفك - يقولوا مستخبية ليه ؟ كتعة ولا عرجة !

واذا مانعت فى الدخول للضيوف اتهمتها أمها بأنها « براوية مابتحبش حد » وإذا دخلت لامتها لأنها لا تسامرهم ، وإذا تكلمت لامتها لأنها تتدخل فى شئون الكبار ، وإن أطالت جلستها أشارت لها بالخروج ، وإن خرجت مسرعة قالت لها « انت كنت ملحوقة على ايه ؟ »
- أنا فى الحقيقة احترت وياك يا ماما ، كل حاجة أعملها تطلع غلط فى غلط !

- اللى يمشى على الاصول ما يغلطش .

- وايه هى الأصول دى ؟!

- الاصول ان الواحد . .

وتضيف الام حدودا جديدة : قطرات الماء تسقط بروى ونظام يسلب رويها ونظامها النوم من عينى النائم ، ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم وسنة بعد سنة .

وسنة بعد سنة نمت ليلي .

وفى السابعة عشرة أصبحت ليلى فتاة ممثلة الجسم متوسطة القامة ، خمرية ، مستديرة الوجه ، دقيقة الملامح فى استواء ، عريضة الجبهة ، عيناها عسليتان عميقتان ضيقتان شديدتا اللمعان واذا ما ابتسمت ارتفعت وجنتاها الورديتان الى أعلى وضاحت عيناها حتى أصبحتا خطا رفيعا من نور يلتمع واذا ما اطمئنت ضحكت بكل وجهها . . بشفتيها وبعينيها وبأنفها ، واذا ما أثار الحديث اهتمامها مالت برأسها وأنصت والكلمات تتدفق من أذنيها الى قلبها واذا أثار الحديث حماسها أو شفقتها التمعت عيناها بالدموع . .

كان وجهها يشع بالانطلاق والحيوية والاشراق على عكس جسمها .

كانت تمشى وكأنها مقيدة بسلاسل ثقيلة ، تجر جسمها خلفها وكتفاها منحنيتان ورأسها ممدودة الى الأمام وكأنها تريد أن تصل بأقصى سرعة الى هدفها لتختفى عن الانظار ، وحين تجلس لا تكاد تستقر فى مكان بل تتحرك باستمرار ، ولا تكاد تعرف أين تضع يديها وكأنهما جسمان غريبان عليها وفى حركاتها ثقل وخوف وخاصة فى البيت ، أما فى المدرسة فكانت أكثر انطلاقا ، كانت المدرسة جزءا من عالمها الذى تحبه ، هذا الهديز من الاصوات المختلفة . . الجرس ، الضحكات المجلجلة حيننا والمكتومة حيننا آخر ، والخطوات التى تدب فى الممر مسرعة الى الفصل ، والعيون التى تبتسم ، والمرح فى الفصل ، والمؤامرات الهامسة التى تدبر ضد المدرس أو المدرسة والولاء الذى يجمع بين الطالبات لاينال منه تهديد ولا عقاب ، والتعليقات المكتوبة التى تمرر حين يستعصى الكلام وفسحة الظهر والشلة ، والنكات الهامسة التى تحمر منها الوجوه ثم تنفرج فى ضحكة طويلة ، والقصص الخافتة فى ركن ناء والمستمعة تفتح فمها كالبلهاء ، ووقع الملاعق على الاطباق فى المطعم ، وسندوتش الموز والتريقة على عباد الله ، والفصل المقفول فى الفسحة والرقص البلدى ، والمناقشة فى السياسة والخلاف حول أم كلثوم وعبد الوهاب والصدقات التى تنبع فجأة ، والخصام والدموع والصلح . . وهى تستحوذ على اهتمام

الفصل بتفennها فى الشقاوة ، وتغضب المدرس وتعود فتسترضيه وتخطب فى المناسبات الوطنية وتبرز فى الجمعيات الادبية ويعترف لها مدرس اللغة العربية بالتفوق وتفوز ببطولة المدرسة فى البنج بنج وتشترك فى فريق الكشافة وكرة السلة وتتزعّم شلة تفرقها حبا ..

وعندما ينتهى اليوم الدراسى تنتظر حتى تنصرف آخر تلميذة ثم تطلع الى فصلها والمدرسة ساكنة خالية ، وتعد كتبها وتنصرف الى البيت بخطوات متثاقلة .

★ ★ ★ ★

وفى البيت تبدأ أمها تعنفها على شىء ، فلا بد أن يكون هناك شىء ما ، شىء كان ينبغى أن يعمل ولم يعمل ، أو كان ينبغى ألا يعمل وعمل ، ثم يظهر أبوها بوجهه الهادىء الصامت الخالى من التعبير ويفرض صمته وهدوئه على كل من فى البيت . وتبدأ أمها تمشى على أطراف أصابعها وتلتفت حولها بعينين قلقتين تتأكد أن كل شىء معد كما ينبغى أن يعد ، ثم يبدأ الغداء .. وعلى المائدة يبدأ الاب يعنف أمها فى هدوء وفى صوت هامس ، والأم طبعا حريصة على ألا ترتكب ما يوجب التعنيف ، ولكن هناك أخوتها ، وهى طبعا تتحمل المسئولية الكاملة عن تصرفات أخوتها ، لقد قال أخوها الشىء الفلانى وما كان ينبغى أن يقوله ، وفعل كذا وما كان ينبغى أن يفعله وتبيض شفقا أمها ولكنها لا تجيب .

ولكن الغداء يكون ألطف من ذلك بكثير عندما لا يتغيب محمود فى كلية الطب ، عندما يعود الى البيت فى الظهر ويشد الكرسي ويجلس على المائدة بوجهه المشرق الحلو ، وبعينيه الخضراوين القلقتين وبشفتيه الرقيقتين الباهتتين ويصطنع الجد ويبدأ فى الحديث ، النهارده ويحكى كل شىء ، ما حدث فى الكلية وما سمعه فى الترام ، وما قرأه وآخر نكتة يتداولها الناس ويعلق ويبالغ ويدلى بأراء غاية فى الغرابة .. أراء تميزه هو عن الآخرين .. وينقلب الجو على المائدة ، وكأنه جاء بنسمة من الهواء المنعش من الخارج ، وتنفرج ملامح الأم المتوجسة ويصبح وجهها جميلا كوجه طفل وتضحك ضحكاتها اللطيفة المنخفضة القصيرة . ولكن المنظر الذى يستحق المشاهدة حقا هو منظر أبيها ، يجلس وقد ثبت عينيه على محمود لا يرخيها عنه وكأنه معجزة تتحرك على الارض . وينصت الاب باهتمام ويسقط عن وجهه القناع ويكتسب الوجه الجامد الخالى من التعبير تعبيرا من حنان ، وعندما يصل

محمود الى نقطة من السرد تبرز تفوقه أو شجاعته أو ذكائه أو خفة دمه
تجمد عينا الاب وتكسوهما طبقة خفيفة من دموع ..

وعندما يبدأ محمود فى السخرية من الاوضاع الاجتماعية السائدة
فى مجتمعه لا يترك شيئا تحيطه التقاليد بهالة من التقديس الا ويحاول
هدمه ، وتلمع عينا ليلي وترتجف شفقا الالم ويتوجس الأب شرا ، ولكن
محمود يخرج من المأزق بلباقة ، يخلط سخريته بالفكاهة فيكتم الأب
ضحكاته ويختلط الأمر عليه فلا يعرف ان كان ابنه جادا أم هازلا .

وتتشعب موضوعات الحديث ولكنها تنتهى عادة بمناقشة فى
السياسة وخاصة اذا كان عصام موجودا على الغداء وغالبا ما يكون
موجودا ، فهو دائما مع محمود فى كلية الطب وفى المذاكرة . واذ ذاك
تميل ليلي بنصفها الأعلى على المائدة وتركز عينيها على محمود وتستمع
أذناها الى كلمات عصام والى كلمات أبيها ولكنها لا ترخى عينيها عن
محمود ، وينقبض وجهها بين الحين والحين وكأنها تعد فى عقلها ردا لاذعا
ويستدير فمها وكأنها تهم بالكلام ثم ينبسط وجهها عندما يجيب محمود
وكانه قال تماما ما أرادت أن تقول ..

قالت مرة جميلة :

— عارفه يا جميله بابا بيقول ايه ؟ بيقول أنا ومحمود بنفكر بقلبنا
مش بعقلنا .

— دا بيتريق عليكم يا عبيطة .

— ما انا عارفه ، ولكن دى هى الحقيقة .

★ ★ ★ ★

ويعتدل محمود ايذانا ببدء المناقشة ويركز عينيها على عصام وكان
عصام مستول عن كل تصرفات الحكومة ويقول :

— تقدر تقول لى الحكومة الوفدية بتاعتك عملت ايه ؟ قعدنا نقول
الوفد . ماحدثش حايئقذ البلد غير الوفد ، وبعدين الوفد عمل ايه ؟
ويقول عصام :

— المسألة مسألة وقت والدنيا ماتخلقتش فى يوم .

— ماتجننيش بقى يا عصام ، انت عارف ان المفاوضات مش حاتجيب
نتيجة والبلد كلها عارفة كده ، مش النهارده بس .. من سنين .

ويمسح الاب فمه ويقول :

- على العموم الوفد أحسن من غيره .

ويميل محمود الى الامام وتندفع الكلمات من فمه متتالية كأنه يتشاجر :

- الوفد أزفت من غيره ، لأن الشعب كان يثق فى الوفد والوفد خان الثقة دى .

ويهرع الاب الى الحمام دون أن يجيب فلا بد له أن يتوضأ ليلحق صلاة العصر .

ويقول عصام فى هدوء :

- المسألة مش مسألة حماسة ياسى محمود ، تقدر تقول لى الحكومة تعمل ايه ؟ تحارب الملك ! تحارب الانجليز !

ويستند محمود الى ظهر مقعده :

- أيوه تحاربهم ، تحاربهم لو كانت شعبية زى ما بتقول .

- تحاربهم بايه ؟

- تحاربهم بينا . . بالشعب ، بالجيش ، بالجيش بيغلى ، الجيش فلاحين ، مصريين زى وزيرك !

ويخيل الى ليلى أن شعر رأسها قد وقف وتسرى الرجفة الى جسمها ، نفس الرجفة التى تصيبها حين تسمع فى الراديو حديثاً عن مجد ماضى لمصر أو تقرأ جانباً مشرقاً من تاريخها أو تسمع عن ظلم وقع بشعبها ، رجفة من يمتلك شيئاً يفخر به ويخشى عليه .

ويقول عصام :

- الشعب . . الشعب المصرى يحارب الامبراطورية البريطانية ؟!

يا أخى فكر فى الموضوع بتعقل .

وهنا يفقد محمود السيطرة على نفسه ولا يتحرج ، يستخدم أول لفظة تخطر بباله ، ويشتم سنسفيل جدود الامبراطورية البريطانية والملك والحكومة ويلعن التعقل والمتعقلين وينتهى باتهام عصام بالخيانة وبمهادنة الاستعمار ، ويكاد الموقف يتعقد وتقول الأم لمحمود :

- يا أخى بلا خيبته حازق نفسك أرى كده على ايه ، تقولشى وزير
ولا أمير .

ويضحك محمود ويضحك عصام وينتهى الغذاء ، وتدخل ليلي
الى غرفتها وتقف الباب ورائها وتتنهد بارتياح .

* * * *

فهنا فى هذه الحجرة عالمها الذى تتصرف فيه كما يحلو لها ، عالمها
الذى تقف فيه وحيدة بعيدة عن كل من فى البيت حتى عن محمود .
وفى ذلك العالم عاشت تحلم وتفرح وتتألم وتشتهى أشياء غامضة لاتدرى
ماهى . . أشياء تتراقص أحيانا فى كل ذرة من كيائها ، وتجعلها تشعر أن
جسمها خفيف فتجرى الى النافذة وتفتحها ويخيل اليها أنها تستطيع
فى نشوتها أن تطير مع هذه الطيور التى تحلق فى الفضاء ، وترسخ
أحيانا هذه الاشياء على صدرها وتتراكم طبقات فوق طبقات ، طبقات
من حزن غامض مضى ، ومن حزن غامض آت ، طبقات فوق طبقات حتى
تكاد تخنقها ، فتجرى الى الدولاب وتدفن فيها فى الملابس وتصرخ بكل
ما فيها من قوة ، بكل كيائها ، وتخرج من الدولاب ترتجف وترتمى على
السريр تبكى . . ولم تكن تريد الا أن تترك وحيدة فى حجرتها بعيدة
عن الآخرين ولذلك هادنت كل من حولها حتى لا يطفى صوت خارجي
على عالمها الخفى ، لو تمردت أو ثارت لظلت أمها تعنفها بالساعات ولانتزعها
أبوها من سريرها ليلقى عليها درسا فى الاخلاق ، لا ، هى لا تريد أن
تنشغل بحدث خارجي تافه عن عالمها الرائع .

ولم تكن المذاكرة تشغل جانبها كبيرا من وقتها ، كانت تنتقل
من فرقة الى فرقة فى سهولة وأهلها لا ينتظرون منها خيرا من ذلك ،
وكان وقتها فى البيت موزعا بين القراءة الخارجية وبين أحلام اليقظة ،
ولكن أمها كانت تنتزعها بين الحين والحين الى الواقع الذى بدا لها جافا
ومملا للغاية ، بلا شعر .

كان عليها مثلا أن تقابل ضيفات أمها ، وأن تسامرهن . وكانت
الآن قد تدربت بما فيه الكفاية . كانت قد تعلمت كيف تتسم فى أدب
وكيف ومتى تضحك ومتى تجلس ومتى تنسحب ، وكيف تنصت باهتمام
مهما كان الحديث تافها ومتى تهز رأسها بالموافقة ومتى تبدى إعجابها
أو عجبها . .

ولكنها كانت تكره كل هذا ، تكرهه من أعماق قلبها ، وتعتبره
تقييدا لحريتها وقتلا لانسانيتها ولذلك كانت تخطيء أحيانا ، كما حدث
ليلة زيارة سامية هانم .

دخلت الام على ليلي في حجرتها :

- يا لالا قومي - البسي هدموك عشان تدخل لسامية هانم .
وسامية هانم قريبة من قريبات أمها من الفرع الغني من الأسرة .
وأطرقت ليلي :

- أنا مش عايزه أدخل لحد .

- ليه ؟

- كده .

- كده ليه ؟

ورفعت ليلي وجهها وقالت :

- مش عايزه أشوفها ، مابحبهاش ، مابحبهاش من يوم فصل
الشربات .

وأغمضت عيناها . . . رأت سامية هانم في صالونها تقفز واقفة
من الفوتيل اللاكيه المشغول بالاوبيسون وكأن كارثة قد وقعت ، ويد
أمها ممدودة معلقة في الهواء والسفرجي قد أدرك أنه خالف الأصول
فتراجع بعد أن اقترب من أمها بصينية الشربات ، وبدأ بزینب هانم ،
الضيقة المهمة . وهزت ليلي رأسها وهي ما زالت مغمضة العينين . .
المصيبة ، المصيبة ان أمها لم تغضب . قالت يومها :

- كل واحد له مكانه في الدنيا دي ، لو عرفه ما يتعبش

ومسحت ليلي دموعها وقالت في سخرية :

- وزینب هانم دي أحسن منك في ايه ؟ عشان غنيه يعنى !

وقالت الام يومها في بساطة :

- أيوه عشان غنية •

وفتحت ليلى عينيها لتجد أمها ما زالت واقفة أمامها ، ودون أن تتكلم قامت لترتدى ملابسها •

وجلست صامتة تستمع الى حديث الضيفة مع أمها ، وتطرق الحديث الى مغنى مشهور يجاور سامية هانم فى السكن ، ومدى ما يملكه من ثروة وعمارات ثم الى صوته • ولما كان من المفروغ منه أن الأم لاتفهم فى الاغاني العاطفية فقد وجهت سامية هانم المتصابية الكلام الى ليلى •

- أنا أموت فى صوته ، صوته جنان ، مش كده ياليلي ؟

وقالت ليلى :

- بس بيغنى زى ما يكون بيعيط ، زى ما يكون واحده ست •

وبعد فترة قصيرة قامت سامية هانم التى اعتادت أن يؤمن الجميع على أقوالها ممتعة • وألقت بالفرو على كتفها وقالت :

- بنتك ملححة أوى يا سنيه هانم •

وهى تشد على حرفى اللام والحاء وتمد كلمة أوى •

وقفلت الام باب الشقة وراء الضيفة وواجهت ليلى بوجه جاد •

- انت ازاي تقولى الكلام الفارغ ده لساميه هانم ؟

- أهى الكلمة الى جت على لساني قلتها والسلام •

- الكلمة الى جت على لسانك ! لو كان كل واحد يقول الكلمة

الى تيجى على لسانه كانت الدنيا خربت •

- ولا يقول الى يحسه •

- الى يحسه ده لنفسه هو مش للناس •

- يعنى يكذب •

- دا مش كذب دى مجاملة • الواحد ضرورى يلاطف الناس

ويجاملهم •

- حتى ولو ماكانش بيحبهم ؟

- حتى ولو ماكانش بيعحبهم ؟

وطفرت الدموع فى عينى ليلي وقالت فى صوت مختنق :

- يعنى يكذب ؟ يعنى يكذب ؟

ولان وجه الام ووضعت يدها على كتف ليلي :

- انت صعبانه على يا بنتى ، انت جاهلة ، الدنيا عايزة كده وان
ماكانش الواحد يعمل كده هو الى يتعب .

وأغمضت ليلي جفنيها ونحت يد أمها برفق عن كتفها، ودخلت الى
حجرتها وأقفلت وراءها الباب .

★ ★ ★ ★

وسارت الى النافذة واستندت الى حافتها وودت لو استطاعت أن
أن تخرج من البيت .

وتجمع الغضب فى جسمها واحتبس فى حلقها وجف له فمها
ولسانها ، غضب بدأ غامضا ثم لم يلبث أن تركز على أمها ، غضب مثل
ذلك الذى كانت تشعر به وهى طفلة حين كانت أمها تلقيها على ظهرها
وتثبت جسمها فى الارض وتفتح فمها بالقوة وتلقى فيه بشربة زيت
الخروج . . ولكنها هذه المرة لم تفتح فمها لقد فتحت عينيها بالقوة .

نعم . . فتحت أمها عينيها . . فتحت عينيها ! على ماذا ؟

على الدنيا . . على الحياة . . « انت جاهلة بالدنيا » أمها قالت .
وكان من الممكن أن تقول « انت ضرورى تتعلمى الكذب والنفاق يا بنتى »
وطبعا لم تقل هذا ، ولكنها قالت ما يساويه . ولم ؟

الأمر سهل وبسيط وواضح ولم يحرك حتى شعرة من شعر
أمها « عشان الدنيا عايزه كده . . عشان الحياة عايزة كده » .

وأى حياة هذه ؟ انها حياة لا تستحق أن يحياها الانسان ، هذه
الحياة التافهة التى يسيطر عليها رجال تافهون ونساء تافهات مثل ساميه
هانم وأختها دولت هانم . .

هذه المرأة هى الاخرى . . دولت هانم . . وشعرت ليلي ببرودة
تتسلل الى جسمها وأقفلت النافذة وأسندت رأسها الى زجاجها وقررت
ألا تفكر فى موضوع دولت هانم . ولكى لا تفكر بدأت تحلم .

أين تقابله ؟ فى حفلة رقص وستكون فى ثوب أبيض كثوب « أودرى هيبورن » فى فيلم « سابرينا » وعندما يراها .. كلام فارغ انها لاترقص وحتى لو كانت تعرف الرقص فمن الاكيد أنها ستعيش وتموت دون أن تذهب الى حفلة لقص .. دعنا اذا نغير الموقف .. فى الجامعة ؟ أبدا .. لقد اعترض أبوها على دخولها ثانوى ولولا محمود لما أكملت دراستها .. فما بالك بالجامعة ؟ فى زيارة ؟ « مش أوى مش رومانتيك » ولكن ليس هناك فرصة أخرى .. اذا فى زيارة .. ولكن أين تكون أمها اذ ذاك ؟ ستكون فى حجرة الاستقبال مع صاحبة البيت وتخرج هى الى الحديقة .. ولكنها لا تعرف أحدا يملك حديقة سوى سامية هانم وأخواتها .. لا لا .. لا يمكن أن تتصور الموقف مع صدقى ابن سامية هانم ، ولم لا ؟ انه أنيق أسمر طويل ويشبه « جريجورى بك » ، ولكنها قطعاً لاتحب صوته ولا نظراته ، فى صوته نبرة متعالية متكلفة ونظراته تقول « أنظرى الى اننى متواضع .. اننى لطيف .. اننى ديمقراطى » .. وعندما أوصلها وأمها بعربته الى البيت بعد زيارتهما الاخيرة لسامية هانم ، جلست الى جانبه مشدودة وعينيها موجهة الى الأمام لا تجسر على توجيهها اليه .. وعندما شكرته أمها وابتسم نصف ابتسامة وقال بصوته المتعالى وعينيها عليها هى :

- تعبكم راحة يا طنط ..

ودت لو استطاعت أن تصفحه .. لا ، ان الرجل الذى تتصوره ، الذى سيحبها وتحبه لن يكون كصدقى ولن يكون كأبيها أيضا ولا كآى رجل قابلته الى الآن ، سيكون .. أنها لا تعرف كيف سيكون ولكنها على يقين من أنه سيكون مختلفا عن الآخرين مختلفا قطعاً .. وشكله ؟ أسمر طويل جذاب قوى التقاطيع بعيون سود كبيرة مثل .. مثل صدقى مثلا ولكن من ناحية الشكل ، من ناحية الشكل فقط ..

صدقى .. صدقى ، لنفرض أن صدقى أحبها .. سيخرجان الى الحديقة وضوء القمر يلتصع من خلال الاشجار فى بقع ذهبية على ممر الحديقة المرصوف ورائحة النرجس تفعم المكان .. ويقول بصوت متهدج تختفى منه نغمته المتعالية - ليلي - ويحدق فى عينيها ويضطرب صوته - ليلي ، أنا عايز أقولك حاجة ومش عارف أبتدى ازاى ..

وتضحك هي وتجري أمامه وحين يكاد يلحق بها تدير رأسها وتنظر إليه من طرف عينها :

- عايز تقول ايه يا صدقي بيه ؟

ويقول هو بصوت متوسل :

- أرجوك يا ليلي بلاش بيه دي .

وتهز هي كتفها وتميل على حوض القرنفل وتقطف قرنفة حمراء

وتقربها من أنفها ثم تبدأ تنثر أوراقها ورقة ورقة في الهواء .

ويهمس هو :

- أرجوك خليك جد شويه ، أنا باحبك ، باحبك يا ليلي .

ويحيطها بذراعيه ويحاول أن يقبلها . وهنا تدفعه هي بعيدا وتصفعه صفعة قوية يرن صداها في أنحاء الحديقة . ويضع هو يده على خده ويتمتم :

- أنا آسف ، آسف يا ليلي ، مقدرتش أتحكم في نفسي .

وتضحك هي في سخرية .

- انت فاكر يعني عشان ما أنا فقيرة أبقى لقمة سهلة ، فاكر الفقرا ما عندهم شرف ياسى صدقي ..

لا .. لا يمكن أن تقول هذا ، أولا هذا الكلام لا يحدث في الحياة وانما هو على طريقة يوسف وهبى في الروايات ، وثانيا هذه الفصاحة قد تواتيها في حجرتها ولكنها لا تواتيها في معاملتها مع الناس فهي جبانة مع الناس . اذا فلنحذف هذا الجزء ولنقف عند الصفعة والاعتذار .

- أنا آسف يا ليلي ، آسف ما قدرتش أتحكم في نفسي .

ويمسك بيدها في يديه مستغفرا ولكن يده تمتد الى ذراعها فتمر عليه وتنتقل منه الى كتفها ومن كتفها الى صدرها فتصرها .. تعانينا ، تماما كما فعلت يد دولت هانم .. دولت هانم من جديد !

وابتعدت ليلي عن النافذة ومشيت في الحجرة وقد غطت وجهها

بيديها .. تعاينها من أعلى الى أسفل كما لو كانت جاموسة معروضة للبيع !! هذه المرأة لم تتغير ، حدث لها ما يفتت الحجر ولم تتغير ، هي هي ، بقامتها المدينة وبشخصيتها القوية وبقدرتها العجيبة على امتلاك كل من حولها من الناس وعلى تكييف حياتهم . هي هي ، لم يتغير فيها شيء سوى ملابسها طبعاً فهي سوداء الآن ..

عندما كانت طفلة كانت دولت هانم تسحبها حيث يقع الضوء كلما رأتها ، وتدرس ملامحها لحظة ، ثم تضربها على فخذه وتقول :
- لا لسه برضه حلوه يا مضروبة .

وتلتفت الى من حولها وتقول :

- أصل ليلى عندها حاجة جذابة في وشها ، وكل ما أشوفها ضروري أطمئن على أن الحاجة دي لسة موجودة ..

ولم تكن تغضب اذ ذاك بل لم تغضب حين قالت لها دولت هانم زمان ..

- لا يا ليلى ، شعرك فظيح يا حبيبتي ، طفلة في سنك يبقى شعرها طويل كده ؟

ووقفت الدموع في عينيها حين رأت خصلات شعرها الاسود الناعم على الارض ولكن دموعها اختلطت بضحكاتها حين قالت لها دولت هانم بعد أن انتهت من قص شعرها .

- أيوه كده وشك بان - بقيتي جميلة خالص يا مضروبة .

لا لم تغضب اذ ذاك - كانت تحبها - وعندما دخلت حجرة الاستقبال في بيتهم ، ووجدتها جالسة ارتمت في صدرها ، ولم تكن قد رأتها منذ أن حدث ما حدث .

وبدأت ليلى تهز ساقها وهي جالسة على السرير .. ليثها ما دخلت ولكنها أرادت أن تدخل ، لم ترغبها أمها بل اندفعت هي في حماس ! وأخذت ليلى تستعيد الصورة جزءا جزءا وكأنها تجد لذة في تعذيب نفسها ، ورغم أن أسبوعا قد مر على الحادث فقد كان حيا في خيالها بكل تفاصيله .

قالت دولت هانم :

- دهده .. دا أنت بقيتى عروسة فى غاية الرقة يا ليلي .

وفرحت هي وسألتها عن ابنتها :

- وازى سناء و ..

وكادت أن تنطق باسم صفاء الى جانب سناء بحكم العادة ولكنها تداركت الامر .

- والله سناء فى اسكندرية مع جوزها . النهارده الصبح كانت بتكلمنى فى التليفون وبتقول ..

والتفتت الى أمها وقالت :

- من حق ياسنيه ، عملتوا ايه فى العريس الى أنا جايباه لبنت أختك جميلة ، الراجل كلمنى امبارح فى التليفون ..

وأطرقت أمها :

- نعمل ايه ؟ يظهر مافيش قسمه يا دولت هانم ..

- يعنى ايه مافيش قسمه . الراجل وراغب ، يبقى الرفض منكم انتم ..

وقالت أمها وكأنها تعتذر .

- والله ما نا عارفه أقول ايه يا دولت هانم .. سسميره أختى تعبت مع البنت ما فيش فايده . وقلنا لها ميت مرة يا بنتى الراجل مايعيبوش الا جيبه ..

- بلا كلام فارغ ، بكرة ياخذ سستها .

وأشاحت دولت هانم بوجهها بعيدا ووقع نظرها عليها :

- اسمعى يا سنيه . ما تخديه لليلي .

وظهرت دهشة على وجه أمها ثم ابتسمت ابتسامة اعتذار :

- البنت صغيرة على الجواز يا دولت هانم دى عندها سبعناشر سنة ..

- صغيرة ! ماحدث صغير ، قومي ياليلي .

ومسحت ليلي وجهها بيديها في حركة دائرية . وقالت في صوت مسموع : كفاية كفاية . . . ولكن المنظر انطبع أمام عينيها ، والصوت تردد في أذنيها .

هي واقفة وسط الحجرة ودولت هانم أمامها ، تفحصها من بعيد بعين نفاذة . دولت هانم تسحبها حتى تصبح قريبة منها ، وتمر على جسمها يدها اليمنى في بطء من أعلى الى أسفل ومن أسفل الى أعلى . وتتوقف يدها وهي صاعدة عند خصرها ثم عند صدرها .

وغطت ليلي عينيها وهي ما زالت جالسة على السرير وهمست :
« بارب . . . بارب »

ولكن صوت دولت هانم تردد في أذنيها :

- البنت لازمها فستان كويس يبرز كسمها ، ولازمها كورسيه يرفع صدرها ويشد وسطها . . . البنت مبهدلة قوى .

ثم قالت لآثمها : حرام عليك . . . البنت النهارده مالهاش سعر . . . قالت بالكلمة : حرام عليك البنت النهارده على وش جواز ، والبنت ان ماكنتش تلبس مايقلهاش سعر في السوق .

وقفزت ليلي من السرير واقفة . . . جارية ! جارية في سوق الرقيق . . . تلبس وتترزين ليرتفع سعرها . . . ولكن لماذا تغضب ؟ لماذا تثور ؟ أليست هذه هي الحقيقة ؟ لا يمكن . . . نعم هي الحقيقة . هذه هي الحياة ، هذا هو وضع البنت في المجتمع الذي تعيش فيه ويجب أن تتقبل هي هذا الوضع أو تموت . . . تموت !؟

وتربعت ليلي على الكرسي الاسيوطي . . .

عندما تولد البنت يبتسمون ابتسامة تسليم ، وعندما تكبر يسجنونها ويدربونها على فن . . . فن الحياة ! تبتسم وتنحني وتتعطر وتترقق . . . وتكذب وتلبس كورسيه يشد خصرها ويرفع صدرها لكي يرتفع سعرها في السوق وتزوج . . . تتزوج من ؟ أي انسان « والراجل مايغيبوش الا جيبه » وتلبس الطرحة البيضاء ، وتنتقل الى منزل الزوج « والدنيا عايزه كده » وكل شيء سهل وبسيط ومفهوم ولكن . . . ولكن

يجب أن تكون حريصة ، حريصة جدا ، يجب ألا تحس وألا تشعر وألا تفكر وألا تحب ، يجب والا .. والا قتلوها كما قتلوا صفاء .

وانكشيت ليلى فى جلستها ..

عند قالت ذلك فى هذه الغرفة نظرت اليها أمها نظرة غريبة وكأنها تراها لأول مرة وفتحت فمها فى دهشة وخرجت تهرول من الحجرة . ولكنها مسرورة مما حدث بعد خروج دولت هانم ، من كل كلمة قالتها ، ومن كل حركة ..

★ ★ ★

كانت هذه من المرات القليلة التى جرؤت فيها على أن تقول ماينبغى أن يقال .. كانت اذ ذاك مستلقية على السرير لا تبكى ولا تفكر ، ودخلت أمها عليها وقالت كلاما دوى فى أذنها ولم تفهمه ثم هزت كتفها هزة عنيفة :

— جرى ايه ، انت نمت ولا ايه ؟

ورفعت وجهها الى أمها .

— جرى لك ايه .. مال وشك مصفر كده ؟

وألقت ليلى بوجهها على الوسادة من جديد .

وقالت أمها بصوت رقيق :

— ماتخديش بالك من الكلام الى قالتة دولت — لسه بدري على

حكاية الجواز دى .

وغشت عيناها طبقة من الدموع ، وقالت فى هدوء دون أن ترفع

وجهها .

— هى عايزه منى ايه ؟!

— مين ؟

— الست دى ..

- حاتعوز منك ايه ؟

واعتدلت بسرعة وجلست على السرير وواجهت أمها :

- عايزة تقتلنى زى ماقتلت بنتها ؟

- اخرسى قطع لسانك •

وقالت هى بصوت هادىء وكأنها تقرر حقيقة ثابتة :

- هى مش قتلت بنتها ؟

- صحيح انك ماعندكيش احساس ، واحدة منكوبة زى دى ، تقولى عليها الكلام ده •

ولم تتأثر هى بهذا الكلام •

- هى مش انتحرت ؟

- وانتى تعرفى منين ؟

- أنا عارفه ، وعارفه انتحرت ليه كمان • تحبى أقول لك ؟

- هى الى كانت حطت لها السم فى بقها ؟

واستلقت هى على سريرها ببطء وهى تبسم ابتسامة كئيبة وتقول :

- هى الى سممت حياتها ، وقفلت عليها أبواب الرحمة • • مالقتش قدامها الا السم •

وفتحت أمها فمها اذ ذاك فى دهشة ونظرت اليها نظرة غريبة وكأنها تراها لأول مرة وخرجت من الغرفة متهولمة •

★ ★ ★

ومدت ليلي ساقها وأسندت ظهرها الى المسند الخلفى للكرسى • • ثم خاصمتها أمها ثلاثة أيام • • ثلاثة أيام كاملة وهى غاضبة • وهى تعرف لم غضبت أمها ، غضبت أولا لأنها عرفت أن صفاء قد انتحرت ، فقد أخبرتها فى حينه أنها ماتت ، وغضبت أيضا لأنها قالت « تحبى أقول لك انتحرت ليه كمان ؟ »

كانت أمها حريصة على ألا تعرف شيئاً عن هذا الموضوع أو عن مثله من الموضوعات ، ولكنها تسمع كلمة من هنا وكلمة من هناك وتجمع الحيوط وتستعمل عقلها . . . موضوع صفاء مثلاً ، سمعت أولاً أن صفاء انتحرت ، ابتلعت أنبوبة الحبوب المنومة التي كانت تعينها على النوم في ظل زوج يعيبه كل شيء إلا جيبه . ولكنها لم تعرف إذ ذاك أنها انتحرت في نفس الليلة ، نفس الليلة التي لجأت فيها إلى أمها . وعملت الأم بالأصول ورفضت أن تؤويها ، أوصدت في وجهها الباب فرجعت صفاء إلى منزل الزوج وانتحرت . . . وبعد مدة أيضاً عرفت قصة الحب وثورة الأم وطلب الطلاق ورفض الزوج ، بعد مدة ، مدة أحالت الفتاة الحلوة إلى تراب . .

ودولت هانم أم هذه الفتاة الحلوة هي هي لم تتغير ، حدث لها ما يفتت الحجر ولم تتغير ، حزنّت على موت بنتها كما تحزن كل أم ، ولكن هل شكت لحظة واحدة في صحة تصرفها ؟ أبداً . . . ولا الآخرون شكوا في صحة هذا التصرف . انها تمضي برأس مرفوعة وبخطوات ثابتة وتفرض احترامها على الآخرين . . . يارب أي قوة هذه ؟! وأي مناعة ؟! وأي ثقة بالنفس ؟ ومن أين يستمدّها الناس ، من أين ؟ ولم لا يرى الناس في تصرف هذه المرأة ما تراه هي ، ولماذا زاد احترامهم لها بعد أن ماتت ابنتها وما السر ؟ ما السر في هذا الاحترام ؟

ودقت ليلى يداً على يد دون أن يسمع لدقة يدها صوت وقامت واقفة وبدأت تذرّع الحجر . . .

هل يمكن أن تكون مخطئة ؟ هل أخطأت في حكمها على هذه المرأة ؟ هل أخطأت هذه المرة أيضاً ؟ . . . إلى يعرف الأصول ما يغلطش . . . أمها قالت . ما يغلطش وما . . .

وتوقفت ليلى في وسط الحجر فجأة ، واتسعت عيناها ، وقالت بصوت هامس :

- ما يغلطش . . . وما يضعفش . . . وما يفقدش الثقة في نفسه . وضمت شفتيها ، ولامت عيناها كأنها وصلت بعد مجهود إلى حقيقة طال بحثها عنها . . .

والمسألة التي تطلبت منها كل هذا التفكير مسألة بسيطة . . . مسألة عرفت أمها دون تفكير . . . إلى يعرف الأصول ما يغلطش . . . تماماً

كما . . كما فى لعبة الكونكان ، يعرف الواحد قواعد اللعبة ، ويلتزمها ويلعب باطمئنان وهو واثق طول الوقت أنه على حق ، أنه على صواب ، لا يخطئ أبدا ، ليس المهم أن يكسب أو يخسر ولكن المهم أن يلعب تبعا للأصول .

ودولت هانم قتلت ابنتها وهى تلعب ، ولكنها على حق ، على صواب فقد التزمت أصول اللعبة . . والناس يحترمونها لأنها فعلت ذلك .
وانهارت ليلي على حافة السرير . . وضماثرهم ، ضماثرهم . . أليست لهم ضماثر ؟ لا . . المهم المظهر . . المهم ما يراه الناس .
- ماما . .

قالت هى يوما لأُمها :

- ماما ، مش كان كفاية فستانين بدل ثلاثة وقشترى لى قميصين تحتانيين ، هدومى التحتانية كلها تقطعت .

وقالت أمها :

- الناس مابتشوفش هدومك التحتانية ، المهم انك تظهرى بمظهر كويس .

ومحمود قال . .

★ ★ ★

واندفع باب حجرة ليلي ودخل محمود وهو يرتدى ملابس الخارجة ووقف فى وسط الحجرة وقال :

- انت قاعدة هنا والبلد بتغلى .

وابتسمت ليلي التى تعرف ميل أخيها الى المبالغة وهزت ساقها وهى تقول :

- بتغلى ليه ؟

- الحكومة لغت المعاهدة ، معاهدة ٣٦

وقفزت هى من على طرف السرير واقفة وقد احمر وجهها :

- مش معقول !

- افتحي الراديو واسمعي .

وجرت هي خارجة من الغرفة الى الصالة لتفتح الراديو ، وتوقفت وهي تمر بمحمود ، أرادت أن تحتضنه وتقبله ، ثم مالت عنه في خجل وهي تبتسم في ارتباك .

ولم تحلم ليلي هذه الليلة . كان كل جزء من جسمها ينبض بالحياة وقضت ليلتها ساهرة وهي مستلقية على ظهرها وكأنها تنتظر شيئاً .

وفي الصباح وصلت ليلي المدرسة متأخرة والجرس يدق ، ودخلت وقد جمدها وجهها وكأنها تنتظر شيئاً ، وتلفتت حولها ثم لان وجهها واندفعت تجرى . . كان الجرس يدق والطابور لا ينتظم . والطالبات متفرقات جماعات في الحوش . وأخذت تنتقل من جماعة الى جماعة في سرعة واضطراب دون أن تدري لذلك سبباً ، كانت الكلمات تنفذ من أذنيها الى قلبها ، والرجفة تسرى في جسمها من أسفل الى أعلى حتى تتركز في رأسها ، في شعرها .

. . نزلوا البنات الى في الفصول . . لا مافيش شغل ولا بنت حاشتغل . . عليه ، شوفي بنات سنة أولى ، طمنيهن اذا كانوا خافين . . بالعكس دول متحمسين خالص . . دول حتى أشجع من البنات الكبار . . احنا مش أقل من الطلبة . . بنات بنات ، البنات برضه عندهم شعور . . ضروري نعبر عن شعورنا .

والجرس يدق ، والمشرقات والمدرسات يصفقن ، والبنات متفرقات جماعات ، ووصلت ليلي الى شلتها وقالت عذيلة :

- تعالى ياست ليلي شوفي قريبتك ، مش عايزة تخرج .

وبدت الدهشة على وجه ليلي :

- تخرج ؟ تخرج فين ؟

- في المظاهرة طبعاً .

- انتوا حاتخرجوا فى مظاهرة •

- طبعا حاتخرج • البلد كلها قايمة على رجل وكل المدارس حاتخرج
واشمعنى احنا الى مانعبرش عن شعورنا ••

وانقطعت المناقشة عندما خرجت الناظرة الى الحوش والجرس مايزال
يدق فى الحاح • وتجمعت الجماعات المتفرقة فى كتلة آدمية كبيرة
متساندة ، وعلا الهتاف :

- يسقط الاستعمار - نريد السلاح - السلاح ••

وتقدمت الناظرة الى الميكرفون وقالت أن وظيفة المرأة هي الأمومة
ومكان المرأة هو البيت •• وأن السلاح والكفاح للرجال •

وساد الصمت برهة ، خانقا ثقيلًا ثم اخترقت الصفوف فتاة
سمراء قصيرة الشعر عريضة المنكبين سوداء العينين لامعتهما وتقدمت
وصعدت السلالم الأربعة التى تفصل الطالبات عن الناظرة ووقفت
أمامها وقالت وصوتها يرتجف فى الميكروفون :

- ان حضرة الناظرة تقول ان المرأة للبيت والرجل للكفاح • وأنا
أريد أن أقول أن الانجليز حين قتلوا المصريين سنة ١٩١٩ لم يفرقوا بين
الرجل والمرأة • وان الانجليز حين سلبوا حرية المصريين لم يفرقوا بين
الرجل والمرأة ، وأن الانجليز حين نهبوا أرزاق المصريين لم يفرقوا بين
الرجل والمرأة •

وعلت صرخات متفرقة ، وبدأت الطالبات يقفزن ويعانقن بعضهن
البعض ثم ارتفع صوتهن موحدًا كالهدير : يسقط الاستعمار •• السلاح
السلاح •• نريد السلاح •

وتراجعت الناظرة •

وقالت ليلي لهناء :

- أما بنت هايلة صحيح •

- أهو كده الجدعنة صحيح - تقدرى انت تعملى كده ؟

وضحكت ليلي وهى تغمض عينيها وتتصور نفسها فى ذلك الموقف
وقالت :

• ياريت •

• ثم رجعت الى الموضوع من جديد •

• اسمها ايه ؟

• ساميه زكى فى توجيهية علمى •

وانعقدت القيادة لسامية وسارت الطالبات خلفها الى باب المدرسة الرئيسى ، وطرقت سامية الباب وطرقته البنات خلفها ، وظل الباب موصدا ، وانقطع الهاتف وانقسمت المتظاهرات الى جماعات تتشاور وتتصايح ثم ساد الصمت برهة ، كانت الطالبات ينصتن الى همهمة خافتة تتراعى من بعيد ، واكتسبت الهمهمة قوة شيئا فشيئا حتى صارت هتافا يصم الآذان ، ونزلت طالبة تجرى من على السلم ..

• طلبة الحديوى اسماعيل •

واجتمعت الطالبات كتلة واحدة من جديد وبدأ الهاتف من جديد يتبادل الطلبة فى الخارج والطالبات فى الداخل :

• لا استعمار بعد اليوم •

• يسقط أعوان الاستعمار •

• السلاح السلاح نريد السلاح •

• نموت وتحيا مصر •

وازداد طرق البنات على الباب ، وصعد أحد الطلبة على سور المدرسة وقال : ابعدوا عن الباب ..

وتراجعت الفتيات الى الخلف • وبدأ الباب يضعف من الدفعات القوية من الخارج دفعة وراء دفعة •

وقالت عذيلة :

• ياللا يا سناء •

وتبعنها سناء دون تردد ، دون أن تنظر الى الخلف ، وانفصلت الشلة الى قسمين وبقيت ليلي مع جميلة •

وقالت جميلة :

- أنا مش خارجة •

وهزت ليلى كتفها وقالت وهي تمشي في اتجاه الباب :

- خليك • أنا شخصيا خارجة •

وقالت جميلة :

- ليلى •• انت المسئولة عن اللى حا يحصل ، افرضى أهلك شافوك ،
أجوك ولا محمود ؟

وابيضت شفتا ليلى وقالت فى ضيق :

- أهلى ، أهلى ! هو ماخذش له أهل غيرى ؟

ولكنها وقفت فى مكانها لا تتقدم •• وقفت مترددة •

وقالت جميلة :

- أرجعى •• أرجعى أحسن دى حاتبقى بهدلة •

وفى هذه اللحظة اندفعت جماعة من الطالبات تجاه ليلى وحاولت
ليلى أن تتراجع ، أن تشق لنفسها طريقا لتنفصل عن الكتلة الآدمية
المتدفقة ، ولكن الكتلة جرفتھا فى طريقھا وفصلتها تدريجيا عن جميلة
ووجدت ليلى نفسها فى الشارع •

★ ★ ★

وتراجع الطلبة الى الخلف وأفسحوا للطالبات طريقا ، وتقدمت
الطالبات الموكب يتبعهن الطلبة ، وعلى جانبى شارع خيرت تجمع المارة
وأصحاب المحلات الصغيرة وصبية الشوارع • وامتلات النوافذ والشرفات
بالناس •

وسارت ليلى تتلفت حولها يتنازعها الخوف والحجل • الخوف من أن
يراها أحد ، والحجل من جسمها الممتلىء الذى خيل اليها أن كل العيون
تتركز عليه •• وهتاف يعلو كالواج ثم ينحسر لتلحق الموجة الأولى موجة
ثم تلتزم الموجتان • وتصفيق وزغاريد وأيدي تلوح وعيون تلمع وأجسام
ترتفع وتنخفض فى قفزات مجنونة ، وأفواه مفتوحة وحببات من العرق
تلتصق على جبين عريض ، وأقدام تدق ، وأعلام تخفق ، ودموع تنهمر
واندفاع ••

واندفع الدم في رأس ليلي ، انتشيت ، وشعرت أنها قوية وخفيفة كالطير . وشقت الصفوف الى الامام وارتفعت على اكتاف الطالبات وهتفت لحظة بصوت غير صوتها ، صوت اجتمع فيه كيائها الذي مضى وكيائها الآتى وكيان هذه الآلاف التى امتدت على مرأى بصرها ، ثم ضاع صوتها ، تلتفته الآلاف ونزلت .

واجتذبتها عينان ، عينان راحتا تحدقان فيها فى الحاح صامت ، الحاح يطوقها ويخنق منابع القوة فى جسدها وروحها .

وتقدمت الى الامام ولكن العينين ما زالتا تلاحقانهما فى الحاح وكأنهما مسلطان على قفاها . ورأت ليلي نفسها فى البيت على مائدة الطعام ، وأبائها وقد اكفهر وجهه ومد يده مهددا وأمهها وقد ابيضت شفتاها . وسرت رعدة فى جسدها وانهارت ساقاها . وتلفتت خلفها لترى أباهما . كان ما زال واقفا فى مكانه على رصيف ميدان لاظوغلى بالقرب من القهوة ، وقد كز بأسنانه على شفته السفلى .

والكتل من خلفها تدفعها بلا رجعة الى الامام ، بعيدا عن أبيها وقد اسود وجهه ، وعن أمها وقد ابيضت شفتاها . وتلاشى أبوها من مرأى بصرها ، ولم تعد تراه . لم تعد ترى الا هذه الآلاف وقد انصهرت فى كل . كل الى الامام يدفعها ، كل يحيطها ويحميها ، وانطلقت من جديد تهتف بصوت غير صوتها ، صوت وحد كيائها وكيان الكل .

كز أبو ليلي على شفتيه حين فتح لها الباب ، فتح لها الباب فى هدوء ، وفى هدوء أغلقه ثم أظهر الشبشب الذى أخفاه خلف ظهره وحاول أن يطرحها أرضا ، وتدخلت أمها تحول بينه وبينها ودفعها بعيدا ، وبعيدا وقفت ترتجف شفتاها ، وبيديه خلع حذاء ليلي ، وعلى قدميها دوت طرقعة الشبشب وعلى ساقيها وظهرها ، وضحكة امرأة على السلم وصراخ طفل وليد ونهنية أمها ، وصوت أبيها يصرخ فيها « اخرسى » وطرقعة الشبشب مرة بعد مرة وبين المرة والمرة توقف ، توقف ، ونفس محبوس ، ثم تدوى الطرقعة من جديد ، وحفيف حقيبة الكتب وهى تسحبها على البلاط وصرير أسنانها فى الجلد وخطوات أبيها تتباعد وطرقه باب غرفته وخطوات أمها تقترب ويداهما وقد امتدت اليهما برودة البلاط وهى تزحف على قدميها ويديها الى غرفتها .

وعندما وصلت ليلي الى غرفتها تحاملت على نفسها ووقفت على قدميها وأقفلت الباب فى وجه أمها وأوصدته بالمفتاح ، وجررت ساقها الى المقعد المواجه للسرير وجلست ، وشعرت أنها تختنق ووضعت يدها على رقبتها وقامت واقفة وراحت تجرى فى الحجرة وهى تهمس : أروح فين ، مش ممكن ، مش ممكن أستنى هنا .

وكالعمياء تخبطت فى السرير وفى الدولاب وفى المقعد .

وقرعت أمها الباب قرعا خفيفا وهمست :

- افتحى يا ليلي .

وتوقفت ليلي فى وسط الحجرة وغطت وجهها بيديها . .

- أروح فين ؟ لو قفلت ميت باب مش حايبعدوا عنى ، دايميا ويايا ، دلوقت ويايا حتى والباب مقفول ، دايميا ويايا ، أبويا وأمي ويايا ، على نفسى على صدرى ، ولا دقيقة أنسى ولا دقيقة أحلم ولا دقيقة أفكر فى شىء تانى ولا دقيقة لى ، دايميا أنا وهم والحقيقة ، الحقيقة الكئيبة ، أنا وهم على جسمى الممدود فى الصالة .

ومضت ليلي تذرع الحجرة .

- أعمل ايه ؟ أعمل ايه يارب ؟

أموت نفسى ؟ وساعتها . .

وتخيلت ليلي نفسها نائمة على السرير ميتة وعيناها مقفلتان وجسدها متصلب وأبوها الى جانب السرير يبكى بحرقة . . زى . . زى العيل . .

والناس الذين يخاف منهم يشيرون اليه ويقولون :

- هو ده اللي قتل بنته .

وأمها سيسود وجهها وتصرخ فى أبيها وتقول :

- انت . . انت اللي قتلت بنتى .

أبدا لن يسود وجه أمها ولن تصرخ فى أبيها . ستظل طول عمرها تمشى على أطراف أصابعها ودموعها تسيل بلا صوت .

وانهارت ليلي على طرف السرير ودفنت وجهها فى يديها . . لم

تعيش ؟ لم ؟ انها ليست انسانا ، انها ممسحة مصددة فى الصلاة ،
كالممسحة التى يمسح فيها الناس أقدامهم • وليس هناك من يحبها ولا من
يعاملها كإنسانه •

وقرعت أمها الباب :

- يا بنتى افتحى ، كلى لقمة ، ولا بلى ريقك بشوية ميه ••

على المائدة زمان ، وهى صغيرة أبوها قال :

- ليلي مش بنتنا - لقيناها على باب الجامع - حتى شوف يا محمود
أنا أبيض وانت أبيض وماما بيضه ، ليلي بس الى سوده •

ونظرت هى لأمها وأمها ضحكت وقالت :

- لقيناها فى اللفة غلبانة ومسكينة قلنا نربيهها ينوبنا ثواب •

ووجدت ليلي نفسها تسحب يدها وتخفيها خلف ظهرها ، تماما كما
فعلت وهى طفلة •

وعاودت أمها قرع الباب فى خفة وهى تهمس :

- افتحى يا بنتى افتحى يا ليلي ، انت أصلك تبقى بايخة لما
تعندى - تبقى زى ••

وهزت ليلي ساقها فى انتظام وقالت لنفسها :

- زى الكلب ، زى الحشرة ، زى الدبة •• بابا قال وهو فى السرير
عيان وأنا باحضنه ، زى الدبة الى قعدت تحضن فى ابنها لغاية
ما مات ••

لم ؟ لم احتضنته بشدة ؟ لم لا تكون رقيقة كما يريد هو ؟

كل شىء تفعله تندفع اليه بقلبها وبكيانها وتحسب أنه صواب فاذا
به خطأ • كل ما تفعله خطأ فى خطأ ، وليس هناك من يحبها •• فى
المدرسة ؟

لو رأتها عذيلة ممددة فى الصلاة لhezت كتفها وقالت : غلط ،
غلط منك •• أنت الى غلطانه ، فضلت ساكتة لما ركبك ، أنت أصلك
ضعيفة ••

وقالت ليلي بصوت هامس باك :

- أعمل ايه يا عديلة ؟ أقدر أعمل ايه ؟

نعم هي ضعيفة ، ضعيفة كأمها وكأمها ستظل ضعيفة طول عمرها
تبيض شفتاها وتنزل دموعها بلا صوت .

وارتفع صوت أمها من خلف الباب :

- يا بنتى احنا ضرورى صوتنا يجيب لآخر الشارع . افتحى
يا بنتى - حتموتى من الجوع .

وقال محمود :

- افتحى يا ليلي ، بابا نزل .

ولحظت لأول مرة أن الحجرة قد أظلمت وأنها لم تضيء النور .

وازداد القرع على الباب ولم تجب .

وقال محمود فى صوت غاضب :

- ليلي .. حانضطر نكسر الباب .

وترددت برهة ثم قامت الى الباب وأدارت فيه المفتاح .

وعادت الى المقعد وخلفها وقع أقدام والنور الكهربائى يؤلم عينيها .

ورفعت ليلي يديها تحجب النور عن عينيها .

وقالت أمها :

- قومى بقى بلاش عند ، قومى يا بنتى .

وأنزلت ليلي يديها ونظرت الى أمها دون أن تتكلم ، وبدت فى عيني
الأم دهشة أعقبتها استنكار وقالت :

- كان حد قالك تعملى العملة السوداء الى عملتيها ؟ تفضحيننا
وتجربسينا فى الحقة ، هي جميلة مش بنت زيك . اشمعنى ما عملتش
عملتك ؟

ودخل محمود وهو يحمل كوبا من الماء ووقف أمام ليلى وأخذت ليلى الكوب دون أن ترفع عينيها اليه وتقلصت أمعاؤها والماء ينزل فيها وانطوت بنصفها الأعلى على بطنها وأحاطتها أمها بذراعيها من الخلف .

ووقف محمود يواجه النافذة وقد أعطى ليلى ظهره ، وحين خرجت الأم استدار فى بطنه وقال فى ارتباك وكأنه يجد صعوبة فى طرق الموضوع :

— أنا آسف يا ليلى على الى حصل ، وأعدك انه مش حايكرر تانى . . أبدا .

وسالت دموع ليلى وقلبت شفتها السفلى وبدأت فى عينيها نظره حزينة وهزت رأسها وهى تقول :

— وايه الفائدة ؟ ايه الفائدة يا محمود ؟ أنا اتقتلت خلاص انتهىت .
بعد الى حصل النهارده كل حاجة اتغيرت ، مايقتش انسانة ، بقيت ممسحة ، ممسحة جزم .

وغطت ليلى وجهها وانخرطت فى عويل اهتز له جسمها . .

واقترب منها محمود ووضع يده على كتفها وقال :

— بلاش كده يا ليلى ، بلاش عشان خاطرى ، بلاش المبالغة دى .
— دى الحقيقة .

وسكت محمود قليلا ثم قال فى تردد :

— عارفه ياليلي ، المهم انك تدركى انك كنت غلطانه ، لو أدركت كده مش حتتألى زى ما بتتألى دلوقت .

وأزاحت ليلى يد محمود بعنف عن كتفها ، وقفزت واقفة وشفتاها ترتجفان :

— وانت كمان ؟ انت كمان يا محمود ؟ انت بتقول انى غلطانة ؟!

وانهار صوتها وهى تردد :

(الباب المقترح — م ٤)

- و انت كمان يا محمود ! و انت كمان .
- اهدي شوية و خلينا نتناقش بعقل .
- عقل ! فين هو العقل ده ؟ أنا مش فاهمه حاجه ، مش فاهمه حاجه خالص . أنا غلطانه . . غلطانه ليه ؟ ماسرقتش حد ، ماقتلتش حد ، خرجت في مظاهرة فيها ألف بنت ، عبرت عن شعوري . .
- وتوقفت ليلي عن الكلام برهة وكأنها تفكر ثم قالت بصوت خافت وكأنها تخاطب نفسها :
- غلطانه ، فعلا غلطانه ، عبرت عن شعوري زي ما أكون انسان ونسيت ، ونسيت اني مش انسان ، نسيت اني بنت . . ست .
- وضحكت ضحكة أشبه العويل .
- والتفتت الى محمود وهي تكمل كلامها :
- مش ده الى انت عايز تقوله يا محمود ؟
- أنا ماقتلتش كلام فارغ زي ده ، و انت عارفة كويس ، عارفه اني أحترم المرأة وأعتقد انها زي الرجل تمام .
- وأكملت ليلي كلامه وهي تشير بيدها اشارة خطابية :
- لها كل الحقوق وعليها كل الواجبات .
- ثم التفتت الى محمود وهي تبتسم ابتسامة باكية :
- على الورق ؟ مش كده يا محمود ؟ على الورق ؟
- ورق ايه ؟
- كلام حلو على الورق ولكن لما ندخل في الجد ، لما أختك تعبر عن نفسها ك انسان تبقى غلطانه ! مش كده ؟ تبقى غلطانه والغلط راكبها من راسها لرجليها .
- وأدرك محمود أنها تقول الحقيقة وأثاره هذا الادراك وصاح في حدة :
- دي مش طريقة مناقشة دي ، اهدي شوية وأنا أفهمك كل حاجة .

وهزت ليلي رأسها وقالت وقد اختفت من صوتها نبرة الغضب
وحلت محلها نبرة يأس

- أنا مش فاهمه حاجة يامحمود ، مش فاهمه حاجة خالص ، ايه
الصبح ؟ وايه الغلط ؟ مش عارفة أصدق مين ؟ وما اصدقش مين ؟ واعتقد
فى ايه ؟ وما أعتقدش فى ايه ؟

ولم يحر محمود جوابا ، وقالت ليلي :

- قول لى يا محمود ، أعمل ايه ؟

ونظرت اليه بتوسل وكأن حياتها تتوقف على رده على هذا
السؤال . وبدأت الحيرة على وجه محمود وود لو استطاع أن يهون عنها
بأى كلمة ، أن يكذب عليها كما كان يفعل وهي صغيرة وأن يدفن رأسها
فى صدره ، ولكنه أدرك أنها كبرت ، كبرت أكثر مما كان يتوقع .
وأراد أن يقول لها أن المشكلة ليست مشكلتها وحدها وأنها مشكلته هو
أيضا ومشكلة جيلهم كله ، ولكنه وجد أن من السخف أن يتفلسف
وانسان يتألم أمامه .

ودخلت أمه تحمل صنية الطعام ومسح محمود وجهه بيده ، وبقي
السؤال معقلا بلا جواب .

ووضعت الأم الصنية على مائدة خشبية صغيرة أمام المقعد وقالت
- اقعدى يا بنتى كلى لقمة ، والله انت غلبانه ومسكينة وجايبه
لروحك التكد .

ولم ترخ ليلي عينيها عن محمود . وضايقه اصرارها على انتظار
الجواب وقال بحدة :

- ما تسمعى الكلام يا ليلي وتقعدى تاكلى .

وأغمضت ليلي عينيها لحظة ثم فتحتهما وقالت :

- اخرجوا الأول .

ونظرت الأم الى محمود تنتظر قراره . وأشار اليها بالخروج وسار
خلفها ، وعندما هم باغلاق الباب خلفه تعمد أن تلتقى عيناه بعيني
ليلى وفهمت ليلي ، فهمت أنه هو بدوره حائر مثلها ، مسكين مثلها .

انه يعرف ما الخطأ وما الصواب ولكن على الورق .. على الورق .
ونظرت ليلي الى الطعام لحظة ثم أشاحت بوجهها عنه ، واتجهت الى
.. مفتاح النور وأطفأته ثم تحسست طريقها الى المقعد وجلست .

★ ★ ★

وسمعت ليلي طريقة خفيفة على بابها ، واتصلت الطريقة خفيفة فى
الحاح ، ولم تجب ، ثم انفتح الباب وسطع النور فى الحجرة ، ووقف عصام
على الباب وعلى شففيه بسمة مرتبكة .

- أقدر أدخل ؟

ولم تجب هى ، واختفت ابتسامة عصام ، وبدأ يحك ذقنه بيده
وقالت ليلي :

- أرجوك ياعصام سبنى دلوقت .

وأشرق وجه عصام وتقدم الى داخل الغرفة وجلس على طرف السرير
مواجهها ليلي ومال بنصفه الالى الأمام وشبك يديه حول ساقيه
وقال :

- أسيبك ازاي بقى يا ستى - انت مش أختى الصغيرة ..

وأخذت ليلي تقرع مسند الكرسي بيدها قرعات خفيفة منتظمة ..

أخته ! أخته الصغيرة ! لم تعد هذه الجملة تؤثر فيها ، ولكن فى يوم
من الأيام كانت غارقة وانتشلتها هذه الجملة .. فى حوش البيت محمود
قفز وقال « ليلي مش أختى . مش بنتنا . مش بنتنا » وعصام قال « أختى
أنا أختى الصغيرة » « خلاص .. أنا أخت عصام ، أخت عصام الصغيرة » .
ومن يومها وهو يدلها بهذا اللقب ..

وكان عصام مازال فى جلسته وما زالت عيناه متعلقتين بليلى . ولحظت
هى أن يدها تقرع مسند المقعد وسحبته الى جانبها وارتخت فى جلستها
ومالت برأسها الى الخلف .

وقام عصام من على طرف السرير ، وجلس نصف جلسة على مسند
المقعد الذى تجلس عليه ليلي ، ومال عليها ومر بيده برقة على خدها من
أسفل الى أعلى وأزاح خصلة من الشعر تهدلت على جبينها . وتوقف

تنفس ليلى حتى أكملت يد عصام دورتها وهوى قلبها الى أسفل جسمها
ودق دقة عنيفة • وقال عصام :

- انت مش عايزة تكلمينى ولا ايه يا ستى ؟

بصوت صغير كمن يكلم طفلة صغيرة ، طفلة تافهة حقيرة •

وقامت ليلى كالملدوغة من على المقعد وقد صعد الدم الى رأسها •
وأعطت ظهرها لعصام وتقدمت حتى حاذت النافذة •• وخلفها وقف عصام
ووضع يديه على كتفيها • واستدارت هى استدارة عنيفة لتواجهه وهى
تقول فى غضب :

- اسمع يا عصام أنا مش عيله ••

ولم تكمل جملتها •• تقلص وجه عصام كمن يعانى ألما عنيفا
ولمعت حبات من العرق على جبينه ولفحت أنفاسه وجهها ساخنة ،
وشعرت بجسمه يلاصق جسدها • وتراجعت حتى التصقت بجدار
النافذة • ولانت ملامح عصام ولانت عيناه وأشرق فيهما نور ثاقب اخترق
جسدها واستقر فى حناياها ••

وقطعت خطوات أمها لحظة السكون التى دامت بينهما ، وعيناه فى
عينيهما والنور فى حناياها ، وهز عصام رأسه كمن يفيق من حلم ،
واحمر وجهه وأخرج منديله وجفف العرق من على جبينه ثم بدأ يحك
ذقنه بيده •

وفتحت أمها الباب نصف فتحة واستدار عصام دون أن يلتفت الى
ليلى واتجه الى الباب ، وتراجعت أمها تفسح له الطريق ، وأقفل عصام
الباب خلفها فى رقة وحرص ، وسمعت ليلى همسا فى الصالة ثم خطوات
تبتعد ••

وجرت ليلى الى المراة وأسندت خدها اليها ولكن برودة المراة لم
تطفىء ذلك الشئ الذى يتوهج كالشرار فى صدرها بل زادته اشتعالا •
وجرت الى النافذة وفتحتها على مصراعها وانكفأت على حافتها ودلت رأسها
ويديها فى الهواء ••

كم دامت هذه اللحظة ؟ دقيقة ؟ عمر ؟ لقد عاشتها من قبل ، نعم
عاشتها بكل تفاصيلها • متى ؟ قبل أن تولد ؟ بعد أن ولدت ؟ فى
الحقيقة •• فى الحلم ••

وانسحبت غمامة من على القمر وشعرت ليلي بالنور يغمرها ويتساقط كالأزهار من شعرها ويديها • وعرت جسدها رعدة من برودة الجو فاستقامت وأقفلت النافذة وعادت الى مقعدها ولمحت الطعام فشعرت بجوع شديد ، والتهمت عشاءها بشهية واندست في قميص النوم وأطفأت النور ودخلت السرير وأغمضت عينيها ونامت نوما عميقا ولكنها أصحت مبكرة مع الفجر •

صحت ليلي واسم عصام على لسانها ، وأبقت عينيها مغمضتين على صورته وهو يقف تجاهها يركز عينيه في عينيها •

وشعرت وهي مستلقية في سريرها كأنها تعيش اللحظة من جديد • شعرت بنور ثاقب يخترق جسدها ويستقر في حناياها •

وتنهدت ليلي وتمطت وفتحت عينيها وراحت تستعيد ملامح عصام في ذاكرتها ، وانطبعت أمامها صورته وهو يقف تجاهها يركز عينيه في عينيها • وحاولت أن تتذكره كما كان منذ سنة ، منذ شهر ، منذ أسبوع • ولكنها لم تستطع ، وكأنها لم تشاهده من قبل ، وكأنها لم تشاهده الا أمس وهو يقف تجاهها ينظر اليها بوجهه الخلق وببذلتة الأنيقة في لون البن المحروق ، وبربطة عنقه السماوية وبقميصه الأبيض بياض الثلج ••

ووضعت ليلي يديها على الوسادة تحت رأسها وابتسمت •• أليس من المضحك أنه كان دائما معها ، منذ الطفولة معها ، تحت سقف واحد ولم تره الا بالأمس ؟ وهذه الفكرة بدورها مضحكة • كيف ؟ كيف لم تره الا بالأمس ؟ لقد رآته آلاف المرات ولعب معها وهي طفلة ، وكان هو الذي علمها العد من واحد الى عشرة وكتابة اسمها بالعربية والانجليزية ، وهو الذي حماها من سيطرة محمود • ثم رآته بعد أن بلغت كل يوم • ومع ذلك لم تره الا أمس وكأنه مخلوق جديد ، وكأنها رآته من قبل بعين غير العين التي رآته بها أمس ، عين •• عين القلب ، عين الحب ••

وقفزت ليلي جالسة في سريرها وأحاطت فخذينها بذراعيها •• نعم هو الحب •• الحب •• وهمست ليلي « عصام بيحبني وأنا باحب عصام » •• واستمعت الى الكلمات كلمة كلمة • وملأتها الكلمات كأنها السحر بشعور

غامر من السعادة ، وعادت تردد الجملة كأنها أغنية ، تستمع كل مرة الى وقعها في نفسها وهي تهز رأسها منتشية .

وغمرها الشعور بالسعادة حتى لم تعد تتحمله ، وأرادت أن تصرخ ، أن تغنى أن ترقص أن تقفز . . وقفزت من السرير الى وسط الحجرة وجرت الى النافذة ، وفي سرعة واضطراب فتحتها على مصراعها . .

كان نور الفجر يمزق ما تبقى من وحشة الليل ، وحشة الظلام . . ووقفت ليلى رافعة الرأس مفتوحة الصدر ، وقفت تتلقى أشعة النور وكأنها تمتصها في حناياها شعاعا وراء شعاع .

وأدركت فجأة ، وهي واقفة في النافذة ، أن مرحلة جديدة من مراحل حياتها قد بدأت . . لقد انتهت دنيا أحلامها ، انتهت بلا رجعة ، حطمها أبوها . . وبدلا من دنيا الأحلام تفتحت أمامها دنيا الحقيقة ، لا دنياهم الكئيبة المقيدة ، بل دنيا حرة ، تستطيع فيها أن تحب وتحب ، بلا خوف بلا وجل بلا لوم بلا ندم . . دنياها هي وهو . . دنياهما التي لا يستطيع العالم الخارجى أن ينفذ اليها أو أن يتحكم فيها . . دنياها التي تستطيع فيها أن تعبر عن نفسها كالطير الطليق ، وهي تعرف طول الوقت أنها محبوبة وأنها مرغوبة وأنها محترمة وأن كل تصرف لها معقول ومقبول .

واستدارت ليلى وأعطت ظهرها للنافذة واستندت على حافتها بذراعيها وأغمضت عينيها ومضت تمشي في الحجرة وهي تتمايل كأنها ترقص ثم توقفت وفتحت عينيها ، وعلى مبعده عكست لها المرأة صورة فتاة متوردة الحدين يشع النور من عينيها ومن شفتيها ومن خديها ، وخيل اليها أن الشمس المنعكسة على المرأة تخدعها ، وجرت الى المرأة والتصقت بها . .

واكتشفت ليلى لأول مرة في حياتها أنها جميلة . . ووجدت نفسها تضحك وحدها كالمجنونة أمام المرأة ، وابتعدت قليلا وأحنت رأسها وسندت صدغيها بيديها وراحت تسكن من موجات الضحك التي اجتاحت جسمها .

ولمدة أربعة أيام لم يظهر عصام . انتظرتة ليلي ظهر اليوم الاول
ثم فى العصر ثم فى المساء واليوم التالى والذى يليه ولم يظهر عصام .
وانتقلت له الاعذار فى بادىء الأمر ، قد يكون مريضا أو اختلف
مع محمود ولكنه لم يكن مريضا ، ولم يكن مختلفا مع محمود . وشيئا فشيئا
تمكنت من ليلي الحقيقة التى حاولت أن تهرب منها ، أدركت أن عصام
يتجنبها ، يتجنبها هى بالذات .

وداهمها شعور ممض بالخوف ، كما لو كانت تركت وحيدة فى صحراء
شاسعة مظلمة مخيفة ، وما من انسان معها ، ولا حائط تستند اليه ،
وهى ضعيفة لا تقوى على الوقوف ، والأرض تغور تحت قدميها ، وهى
لا تستطيع أن تنظر الى الحلف فقد انقطعت الصلة بينها وبين الحلف ، بينها
وبين الاحلام ، ولا تستطيع أن تنظر حواليتها فليس حواليتها الا الصحراء
الكثيبة ، ولا تستطيع أن تنظر الى الامام فليس أمامها الا الظلام .

هل أخطأت ؟ ألم ينظر عصام اليها هذه النظرة ؟ وان لم يكن قد
فعل فلم تغيب ؟ لم اذا يتجنبها ؟ هل أملت نفسها عليه ؟ هل فرضت
نفسها عليه ؟ . . . انها لم تتكلم ! لم تنطق ! يارب ماذا فعلت ؟ ماذا
فعلت ليتملكها هذا الشعور بالهوان ، بالضياع ؟ !

لو استطاعت أن تفهم ، لو فهمت حقيقة الوضع لهان عذابها
ولكنها تحاول ولا تستطيع ، لا تستطيع أن تفهم لماذا اقتحم عصام
حياتها هكذا ولماذا مضى هكذا ؟ . . . انها تستطيع دائما أن تصعد الى
شقة خالتها وأن ترى عصام ، وأن تستوضحه الأمر ولكنها لن تفعل
ولو طال هذا الوضع ألف سنة ، لن تملى نفسها على أحد ، لن تفرض
نفسها على أحد ، وكفاها ما أصابها من هوان ، هوان لم يكن لها يد فيه
فهو الذى جاء ، وهو الذى ذهب . . .

ومن حول ليلي مضت الدنيا كما تمضى دائما ، ويلي تصبح وتمسى
وتذهب الى المدرسة وتأكل وتتكلم وتذاكر وتندهش عندما تجد

نفسها تضحك أحيانا وتتحمس ... كانت الجرائد قد بدأت تتكلم عن ضرورة تنظيم كفاح مسلح فى منطقة القناة وباب التطوع قد فتح للفدائيين ، ومحمود قلق يتقلب كالحمص فى المقلاة وهو يمر بمرحلة اتخاذ قرار ، وفى قلب كل انسان تطوف رغبة فى أن يكون هناك فى القناة وجها لوجه أمام العدو فى معركة موت أو حياة .

وكانت هذه الرغبة تطوف بقلب ليلى أحيانا ، كما تطوف بكل قلب ، وفى كل مرة طافت هذه الرغبة بقلبها كانت تجد لذة غامضة فى تحقيق نفسها ، فهى أولا بنت والبنت ليست انسانا . وحتى لو كانت رجلا لما استطاعت ، انها ضعيفة وشرف الكفاح من أجل مصر ليس من نصيب الضعفاء !

وفى مرة همس لها خاطر حيرها .. فى المظاهرة لم تكن ضعيفة ، كانت قوية ، كانت خفيفة ، والجاهير تحميها وتسندنها ، وحتى أبوها لم يستطع أن يخيفها وهى فى المظاهرة ؟

ولكنها سخرت من نفسها من جديد ، ان قوتها ، ان كان لديها قوة لا تنبع من داخلها ، بل تأتى من الخارج ، وهى على كل حال لا تستطيع أن تقضى بقية عمرها فى مظاهرة !!

كانت ليلى جالسة مع أمها العصر فى الصلاة حين أخبرتها أن جميلة قد قررت قبول العريس وأن الخطبة ستعقد قريبا ، وقالت ليلى :
- يعنى جميلة كانت ويايا طول النهار فى المدرسة وما قالتش !
وقالت أمها :

- يمكن خايفة تجرحك .

وبدت الدهشة فى وجه ليلى :

- تجرحنى ؟

- يعنى عشان من سن واحدة وهى حاتتجوز قبل منك .. وأرادت ليلى أن تحتج ولكنها لم تجد فى نفسها القدرة حتى على الاحتجاج .
وجلست تستمع من أمها الى القصة كاملة وبدأت تهتم بالموضوع وتستقصى ما استعصى عليها فهمه .

فالعريس هو المقاول الذى قام ببناء بيت دولت هانم فى الدقى ، وقد طلب منها أن تخطب له بنت ناس على أن تكون بيضاء ، وفكرت دولت هانم فى جميلة وعرضت عليه صورتها فوافق وتقدم اليها وعرض أن يدفع مهرا قدره ٣٠٠ جنيه مقابل تأثيث أربع غرف • ووجدت خالتها أن العريس « لقطة » ولا يقع للبنت مثله مرتين • ولكن ظروفها المالية لم تكن تسمح بمواجهة نفقات الزواج ، فهى تعيش وجميلة وعصام على المعاش الذى تركه المرحوم زوجها ، ومصاريف كلية الطب « تقطع الوسط » وكل شئ ارتفع ثمنه « والدنيا بقت نار » •

ولم تصرح أم جميلة بهذه الحقيقة فى بادئ الامر « والواحد نفسه عزيزة » •

وتعللت بأن البنت ما زالت صغيرة ، ولكنها لم تقطع حبل الاتصال بينها وبين العريس خلال وساطة دولت هانم ، شددت الحبل باحتراس حتى لا ينقطع ثم فرغ صبر دولت هانم واضطرت أم جميلة أن تخبرها بالحقيقة من خلال دموعها • وتولت دولت هانم تنظيم المهمة •

أخذت جميلة الى شيكوريل واشترت لها فستان دانتيل بمبى ومن شيكوريل الى الكوافير حيث أشرفت على تصفيف شعرها وتزيين وجهها ، ومن هناك الى بيت دولت هانم حيث كان العريس فى الانتظار •

وكانت هذه نقطة التحول ، فعندما رأى العريس جميلة أمامه وجها لوجه ، لحما ودما «والبنى آدم مش زى الصورة» وقع «لشوشته» ، كما قالت أم ليلي •

ولكن المؤكد أن جميلة لم تقع « لشوشتها » فى العريس فى بادئ الامر ، فقد أخبرت ليلي أنه عجوز وبلدى وبكرش •• ولكن التحول حدث تدريجيا ، أوصل العريس جميلة وأمها الى البيت بعربته الفورد ، وفى الطريق أراها فى فيلته فى الهرم وقال انه سيخليها من السكان لتسكنها العروسة ، وبدأ رأس جميلة يلف •

ولكن مشكلة أم جميلة كانت ما زالت قائمة ، كيف تؤثث أربع حجر بثلاثمائة جنيه ؟ هذا الى جانب الاثواب اللازمة لجميلة وقمصان النوم والملابس الداخلية وما الى ذلك ؟

ولكن أم جميلة لم تفكر فى المشكلة طويلا ففى اليوم التالى زارتها دولت هانم وأخبرتها « ان الراجل حايجنن على جميلة وما بينامش الليل » وأنه اكراما لعينى جميلة يعرض أن يقوم هو بتجهيز البيت بأكمله والمطبخ بكل المعدات بما فيها الفريجيدير والبوتاجاز ، وأن يدفع علاوة على ذلك المهر الذى كان سيدفعه أولا وقدره ٣٠٠ جنيه .

ولم تسع الدنيا فرحة أم جميلة وبدأت « تدوى على ودن البنت والدوى على الودان برضه بينفع » .

وأسندت ليلي ظهرها على المقعد وتصورت خالتها وهى « تدوى على ودان جميلة » وانطبعت أمامها صورة خالتها بجسدها الملى وسمرتها الرائقة وشعرها المصفف وملامحها السمحة الدقيقة . ورأتها وهى تميل على جميلة تقبلها وتحتضنها وتدللها وكأنها طفلة صغيرة وتأسرها فى نفس الوقت بقبلااتها وبنعومتها وبحنانها .

وابتسمت ليلي ابتسامة خفيفة . . انها تعرف طريقة خالتها ، تعرفها جيدا ، ان خالتها مختلفة تماما عن أمها ، انها تشبهها فى الشكل فقط ، ولكنها أكثر مهارة منها فى فن الحياة ، ان خالتها تعرف دائما ما تريد ، وتصل دائما الى ما تريد بالنعومة وبالقبلاات وبالحنان ، وأمها قد تعرف ما تريد ولكنها لا تصل دائما اليه ، انها تهاجم الانسان وتصرح بما تريد وتؤنب وتلوم وتقرع ، بينما لا تصرح خالتها أبدا بما تريد ، انها توحى به بلفتة ، بكلمة عابرة ، وتلف وتدور فاذا ما وجدت مقاومة تراجعت مؤقتا لتعاود السعى ، اذا قالت جميلة :

— لاء يا مامى مش عاجبنى ، مش عايزه أجوزه .
قالت هى :

— بلاش يا حبيبتي ، أنا مش عايزه حاجة الا انك تكونى دايمًا مبسوطه .

ثم تشير اشارة عابرة ، الى فلانة الفلانية التى تزوجت عن حب ثم فشلت فى زواجها لأن الاستقرار المالى أساس كل زواج سعيد .
وتقول لجميلة فى مناسبة أخرى :

— نفسى يا جيغى يكون عندك أحسن عربية فى البلد وأحسن

فساتين ، انت جميلة يا جيغى والجمال ده خسارة يتبهدل يا حبيبتي .
وقالت أم ليلى :

- شاطرة .

وانتزعت هذه الكلمة ليلي من تفكيرها وقالت :

- هى مين ؟

- أختى سميرة ، خالتك ، شاطرة عرفت تطوى البنت تحت جناحها
والبنت كمان عقلها طار لما سمعت حكاية الخاتم السوليتير دى . .

- سوليتير ايه ؟

- العريس عقبال عندك حايجيب لها خاتم سوليتير و . .
ودق جرس الباب الخارجى وقامت ليلي لتفتح ووجدت على الباب
سيده خادمة خالتها . ورفعت سيده وجهها المكتنز الى ليلي وانفرجت
شفتاها الغليظتان عن ابتسامة :

- الست الصغيرة بتقول اتفضلى شويه .

وأعطت سيده ليلي ورقة مطوية . .

وفتحت ليلي الورقة وقرأتها :

« سناء وعديله هنا ، أرجو أن تطلعى ، واذا لم تطلعى سأنزل
لاحضارك ، قبلاتى »

وقالت ليلي لسيده وهى ترد الباب :

- انتظرى شويه .

وأمسكت ورقة وقلمها وبدأت تكتب وقد تجهم وجهها . .

وقالت أمها :

- مش عايزة تطلعى ليه ؟

- دماغى بتوجعنى .

- عايزاهم يقولوا ايه ؟! غيرانه !

وجزت ليلي على شفتها وهى تكتب سيل اللعنات التى توالى فى
ذهنها وقالت :

- أنا ! أنا غيرانه ؟!

- خلاص ، اطلعي باركي لحالتك وللبنت .

.. ووقفت ليلى مترددة في الصالة .. انها لا تريد أن ترى عصام ، ولكن لا بد أنه ما زال في الخارج مع محمود . ثم أنها لا تستطيع أن تنقطع عن خالتها نهائيا ، وخاصة أن ذلك الانقطاع سيفسر تفسيراً عجيباً بعد خطبة جميله ، وإن رآته ، إن كان موجوداً ، ستعامله بطريقة عادية كما لو كان شيئاً ما لم يحدث بينهما .

وفتحت ليلى الباب وقالت لسيدة :

- طيب يا سيده قولي لست انى طالعه .

ومضت سيده في تشاقل وهى تهز ردفها .

ووقفت ليلى أمام الدولاب وامتدت يدها دون أن تشعر الى أجمل أثوابها ، الى ثوبها الاحمر حمار البطيخ .. لقد قالت خالتها أنه يبرز جمال بشرتها .. لا لن تلبس هذا الثوب ، لن تتزين له ، لن تسعى الى استعادته . ونحت ليلى يدها عن الثوب واختارت بلوزة وردية وجيب أسود بسيط ومشطت شعرها القصير فى اهمال وصعدت الى شقة خالتها وضربت الجرس .

* * * *

فتح عصام الباب وكان مرتدياً ملابس الخروج ، بذلته الكحلى المقلمة التى يعتز بها ، ووقف يسد الباب وكأنه لا يريد أن تدخل ثم تراجع الى الخلف .

ونسيت ليلى ما انتوته من معاملته بطريقة عادية ، فما أن لمحته حتى تجهم وجهها وأشاحت بنظرها بعيداً عنه . وتقدمت فى اتجاه حجرة الجلوس ..

وهمس عصام يناديها :

- ليلى ..

واستدارت تواجهه . وفى عينيه رأت نظرة عجيبة ، نظرة لم ترها من قبل فى عينى انسان .. نظرة حيوان حبيس يتألم .. نظرة حيوان جريح ..

وقفزت الدموع الى عينيها وأغمضتها وجزت على شفرتها لتكتم الدموع واستدارت لتمضى فى طريقها من جديد .

ووضع هو يده على كتفها فى رقة متناهية ، وكأنها مخلوق رقيق يخشى عليه أن يتحطم من لمسة يده ، وعندما استدارت لتواجهه من جديد كان وجهه قد لان وعيناه قد لانتا وأشرقتا بنور ثاقب يخترق جسمها ويستقر فى حناياها .

وسالت من عينيها دمعتان مسحتهما بكم ثوبها ، وهزت رأسها فى حيرة وفتحت باب حجرة الجلوس ودخلت .

* * * *

ووقف عصام أمام باب حجرة الجلوس الذى أغلق فى وجهه . . لا . . لا يمكن أن تتركه هكذا ، هكذا ، والدموع فى عينيها ، لا ، لا يمكن أن تتركه ، انها معه هنا فى جسده ، فى دمه ، فى أحضانه يمسح بقبلاته دموعها وخديها وفمها الدقيق الوردى المنفرج كزهرة متفتحة . . وشعر عصام بالدم يغلى فى عروقه ويتركز فى مؤخرة رأسه وكأن ليل فى صدره فعلا ، وكأنه يقبلها فعلا ، يذيب فى قبلاته حرمان أربعة أيام وحرقة أربعة أيام ، يقبلها فى نهم ، فى جنون ، بلا توقف ، بلا انقطاع ، فى فمها المستدير ، فى صدرها المستدير ، فى جسمها المستدير . .

وهز عصام رأسه وكأنه يفيق من حلم ، واحمر وجهه وجلس على مقعد فى الصالة وعينه معلقة بباب حجرة الجلوس . . انه قدر ! كيف يجرؤ على التفكير فيها بهذه الطريقة وكأنها . . وكأنها امرأة رخيصة فى الطريق ؟ وهى ابنة خالته وأخت محمود ، ووجهها وجه طفل ، وجه أم ، وجه أخت ، وجه يصرف الشيطان نفسه عن الشر ، وهو لم ينقطع عن التفكير فيها لحظة خلال الاربع أيام الماضية ، بهذه الطريقة القذرة المخجلة . .

ذلك اليوم . . عندما التصق جسمه بجسمها بالقرب من النافذة شعر بألم مفاجئ ، ألم حاد ممض وكأن سكيناً قد اخترق ظهره بغتة ثم . . ثم نظرت اليه بعينيها و . . وارتد طفلاً ، استعاد نفس الشعور اللذيذ الهادئ الهانئ الذى لم يستشعره سنينا طويلاً . . شعوره وهو طفل وأمه تميل عليه فى سريريه بوجهها الحلو . وغزت جسده سكينه تخدره وتهدهده ، سكينه لم يعرف مثلها طوال حياته ، وأدرك

اذ ذاك ، أدرك فجأة أن مصيره قد ارتبط بهذه الفتاة الحلوة التي تقف
تجاهه ، الى الابد . . الى الابد .

ولم يعرف كيف خرج من الحجرة وكيف استمع الى هراء محمود وكيف
صعد الى شقته ؟ هل طار أم مشى ؟

وفي فراشه كانت ليلى معه . في قلبه ، في دمه ، في جسده ، وشعور
ممض ، شعور غارق في أعماقه لا يدرك كنهه ، شعور يحول بين سعادته
والاكتمال .

ثم بدأ وهو مستلقى على السرير يفكر في ليلى كجسد ، بهذه
الطريقة القذرة المخجلة ، وكأنها . . . وكأنها امرأة في الطريق . . .
وطفا الشعور الممض الذي كان غارقا في أعماقه ثم تحدد تدريجيا واتضح
معالمه . . . وأدرك عصام أنه في مأزق مؤلم مضم . انه يستطيع أن يتزوج
ليلى ولكن متى ؟ بعد سنين طويله ، بعد أن يتخرج ، بعد أن يمضى سنة
الامتياز ، وربما بعد ذلك بكثير ، بعد أن يستطيع أن يقف على قدميه
ماليا ، وطوال هذه السنين ؟ ! طوال هذه السنين سيظل يشتهيها
كما يشتهي الانسان امرأة في الطريق ، سيظل يجرم في حقها وفي حق
محمود وخالته وأمه وأخته ، في حق كل القيم الأخلاقية . . .

القيم الأخلاقية التي تعلمها والتي يؤمن بها تقول ان النساء
نوعان ، امرأة في الطريق تشتهي وأم أو أخت أو زوجة ، والمرأة التي
تشتهي شيء رخيص ، يحاز وتنتهي قيمته بانتهااء الشهوة ، وهي صيد
يصطاده الرجل ، وينتصر عليه ويسببه كما تسبى النساء في الحروب
ويتفاخر بانتصاره أمام الآخرين . والانسان لا يشتهي ابنة خالته ولا
يشتهي حتى أخت صديقه اذا كان مهذبا ، لأن الشهوة مرتبطة بالجسد
والجسد قدر الى أبعد حدود القذاره .

وفي تلك الليلة نام عصام نوما مضطربا وهو يتقلب في سريره
وكانه بحر مائج مكفهر . وصحا عدة مرات على نفس الحلم يرضيه
ويعذبه ، حلم سخيف ، عديم المعنى ، حلم مخيف . .

فهو يجري في حوار مظلمة ، حوار موحشة ، يجري وخطر ما
يهدده ، خطر لا يدرك كنهه ، ولكنه يدرك أنه يقترب منه خطوة بعد
خطوة .

ويخرج الى ساحة واسعة ويرى فيها جمعا من النساء ويدرك أنه نجا .
ويسرع يشق طريقه بين جموع النساء ، حتى اذا ما وصل الى الوسط
..سقط منهاكا .

ويتلفت عصام حوله فيجد ملابسه غارقة في الدماء ، وعيني ميت
تلاحقه ، تخرق رأسه وصدره ، تخرق جسمه وكأنها مسامير محمية ..
ثم تستدير جثة الميت وتواجهه وتشير بأصبعها اليه .. الميت محمود
والدم دمه .

ويحاول عصام أن يتراجع ، ولكن النساء من حوله يطوقنه ،
ويشرن اليه بوجوه مكفهرة ، بوجوه متشابهة ، بنفس الوجوه ، وجه ..
وجه أمه .

وفي صعوبة يشق طريقا بينهن ، ويتراجع بظهره ، وهن يلاحقنه
خطوة بعد خطوة ، وجها أمام وجه ، وأصابعهن مشرعة في وجهه وفي
صدره وفي جسده كالمسامير المحمية ..

ويلتفت عصام خلفه ليجد نفسه على حافة هاوية عميقة مظلمة
والنساء يتقدمن نحوه خطوة بعد خطوة ..

ويصرخ عصام ويستيقظ من النوم .

وفي الصباح قرر عصام أن يتجنب ليلي وأن يدفن عاطفته
لها ، ولكي يتمكن من ذلك قرر في نفس الوقت أن يقوى من
علاقته بعنايات ، زميلته في الكلية ، ان العلاقة بينهما لا تتعدى دور
الاستلطاف ولكن من الممكن أن تتطور ، ان عينيها السوداوين
الكبيرتين تقولان أشياء وتعدان بأشياء وقد تخرج معه اذا طلب منها ذلك
وقد تسمح له حتى بتقبيلها . ان عنايات جميلة قطعا ، بشعرها الاسود
الذي ترسله في خصلات على جبينها وبخصرها النحيل ، انها قطعا من
أجمل بنات كلية الطب . منذ أيام السنية وهي جميلة ، أجمل بنات السنية .

وقد استطاع أن يصمد لقراره أربعة أيام كامله ، ولكن ها هو
ذا يجلس في الصلاة وعيناه وأذناه وكيانه كله مشدود الى باب حجرة
الجلوس . كان من المفروض أن يخرج ، أن يحضر حفلة الشاي في
كليته ويقابل عنايات كما اتفقا ، ولكنه لم يخرج ، اوتدى ملابسه ولم
يستطع أن يخرج . وها هو ذا يجلس في مكانه وكأنه مشدود الى باب

حجرة الجلوس بخيوط سحرية • لا يقوى على الحركة ولا يرغب فى الحركة •
ينتظر فى صبر وكأنه خلق لينتظر ، لينتظرها حتى تخرج اليه وتنظر
اليه بعينها العميقتين ، وتلفه بحنانها ، وتعيد الى قلبه وجسده السكينة
التي لم يعرفها فى حياته الا حين نظرت اليه بعينها الرائقتين تلك
النظرة •

وسمع عصام صوت ليلي وهى تقول :

- دقيقة واحدة ، حاشوف خالتى وننزل على طول •

وخرجت ليلي من الحجرة تتبعها جميله ، ومرت به دون أن تنظر
اليه وقالت جميله :

- دهده يعنى ما نزلتش ؟

وقال عصام فى اختصار وكأنه يريد أن يقفل الموضوع :

- عندى شوية صداع •

- طيب ما تيجى جوه •

ومشى عصام خلف جميله فى الممر المؤدى الى حجرة نوم أمه ، وحين
وصل الى الحجرة كانت أمه تقبل ليلي وتقول :

- عقبال عندك يا حبيبتي •

وعندما لمحته أمه التفتت اليه وقالت :

- ايه يا حبيبى انت ما نزلتش ولا ايه ؟

وقالت جميلة وهى تمد يدها بالأسبرو :

- عنده شوية صداع ، الأسبرو أهو يا عصام ، وحا أجيب لك
الميه •

وخرجت جميلة من الحجرة •

ووقف عصام الى جانب مقعد أمه ، وليلي تجاهه على السرير • ولم
يرخ عينيه عنها ولكنها تعمدت أن تتحاشى نظره •

وتناولت أم عصام قطعة من « الاوبيسون » كانت تطرز فيها
وعرضتها على ليلي :

- ايه رأيك فى الرسمة ، عشان صالون جميلة ؟

وفحصت ليلي الرسم وقالت :

- حلوه خالص يا خالتي ، والغرزة جميله ، أنت هاييله خالص !
وقامت ليلى من مكانها لتعيد قطعة « الأوبيسون » وأمسكت بها
خالتها وأمالتها اليها وقبلتها فى حنان . ورفعت ليلى رأسها وتقابلت
عينها بعيني عصام لحظة ثم أشاحت بوجهها بعيدا عنه .
وقالت أم عصام :

- عارف يا عصام ليلى بتفكرنى بأيه ؟ بتفكرنى بنفسى لما كنت
فى سنه ، صورة طبق الأصل .

وابتسم عصام وأغمض عينيه لحظة ثم عاد يركزهما على ليلى .
وقالت ليلى وهى تنظر الى خالتها ثم تتلفت حولها الى الغرفة
الأنيقة الأثاث :

- مش معقول يا خالتي ، بقى أنا حلوة زيك كده ، ولا شيك ولا
شاطره ؟!

وقالت خالتها :

- تمام يا ليلى ، دا أنت شبيهى أكثر من جميله ، كان حقلك تبقى
بنتى مش بنت أختى سنيه

واستمعت جميلة الى جانب من الحديث وهى تدخل حاملة كوبا من
الماء . وأعطت الكوب لعصام وهى تقول :

- هى ايه الحكاية ؟ نازلين مدح كده يعنى فى بعض !

وأمسك عصام الأسيرو فى يده والكوب فى اليد الأخرى . ووضع
الأسيرو فى فمه وارتفعت اليد الأخرى بالكوب .

ثم توقفت فى منتصف الطريق معلقة فى الهواء . . كانت ليلى
تنظر اليه نظرة تساؤل حزينة . . نظرة عتاب . . وجرع عصام الماء
دفعة واحدة واستدار ليضع الكوب على مائدة مجاورة وتعهد أن يبقى
مستديرا مدة حتى يتغلب على تأثيره .

وقالت ليلى :

- عن اذنك بقى يا خالتي .

- مستعجلة ليه يا حبيبتي ؟

- نازله مع سناء وعديله .

واستدار عصام وواجهها مبتسما :

- طيب سناء وعديله وراهم مشوار وأنت وراك مشوار أية ؟
وقالت جميله :

- قول لها يا عصام !

ولم تنظر ليلي الى عصام وهو يتكلم ، وقفت عيناها عند ربطة عنقه
ولم تتعداها الى وجهه ، وحين تكلمت ، لم توجه له الكلام :
- معلش يا جميله مرة ثانية .

وعندما توقف المصعد أمام شقة ليلي صممت أن تدخل عديله
وسناء معها الشقة ، واحتجت عديله بأن الوقت متأخر وألحت ليلي :
- عشر دقائق بس ، اخص عليك يا عديله والنبي عايزه أسألك
فى حاجة .

- طيب ما تسأل دلوقتى .

- لآه جوه .

وجلست الصديقات الثلاث فى ركن من أركان حجرة الجلوس
المذهبة وبعد أن اطمأنت ليلي الى أن الباب مقفل قالت :
- هى جميله قالت لكم الصبح على حكاية الخطوبه دى ؟
وقالت عديلة :

- هو دا السؤال ؟ أما انت بايخه صحيح ! طبعا قالت لنا ! أمال
أحنا جاينين ليه ؟ مش عشان نبارك ؟

- أنا أصلى عايزه أعرف ، اشمعنى أنا الى تخبى عنى ؟!

ومدت عديله رقبتها الطويلة الى الأمام ، ودقت على مسند الكرسي
بأصبعها ونظرت الى ليلي بعينيها الكبيرتين المغرقتين فى السواد :

- بس كده ؟ أفهمك أنا ياستى ، لو قالت لك حاتقعدى تتفلسفى
زى عوايدك ، والمثل بيقول الباب الى يجيلك منه الريح سده واستريح .
وضحكت ليلي وهزت كتفها :

- وأنا مالى حاتفلسف ليه ؟ ما دام عاجبها خلاص ، مبروك عليها .

وقالت سناء :

- ايه الى مش عاجبك فيه يا ليلي ؟ ايه والنبي ؟
ولم تجب ليلي • وقامت عديله واقفة ووضعت يديها فى وسطها
ومالت على ليلي كأنها تستجوبها :

- جيبه فاضى ؟

وابتسمت ليلي :

- مليون •

- عنده عربية ؟

- فورى •

- والفيلا ؟

- فى الهرم •

وأشارت عديله بيدها اشارة يأس وقالت :

- يا أختى بلا نيلى ، ومش عايزاها تاخده ، طول عمرى كده ياليلي
بش فقر !

وابتسمت ليلي وقالت .

- ساكتة ليه يا سناء ، ماتلحقينى يا أختى •

وقلبت سناء شفتها الرقيقة وارتفع أنفها الدقيق الى أعلى وسألت
عديله :

- بتجبه ؟

ووضعت عديله يدها على رأسها وتظاهرت بأنها داخلة من السؤال
وقالت :

- اتلهى ••

ثم استندارت تواجه سناء وتقول :

- دى جوازى يا خيبه مش روايه •

وضحكت ليلى حتى طفرت الدموع الى عينيها وضمت سناء شفيتها
الرقيقتين وهى تخفى ابتسامتها واتسعت عيناها وهى تصطنع الدهشة

- آمال حاتتجوزه ازاي ؟

وأدركت عديله أن سناء تتعاطط وأمسكت بذراعها وقالت

- قومي ، قومي يا مقصوفة الرقبة نروح .

ولم تتحرك سناء .

- والنبي يا عديله ، حاتتجوز ازاي ؟

وقلبت عديله كفها :

- حاتخلينى أقل أدبى - زى الناس - زى أمك ما اجوزت أبوك .

وقلبت سناء يدها بدورها وهزت كتفها :

- من غير حب ، من غير شعر ، من غير شوق ، من غير ..

وقاطعتها عديله وهى تجلس :

- بس ، بس ، انت حاتلضمينهم ، ما احنا حافضينهم .

وقالت ليلي :

- المسألة مش هزار يا عديله ، انت زى أمك ؟ أفكارك زى أفكار
أمك ؟ أمك اجوزت من غير حب لأنها ما كانتش تقدر تعمل غير كده ،
ما كانتش تقدر تختار ، وان اختارت ما تقدرش تتجوز الى اختارته .
أمهاتنا كانوا حريم ، ملكية للأب بتنتقل للزوج ، ولكن احنا مالناش
عذر ، تعليم واتعلمنا ، وكلى شىء فهمناه ، وضرورى نتحكم فى مصيرنا ،
الحيوان نفسه بيختار .

وتحمست سناء ومدت يدها تخطب بها على كف ليلي وتقول :

- يا بت يا جامده ، تعجيبينى .

وقالت عديله ببرود :

- ومين قال لك ان جميله ما اختارتش ؟

وقالت ليلى ونظرة حزينة تبدو فى عينيها :

- لا يا عديله • جميله ما اختارتش ، الى اختار أم جميله والناس الى حواليتها ، وآلافكار القديمة بتاعتهم و • •
وأكملت سناء كلام ليلى :

- • • • ومواصفات ابن الحلال ، انه يكون ابن ناس وكويس ومريش ومقطوع من شجرة ولا يسكرش ولا يدخنش •

وقالت عديله :

- أما بواخه صحيح ، ضرورى تفهموا ان الناس مش زى بعض •
جميله عندها فكرة عن الجواز وبتحاول تحققها ، جميله عايزه العربيه
وعايزه الفريجيدير وعايزه السوليتير وعايزه • • •

وأكملت سناء كلامها :

- الشارى الى يدفع أكثر ، مش كده ؟

وتدخلت ليلى فى الكلام :

- جميله عايزه الحاجات دى كلها ، لان الناس فهموها ان الحاجات دى
مهمه ، أن قيمة الانسان فى امتلاك الحاجات دى • أن الانسان مايكونش
محترم الا اذا كان غنى •

وقالت سناء :

- لا ، وفيه كمان نقطه ثانيه ، هي جميله مش كانت عايزه تتجوز
واحد تانى ؟!

وقالت عديله :

- واحد تانى مين ؟

وأدركت ليلى أن عديله لا تعرف قصة جميله وممدوح وقالت لكى
تستبعد الموضوع من المناقشة :

- دا كان مجرد كلام

وسادت فترة سكون ثم قالت ليلى فى وجوم :

- عارفين حكاية صفاء دى ، مايتروحش أبدا من دماغى • بتخلينى

دائما أعتقد ان البنات النهارده ما تقدري تعيش زي أمها ما كانت عايشه
وقالت سناء :

- العقلية قطعا اتغيرت ، بالنسبة لأمهاتنا الجواز كان نصيب مكتوب
على الجبين ، لا الواحد يقدر يغيره ولا يهرب منه ، ضروري يتقبله زي ما هو
.. وبالنسبة لنا الوضع اتغير لان عقلية الحريم اتغيرت ، البنات النهارده
ما تقبلش الوضع اللي كانت أمها بتقبله .

وقالت عديله :

- طيب قومي يا حضرة المفتي الاعظم ، قومي أحسن الساعه قربت على
التمانيه ، وبعدين أمك تضربك .

وقامت سناء وهي تضحك ووقفت عديله فى وسط الحجرة وقالت فى
سخريه :

- والله احنا مصيبتنا سوده ، على الاقل أمهاتنا كانوا فاهمين وضعهم ،
أما احنا ، احنا ضايعين ، لا احنا فاهمين اذا كنا حريم ولا مش حريم ، ان
كان الحب حرام ولا حلال ، أهلنا يقولوا حرام وراديو الحكومة طول الليل
والنهار بيغنى للحب والكتب بتقول للبنات روحى انت حره ، وان صدقت
البنات تبقى مصيبة ، تبقى سمعتها زفت وهباب .. بالذمه دا وضع ؟
بالذمه احنا مش غلابه ؟!

وأغمضت ليلي عينيها وارتجفت شفتها السفلى ورسمت بيدها على
حافة المقعد خطوطا متشابكة متعارضة . وقالت عديله :

- يللا بينا ، أظن اتفلسفتوا كفايه

وضحكت سناء وقالت :

- يعنى انت اللي ما تفلسفتيش ..

وهزت عديله كتفها وهي تبتسم :

- يعنى مالىش نفس ، أهو اتفلسفت باللى فيه القسمه .

ووقفت ليلي تودعهم حتى اختفيا عن نظرها وأقفلت الباب
ببطء واتجهت الى غرفتها وعند باب الغرفة توقفت قليلا .. لا .. لا ..
أنها لا تريد أن تنفرد بنفسها .. واستدارت واتجهت الى غرفة الجلوس

حيث جلست أمها الى آلة الخياطة تخطط لها قميصا للنوم ، ورفعت أمها عينيها وقالت :

- نزلوا ؟

- أيوه نزلوا !

وظهرت على ملامح الأم علامات الارتياح ، وابتسمت ليلي في نفسها، ان أمها لا ترتاح ولا تطمئن حتى ينزل الضيوف .

وجلست ليلي الى جانب أمها ومدت يدها الى كتاب على مائدة مجاورة وقلبت صفحاته حتى وصلت الى الصفحة التي وقفت عندها وبدأت تقرأ وصوت آلة الخياطة يصل الى أذنيها متصلا حيناً ومتقطعا حيناً آخر .



دق جرس الباب الخارجى وجرت نبويه الخادمة لتفتح الباب . واتضح خطوات فى الممر ورفعت الأم عينيها فى توجس ثم انفرجت ملامحها . ووقف عصام على عتبة الباب مترددا وعلى شفتيه بسمة مرتبكة .

وقالت الأم :

- ماتيجى يا عصام

- هو محمود لسه ما جاش ؟

- زمانه جاى - ادخل يابنى .

وجلس عصام على مقعد يواجه ليلي وأمها . وحجبت ليلي وجهها بالكتاب وتظاهرت باستئناف القراءة . وواصلت أمها العمل بعد أن قالت لعصام:

- مبروك يا بنى عقبال عندك .

وساد الصمت لا يقطعه الا صوت الة الخياطة . وعصام يسلط عينيه على ليلي وليلي تتظاهر بالقراءة .

وقال عصام :

- بتقرى أيه ؟

وأزاحت ليلى الكتاب عن وجهها ، وقالت فى جفاف :

- كتاب لسلامه موسى .

وابتسم هو ، ابتسامته نصف المكملة :

- اشمعنى سلامه موسى ؟

- لقيته فى مكتبة محمود .

- اذا كنت عايزه تقرى كتب قديمه عندك كتب ..

وذكر عصام اسم أحد المؤلفين .

- قرئت له ، لكن سلامه موسى أحسن .

ومال هو بنصفه الأعلى الى الأمام وهو يحادثها عبر الحجرة :

- أحسن فى ايه ؟

- سلامه موسى بيقول الى هو عايز يقوله على طول ، ولكن الثانى

بيلف ويدور وفين وفين على ما يقول الى هو عايز يقوله .

ونظرت ليلي الى عصام نظرة مباشرة صريحة ، واحمر وجهه وحك ذقنه بيده ثم ابتسم وقال :

- انت أصلك لسه صغيره ياليلي ، ومش فاهمه ان فيه ظروف تخلى

الكاتب ما يقدرش يقول الى هو عايزه مباشرة .

وتوقفت آلة الحياطة وقالت الأم :

- ونويتوا أمتى ان شاء الله ؟

والتفت اليها عصام وفى عينيه نظرة مرتبكة وكأنه ضبط وهو يرتكب

جريمة وقال :

- العريس عايز النهارده قبل بكره ، ولكن أنا بقول كفايه الخطوبة

دلوقت ، والجواز لما تبقى تاخذ التوجيهية .

وقالت الأم :

- طبعا يا بنتى ، بعد التعب دا كله ، تخرج من غير شهاده ..

ودارت آلة الحياطة من جديد .

وقالت ليلى :

— يعنى جميله مش حاتروح الجامعة ؟!

وابتسم عصام :

— يعنى انت الى حاتروحي الجامعة ؟

— ومارحش ليه ؟

— وفایدتها أیه ؟ كل بنت مسيرها الجواز .

وتوقفت الأم عن العمل وضحكت ضحكتها القصيرة اللطيفة

— يسلم فمك يابنى ، طول عمرك عاقل ، مش زى الشعنونة دى
وأخوها .

وبدأت ليلى ترسم بيدها على ثوبها خطوطا متوازية لا تتقابل ورفعت
رأسها وقالت فى جد ووجوم :

— عارف يا عصام ، أنا ما كنتش عارفه أنك رجعى كده !

وقلت الحيط من الابرة وانهمكت الأم فى لضمه .

— أنا مش رجعى يا ليلى ، ولكن أنا عايش فى الجامعة وأدرى بظروفها
وما أحبش ان أختى تكون فيها ولا أنت . وأنت ..

وارتجفت شفته السفلى وغزا عينيه حزن عميق ، يعكس رغبة حبيسة
ترتجف فى أعماقه ، رغبة فى الاندماج بهذه الفتاة التى تجلس أمامه .
ودخل الحيط فى الابرة وانفرج وجه الام .

وتحركت موجة جياشة فى كيان ليلى وكان عصاما نقل اليها بهده
النظرة احساسه ، ولعت الدموع فى عينيها وتناولت الكتاب الملقى الى
جانبيها فى لهفة وغطت به وجهها .

وقالت أمها :

— أطلب لك شاي يا عصام .

وباغتته كلماتها من جديد وقال مرتبكا :

- بلاش تعب يا خالتي .

- مافيش تعب ، أنا خارجه بره على كل حال .

وأدار عصام رأسه حتى اطمئن الى أن خالته قد اختفت ، وتردد قليلا وهو يتململ في جلسته ثم وقف واتجه الى ليلي وهي ما تزال تغطي وجهها بالكتاب ووقف على مبعده منها وقال في صوت مختنق ثقيل :

- ليلي

وسقط الكتاب من بين يدي ليلي ومالت لتستعيده . ورفعت الى عصام وجهها تدريجيا وهي تناديه بدورها ، بشفتيها المنفرجتين ، بخديها الورديين ، بعينيها اللتين تلتمعان في خط من نور . واقترب عصام منها وكأنه مشدود اليها بقوة هائلة ، قوة لا تقاوم ، وقال :

- أنت عارفه ؟ مش كده ؟ عارفه من غير ما أقول .

ولم تستطع ليلي أن تتكلم ، ضمت شفتيها في شبه ابتسامة وأغمضت عينيها وهزت رأسها من أعلى الى أسفل هزات متكررة ثم فتحت عينيها على سعتيها بغتة ، وكأن فكرة طرأت لها ، فكرة انتقصت من هذه السعادة التي غمرت كل ذرة من جسمها . وهبت واقفة وقالت في صوت مشروخ :

- لكن انت ما جتش يا عصام ، كل لايام دي ما جتش . ليه ؟ ليه يا عصام ؟

وارتسم على وجهها ألم لا يحتمل . ومد عصام ذراعيه ليحتضنها . ليؤكد لها أنه لا يستطيع ، حتى لو أراد ، أن يبتعد عنها ثم توقفت ذراعاها في الهواء لحظة وانهارت ثقيلة الى جانبيه . وأشاح بوجهه عنها وهو يقول :

- كنت خايف يا ليلي .

وأشارت ليلي بيدها الى صدرها في دهشة :

- خايف مني ؟ مني أنا ؟

وابتسم وهو ينظر اليها في حنان :

- خايف عليك .

- من ايه ؟

وقال عصام بعد تردد :

- من نفسى .. ومن الناس ومن الظروف ومن .. فى الحقيقة مش عارف أفهمك الموقف ازاي يا ليلي .

- والناس مالهم ومالنا يا عصام ؟ أنا مش فاهمه حاجه ، مش فاهمه حاجه خالص و

وتوقفت ليلي عن الكلام حين سمعت خطوات أمها تقترب من الحجرة واتجه عصام الى آلة الخياطة وتظاهر بفحص القميص .. وقالت الأم لليلي وهى تتجه الى مكانها :

- هو ايه اللى انت مش فاهماه ؟

وقالت ليلي فى ارتباك :

- حته من الكتاب ، مش قادره أفهمها .

وجلست الام أمام آلة الخياطة وهى تقول :

- طيب ما تخلى عصام يفهمك .

وزال ارتباك ليلي ومالت برأسها الى كتفها وهى تبتسم فى خبث .

- عصام مش عايز يفهمنى .

وأخفى عصام ابتسامته ونظر الى خالته وهو يقف تجاهها وقال :

- أنا قلت لا يا خالتي !

- أبدا يا بنى ، طول عمرك ابن حلال وبتفهمها كل حاجة ، مش محمود اللى ماعندوش صبر .

ودقت ليلي الأرض بقدمها وعيناها تلمعان فى شقاوه :

- حنى كمان مش عارف ، مش عارف يفهمنى

وانفجرت فى الضحك ، والتفت اليها عصام وود لو استطاع أن يحنضنها بين ذراعيه ، أن يدفن هذا الوجه الضاحك فى صدره ويكتم هذه الضحكات بقبلاته قبلة وراء قبلة . ود لو استطاع أن يحتويها ، أن بفنيها فيه فلا تضحك منه ولا تضحك الا له ولا

وسمع صوت مفتاح يفتح الباب الخارجى وتوقفت ليلي عن الضحك واحمر وجه عصام وعاد الى مكانه الاول وجلس فى مقعده .

ودخل محمود وصافح عصاما فى حرارة وكأنه لم يره من سنين ثم قبل أمه فى فمها وفى جبينها وخديها قبلات صغيرة متناثرة وهى تقاومه وتقول :

- ما تنكسف يا محمود •

ووجهها يحمر كفتاة فى الرابعة عشرة من عمرها ويدها تمسح فى ارتباك على شعرها الذى تسالت اليه خيوط من فضة ومحمود يحتج ويقول :

- ايه ؟ الواحد ما يقدرش يبوس أمه كمان ؟! أمال يا أخوانا يبوس مين ؟ ايه رأيك فى المشكلة دى يا عصام ؟

وأدركت ليلي وهى تنظر الى أخيها أنه قد مر بمرحلة القلق ، وأنه قد اتخذ قرارا •• وجلست على مقعدها وقد ركزت عينيها عليه •
وقال عصام :

- لا ، دا أنت رايق أوى النهاردة !

وقال محمود :

- قرارات يا أستاذ ، قرارات خطيرة •

وانسحبت رجفة الى جسم ليلي وتركزت فى رأسها •• محمود ذاهب الى القناة ، الى القناة •• وترددت هذه الكلمات فى رأسها وكأنها نشيد وغزت جسمها موجة من فخر ، من حنان ، من خوف ، وهبت واقفصة واندفعت الى محمود وعيناها تلمعان • أرادت أن تحتضنه وتقبله ولكن عندما حاذته انحرفت عنه فى خجل وقالت بصوت مرتجف دون أن تنظر اليه :

- أعمل لك شاي يا محمود ؟

وأدرك محمود أن ليلي قد فهمت وليخفى تأثيره جذب شعرها مقربا رأسها اليه وقال :

- بعدين ، بعدين يا ليلي ••

وعادت ليلي الى مكانها وعصام يقول :

- والحفلة كانت كويسة ؟

- حفلة ايه ، ودا وقت حفلات ! أنا مش فاضى للكلام الفارغ ده ..
ولكن على فكرة انت يعنى خرجت من الكلية من غير احم ولا دستور
- كنت تعبان ..

- تعبان ولا جيت تلبس وتستوجه عشان الحفلة ؟

- أدينى مارحتهاش ياسيدي ..

- أمال الوجاهة دي عشان أيه ؟

- كنت رايح وبعدين غيرت رأيي ..

وابتسم محمود فى خبث وقال :

- ولكن صاحبتنا حازعل .. حازعل تمام .

ولمح عصام ليلي تنظر اليه ، واحمر وجهه وقال :

- أنت حاتلبخ .

ورفع محمود كتفيه وذراعيه واصطنع البراءة وقال :

- أنا قلت حاجة ! حا أغير هدمي وأجيلك ، عندي أخبار خطيرة

وخرج محمود ..

جلست ليلي صامئة وقد جمد وجهها واستأنفت أمها عملها .

وبدأت آلة الخياطة تدور وتطن فى أذنى ليلي ، وارتفع طنينها تدريجيا

حتى خيل اليها أنها أصبحت معاول تدق فى رأسها بعنف .

وهبت ليلي واقفة وهى تنظر الى عصام وأشاح عصام بوجهه بعيدا

عنها ..

والآلة تدور والمعاول تطرق فى رأسها بعنف . وارتفع الدم فى

جسد ليلي وتركز فى رأسها وتقدمت نحو عصام وقد أعطت ظهرها لأمها

وبدأت شفتاها تكون كلمات دون أن يرتفع صوتها وهى تدعم كلماتها
بإشارات من يدها :

- مين هى ؟ مين هى ؟

وأغمض عصام عينيه .. مجنونه .. قد تلتفت أمها ، قد يدخل
محمود ، ماذا أفعل ؟ ماذا أفعل فى هذه المجنونة ؟

وتوقفت الآلة وهزت ليلى رأسها وكأنها تستيقظ من النوم
وقالت أمها :

- ماتروحي يا بنتى تشوفى الشاى ! هى طبخه ولا أياه ؟!

ولكن الخادمة دخلت بالشاى فى هذه اللحظة ووضعتة على مائدة
صغيرة أمام عصام

وعادت ليلى الى مكانها وقد جمد وجهها . ونظر اليها عصام من طرف
عينه ورأى فى عينيها نظرة أكدت له أن الخطر لم ينته بعد ، وأفرغ
فنجانا من الشاى وسار به الى آلة الحياطة ووضعه عليها وقال :

- ما تفضلى يا خالتى .

- اشرب انت يا عصام ، أنا ماأشربش شاى دلوقت ..

وجر عصام مقعدا من الخيزران وجلس يشرب الشاى فى حمى
خالته .

وبدأت الآلة تدور من جديد والمطارق تقرع فى رأس ليلى والدم
يتركز فى رأسها . وبید مرتجفة انتزعت ورقة من كراسة تجاورها وبقلم
رصاص كتبت فيها شيئا وطوتها وقامت واقفة . ووقف الفنجان فى يد
عصام . وتقدمت منه ليلى وحاذته معطية وجهها لأمها ومالت على آلة
الحياطة وكأنها تبحث عن شيء وقالت أمها :

- بتفتشى على أياه ؟

ومن تحت الآلة أسقطت الورقة المطوية فى يد عصام اليسرى
وعادت الى مكانها بالمقص .

وبقيت الورقة كقطعة الثلج فى يد عصام وظل منحنيا فترة لايجرؤ

على قضاها ثم مد يديه تحت الآلة وقرأ :

من هي ؟ ما هي علاقتك بها ؟ أجب في الحال والا سألتك أمام الجميع .

وتطلع عصام الى ليلي وقد جلست تقص أظافرها متظاهرة بعدم الاكتراث وفي عينيها نفس النظرة الخطرة .. قد تفعلها ، انه يعرفها ، يعرفها مندفعة الى أقصى حد ، تفكر بقلبها لا بعقلها كما يقول أبوها ..

وبدأ عصام يشعر بصوت الآلة في أذنيه وفي كيانه بأجمعه .. وهي تدور في رتابة ونظام ، تدور وتدق ، تدق .. ك .. كالساعة .. يجب أن يتصرف قبل أن يرجع محمود ، يجب ، والآلة يرتفع صوتها تدريجيا وتدق والوقت يمضي ، ووجهه يكفهر وعيناه تدوران بين الباب وليلي في سرعة وفي جنون .. كيف ؟ كيف يتصرف ؟ والآلة تدق ، ماذا يقول لهذه المجنونة ؟ وكيف ؟ والآلة تدق وتدق ..

ونفض عصام واقفا وقد ارتسمت على وجهه علامات الغضب وسار الى ليلي بخطوات بطيئة ثقيلة وهو يخرج من جيبه قلما ويفتحه ويقول :

- شفت القلم الجاف دا يا ليلي ؟

ويقترّب من المائدة التي تجلس بجوارها ويخرج من جيبه مذكرة ، ويضعها على المائدة وينحنى عليها بالقلم وهو يقول :

- شوفي قد ايه خطه لطيف .

ويكتب على صفحة بيضاء كلمة بالانجليزية ثم يشطبها في ارتباك ويكتب :

انت مجنونة وأنا أحبك .

وكان هذا ما انتوى كتابته ، ولكنه يرى النظرة التي تشرق في عينيها ويود لو قضى بقية عمره يكتب وهي تنظر اليه . ويكتب من جديد :

- أحبك ، أحبك ، أحبك .

وفي سرعة ، وفي عنف ، وفي قوة يرسم تحت الكلمات خطوطا ثقيلة ، خطوطا عميقة ، خطوطا تمزق الورقة ، والدم يتركز في رأسه والآلة تطرق في رأسه ، ثم يشعر بغصة في حلقه ، ويلوى وجهه بعيدا عنها وتبدو في عينيه نظرة حزينة . . نظرة حيوان حبيس ، حيوان جريح ، ويستقيم دون أن ينظر اليها ويطوى المذكرة ويضعها في جيبه ويستدير وحين يصل الى مكانه ينهار على الكرسي منهكا . ويخرج عصام بيد مرتجفة سسيجارة يشعلها ، ويمتص الدخان ويختزنه في صدره ، ويظل مطبقا فمه برهة ثم يفتحه ، ويتصاعد الدخان في حلقات ، حلقات متشابكة متعارضة ، وهو يطيل النظر اليها ثم ينفرج وجهه تدريجيا ويغمض عينيه ويستمر في التدخين .

وتجلس ليلى جامدة متوترة لا تعرف ماذا تفعل بهذه الفورة التي اجتاحت جسمها ، فورة لا تطاق ، لا تحتمل ، فورة من سعادة من حنان من ألم . وتود لو استطاعت أن تقفز ، أن ترقص ، أن تصرخ ، أن تغني ، أن تقول للناس ان عصام يحبها ، وانها تحب عصام ، والفورة جياشة تعصف بها .

وأما ؟ أمها تجلس الى جانبها تخطيط ذيل القميص بالابره في هدوء ، هدوء قاتل .

وقفزت ليلى واقفة واندفعت خارجة من الحجرة .

وقال محمود وهو يدخل بمنامته :

- ايه يا ست ماما ، مافيش عشا النهارده ولا ايه ؟

وغرزت الأم الابرة في القميص وقامت واقفة وعندما وصلت الى الباب ، استدارت وكان فكرة طرأت عليها وقالت لمحمود :

- مش تبارك لعصام ، جميلة حاتتجوز .

- تتجوز ! تتجوز مين ؟

وخرجت الأم من الحجرة وقال عصام في تردد :

- العريس ، العريس اياه . .

(الباب المفتوح - م ٦)

وواجه محمود عصام :

- ازای یا عصام ، ازای انت وافقت على حاجه زى دى ؟

- يا أخى هى عايزه وأمها عايزه ، حأعمل أیه أنا ؟

وجلس محمود فى مقعد مجاور صامتا ثم قال •

- حرام عليكم ، الجواز من غير حب مش جواز ، دا ...

ولم يكمل محمود ، واحمر وجه عصام ، أدرك الكلمة التى أراد محمود استعمالها والتى استعملها كثيرا من قبل كلما ناقشا موضوع الزواج كموضوع عام دون تحديد أشخاص •

وقال محمود بارتباك وهو ينوى انهاء الموضوع •

- أنا طبعا تكلمت كلام عام •

وقال عصام فى غضب •

- طيب تسمح تنزل الأرض شويه •

- أرض ! أرض أیه ؟

- يعنى نتكلم فى الواقع ، مانحلقش فى نظريات وأفكار أكبر

مننا • فى حالتى أنا تقترح أیه ؟

- حالتك ؟!

- يعنى تقترح أیه فى موضوع جميله ، أعمل أیه أنا كإنسان

مسئول عنها ؟ أطلقها فى الشوارع عشان تحب ؟!

- ما حدش بيقول كده ولكن البنت صغيرة وقدامها فرص كتيره

ومافیش داعى للاستعجال •

وقال عصام فى احتداد :

- كل ده تسويف ، هروب من المشكلة ، الجواز السليم ضرورى

يكون أساسه الحب ، والراجل عشان يتجوز ضرورى يحب وكذلك البنت مش كده ؟

- تمام .

ووقف عصام وقد أفقده الغضب السيطرة على نفسه وواجه محمود وقال بصوت ثقيل :

- طيب ، نفرض مثلاً أنك اكتشفت أن ليلى بتحب ، تعمل أيه ؟

وبدت الدهشة على وجه محمود وقال :

- ليلى ! - ليلى أختي ؟!

- أيوه ليلى - ليلى أختك .

وشحب وجه محمود وقال عصام :

- افرض !

وتنهذ محمود فى ارتياح وهز كتفه وقال :

- وأفرض ليه ! ليلى صغيره ومش ملتفتة لحاجات زى دى .

وقال عصام فى انتصار :

- تمام زى ما أنا قلت ، كلام نظرى ، كلام جميل ، كلام مفصول عن الواقع ، واللى على البر عوام .

وضحك فى سخرية ثم استأنف كلامه :

- البنت ضرورى تحب وتتجوز على حب . كل بنت ، أى بنت ، بس مش أختى ولا أختك .. أخوات الناس التانيين . مش كده ؟

وسكت محمود .

وقال عصام فى قسوة وهو يضيق الحلقة حول محمود :

- أنا سألتك سؤال يا محمود ، مابتجاوبش ليه ؟

وأشاح محمود بنظره بعيداً فى اتجاه النافذة وقال وهو يهز كتفيه :

- سؤال أيه ؟

وأطلت ليلى بوجهها من الباب ولم يرها أحد منهما ..

وقال عصام بهدوء :

— لو اكتشفت أن ليلى بتحب ، تعمل أيه ؟

وضحكت ليلى كأنها وجدت لعبة مسلية وقالت :

— صحيح يا محمود ، لو اكتشفت انى با أحب ، تعمل أيه ؟

وجاء كلام ليلى مباغتاً لكليهما فاستدارا على عجل يواجهانها ، محمود
بوجه مذهول وعصام بوجه متوجس ..

ورأى محمود البسمة فى عينيها وفى شفيتها واطمئن ، أدرك أنها
لا تعنى ما تقوله .

وعادت ليلى تقول وهى تبتسم :

— تعمل أيه ؟ والنبي تعمل أيه يا محمود !

وتقدم محمود نحوها وشد شعرها باعزاز وقال :

— أقتلك ، أقتلك قتل .

على مائدة العشاء جلس محمود الى جانب عصام وفى مواجهتهما ليلى
وأمامهم أطباق من الملوخية باللحمة ، والأرز والجبن والحسلاوة
والزيتون الأسود .

وقال محمود :

— يعنى أنا رجل نظرى ، مش كده يا عصام ؟

ومد عصام يده بالسكين وقطع قطعة من الجبن نقلها الى طبقه ،
وقال وهو يبتسم :

— ودى عايزه كلام ..

وبدأت ليلى تغرف فى طبقها جانباً من الأرز ، ولكن محمود لم يبدأ
الأكل ، كان منفعلاً الى حد لم يستطع معه البدء فى الأكل . وقالت ليلى
وهى ترقبه :

— ما تاكل يا محمود ..

— حالا ..

ومد محمود يده الى المعلقة وقرب طبقه الى طبق اللوخية وغمس المعلقة فى الطبق ثم سحب يده من جديد . . كان لا بد أن يعلن لهم الخبر ولكن كيف ؟ يجب أن يعلنه بطريقة تناسب أهميته ، طريقة تهزهما هذا .

وقال عصام :

- وأيه أخبارك يا محمود ؟

وأشرق وجه محمود واتسعت حدقتا عينيه وفرك يديه فى ارتياح ، وترك ثوانى تمر دون أن يجيب . . ثوانى مشحونة بالانتظار ، بالتوقع . وتوقفت يد ليلي بالمعلقة فوق طبق الأرز .

وقال محمود :

- أخبار خطيره .

وتطلع عصام فى اهتمام . ومد محمود يدا مرتجفة الى جيبه وفى عناية أخرج ورقة بيضاء مطوية بسطها ، وفى بطاء مد يده بها ، ووضعها تحت عينى عصام ، ونظر عصام الى الورقة . وسقطت المعلقة من يد ليلي على طرف الطبقة محدثة رنيناً . .

وهز عصام رأسه كأنه لا يصدق ما يراه ثم أمسك بالورقة بكلتا يديه وقربها من عينيه وبعد برهة قال لمحمود فى دهشة :

- أيه ده ؟!

وابتسم محمود فى ارتياح .

- تفكر ايه ؟

- جدول ، جدول تدريب .

- تمام

- جدول مين ؟

رفع محمود رأسه والتمعت عيناه وأشار باصبعه الى صدره وقال :

- جدولى ، جدولى أنا . .

وقال عصام :

- انت اتطوعت ؟

وهز محمود رأسه :

— وابتدیت التدريب کمان •

— فین ٠٠ ؟

— فی معسكر الجامعة فی الهرم •

— وحتسافر امتی ٠٠ ؟

— بعد خمستاشر يوم •

وشق صدر لیلی خوف حاد كأنه سکین ٠٠ لقد تحدد کل شیء ، تحدد موعد السفر وسیذهب محمود وقد ٠٠ قد لا يعود • وسحبت لیلی ذراعها الممدودة علی المائدة فی حرص وفی بطء شديدين كأنها تخشى أن يراها أحد وهي تفعل ذلك •

وبدا محمود یأكل وهو یقول :

— ایه رأيك ؟

— مش تسرعت شويه ؟ مش كان یصح تنتظر شويه لما نشوف ایه تطورات الموقف ؟

وتوقف محمود عن الاكل وأمسك بطرف المائدة بکلتا قبضتیه وقال دون تردد وكأنه قد أعد من قبل الرد علی مثل هذا السؤال :

— احنا الی حانحد تطورات الموقف یا عصام ، أنا وانت وكل مصری ، مش حد تانی •

وعلت جسم لیلی رجفة كالرجفة التي تصیب الانسان من مس الکهرباء وترکزت الرجفة فی رأسها حتی خیل اليها أن شعر رأسها قد وقف • ومدت يدها فی تخبیط عبر المائدة تريد أن تلمس يد محمود ، وقالت فی صوت مخنوق :

— مبروك یا محمود مبروك •

وبدا عصام واجبا وهو یفرد جانبا من الجبن علی قطعة من العیش ، یسويه ویعيد تسويته من جدید ٠٠ ان محمود ينتظر منه أن يتکلم • لقد قال أنه سیذهب هو أيضا الی القناة ، لكنه لم یکن یعرف أن محمود سیندفع هكذا ویبدأ التدريب ویحدد موعد السفر ! يجب انتظار تطورات

الموقف • ان العملية كما هي عملية انتحارية وقد تجلب على البلد الخراب •
وقال محمود :

- والله حاتو حشنا ملوخية الست ماما •

وقالت ليلى وهى تبكى وتضحك فى نفس الوقت :

- حانبقى نبعث لك ملوخية يا محمود ، ملوخية فى ترمس •

ووقفت السكين فى يد عصام •• انها يتكلمان وكأن ليس فى الغرفة
غيرهما وكأنه ليس موجودا ، وكأنه لا يجلس على المائدة معهما • وليلى ،
ليلى عيناها على محمود لا ترفعهما اليه هو وكأنها لا تراه وكأنها أخرجته
من دائرة بصرها ، ومن حياتها •• احنا الى حانحدد تطورات الموقف ••
أنا وأنت ••• أنا •• أنا •

وقالت ليلى :

- يا ريت أنا ، يا ريت أقدر أروح معاك يا محمود •

وضحك محمود :

- لسه شويه ، لما الرجاله يخلصوا ، أبقوا اطلعوا أنتم ياستات •

وغلى الدم فى عروق عصام •• انه ليس أقل رجولة ولا حماسة ولا
وطنية من محمود ، محمود خاف فى مظاهرات ١٩٤٦ وهو لم يخف ،
والمسألة ليست مسألة وطنية أو رجولة ، المسألة مسألة تعقل أو تهور ••
ومالت ليلى بنصفها الأعلى على المائدة وقالت فى همس وهى تتلفت
حولها :

- بس المهم ان بابا وماما ما يعرفوش ، لو عرفوا ••

وقال محمود :

- أنا عارف ، عارف انهم حايتهبونى •

وهزت ليلى رأسها فى يأس :

- مش حايفهموا ، مش حايقدرؤا يفهموا ••

ثم تسربت رنة من السخرية الى صوتها وهى تكمل :

— حايقولوا اتعقل فكر ، استنى لما تشوف حاي عسل ايه . .
وتطلع عصام الى باب الغرفة وود لو استطاع أن يهرب . . لا ، لا مكان
له هنا ، وهما بعيدان عنه ، وهو وحيد ، وحيد وكأنه يقف في صحراء
موحشة . .

وقال محمود وهو يبتسم ابتسامة واسعة :
— هم حايقولوا كده بس ، بكره يقولوا الامثال والحكم الغالية اياها .
وهزت ليلى رأسها وهى تكتم ضحكتها وقالت :
— الباب اللى يجيلك منه الريح
— سده واستريح
وبدأت هى ومحمود يتناوبان الأمثال وهما يضحكان الجذ وكانهما
يلعبان لعبة مسلية :

- وفى التانى السلامة . . .
- وفى العجلة الندامة .
- ونومه وتمطيظه . . .
- أحسن من فرح طيظه .
- وان كان لك عند الكلب حاجة . . .
- قل له يا سيدي .
- والطير الى قصص ريشه . . .
- ما يعرفش يطير .

وانفجرا ضاحكين كطفلين يلهوان . ومدت ليلى منديلها تمسح دمعة
سقطت على خدها . والتقت عيناها بعيني عصام ونظرت اليه فى دهشة
وكانها نسيت أنه معها على المائدة ، ثم أشاحت بوجهها عنه . . لا . .
لن تنظر اليه ، لن تستجدى منه شيئا ، ان الحب لا يستجدى ، حب
مصر لا يستجدى ، ان لم ينبع من القلب فلا فائدة ، لا فائدة .

ومسحت ليلى عينيها وقالت تخاطب محمود :
— طيب وبابا !

- بابا حايكشر ويشاور ويقول :

وأكملت ليلى كلام محمود وهى تضخم مخارج ألفاظها وتشير بيدها
اشارات مسرحية مبالغ فيها :

- أنا عارف ، الحركة دى مش حاتجيب الا الخراب .. الخراب ..

ووجد عصام نفسه يغرق فى الضحك . وتتابع عليه الضحكات
متتالية متلاحقة وانحنى على المائدة ..
وحين استنقام اكتشف أن سكينه حلوة قد انسابت الى نفسه ،
سكينه ويقين ..

وركز عصام عينيه على محمود وقال فى صوت هادى :

- يا ترى ألحق أسافر فى الدفعة بتاعتك ؟

وفى هذه المرة تعتمد عصام أن يتحاشى نظرات ليلى التى انصبت عليه
.. لا ان قراره هو قراره الخاص ، لم يكن لها يد فيه ، ويجب أن تدرك
ذلك تماما .

★ ★ ★ ★

وعندما خرج عصام أسرع ليلى وراءه وقال محمود :

- على فين ؟

وردت ليلى فى اضطراب :

- عصام نسي قلمه .

وجرت خلف عصام على السلم ، وصاحت :

- عصام ..

واستدار عصام يواجهها وهو على بعد درجات منها ، وقالت ليلى بصوت
مرتفع وهى تشير بيدها اشارات مبهمه :

- القلم ، قلمك ، نسيتته .

وتحسس عصام قلمه ووجده فى مكانه وقالت ليلى هامسة :

- الورقه ..

وقلب عصام يده متسائلا • وهمست ليلي من جديد وقد فرغ صبرها :

- الورقة اللى فى المذكرة •

وفهم عصام • وهز رأسه وهو يبتسم متعجبا من اندفاعها •• ونزل خطوات السلم فى ببطء وهو ينظر فى عينيها •• وأعطىها المذكرة بأكملها •

وبدأ يطلع درجات السلم وهو يبتعد عنها درجة بعد درجة ، وهى تنتظر حيث هى •

واستدار عصام فجأة وجرى الى ليلي ومد يدا متخبطة تمسح على وجهها ثم تمتد الى شعرها فتثيره •
وصعد درجات السلم قفزا وهو يجرى مقطوع الانفاس الى بيته •

- ٦ -

وتدفق نبع صاف يجرى ، واعترضت المستنقعات مجرى النبع فى الطريق ، تريد أن تمتصه ، أن تفنيه فيها ، أن تحيله بركودها الى ركود • والنبع فتى فوار جياش عميق ، والمستنقعات عتيقة ترسبت على مر السنين ، تجثم على أرض مصر فى اطمئنان وهدوء ، وصفحتها تلتمع تحت أشعة الشمس •

ولكن تحت الصفحة اللامعة طين ، طين يسد مجرى النبع ، والنبع الجياش الفوار يشق مجراه فى صعوبة بين الطين ، ويخلف وراءه جانبا من مياهه الصافية - التهمها الطين - ثم يندفع جياشا فوارا الى آخر الطريق

وفى آخر الطريق سد ، سد من صخور •

والمستنقعات تجثم فى اطمئنان وفى هدوء •• لاجدوى من الانطلاق •• لاجدوى من الاندفاع •• الركود قرين الحكمة ••
وصفحة المستنقعات تلتمع تحت أشعة الشمس •

أعلن محمود وعصام قرارهما للعائلتين ليلة السفر ، وكان على كل منهما أن يواجه عائلته قبل أن يواجه العدو • واختلفت الأساليب وفقا

لاختلاف العائلتين ولكن الاختلاف كان اختلافا مظهريا . وكانت الأساليب في جوهرها واحدة متكررة ، دعوة للتعقل والتأني ، وعدم التهور والاندفاع ثم محاولة للحد من هذا الاندفاع والانطلاق بالتهديد حيناً وبإثارة الناحية العاطفية حيناً آخر .

وفي بيت محمد أفندي سليمان تكتلت العائلتان لمواجهة الموقف وعلى الأريكة جلست الأختان سنية هانم وسميره هانم وقد شحب لونهما ، وعلى يمينهما على المقعد المجاور جلس سليمان أفندي وعلى يسارهما جلست جميله ، وعلى الأريكة المقابلة عصام ومحمود ، وخلفهما في الفراغ بين الأريكة والنافذة وقفت ليلى .

كانت الأخبار قد هزت الأختين وشل كيانهما خوف من فقد وحيدها ، وإلى جانب الخوف كانت سميحه هانم تعاني ألماً ممضاً ينخر في رأسها كالحمى ، كيف ؟ كيف استطاع عصام أن يخدعها ؟ إنه لم يخف عنها أبداً شيئاً ، فكيف أخفى عنها هذه الأخبار طوال هذه الأيام ؟! . . . وشعرت سميحه هانم بشعور الزوجة المحبة المحبوبة التي تكتشف فجأة خيانة زوجها لها ، وشلتها الصدمة ، جردتها من مهارتها ومن أسلحتها المتعددة ، فلجأت إلى أختها ، وألقت أختها العبء على زوجها سليمان أفندي فهو أعقل وأحكم وأقدر على حل مثل هذا الموقف الذي لم يسبق له مثيل في عائلتها .

ووضع سليمان أفندي رجلاً على رجل ، وقال لمحمود وعصام إنه لا يحاول إجبارهما على العدول عن قرارهما ، فالرأي الأول والأخير لهما . وهو رجل يود أن يناقش الموضوع مع رجال مثله في هدوء وترو وتعقل وحكمه . وهو ليس أقل وطنية منهما ولكنه أكبر سناً وأكثر حكمة وفهما لحقائق الأمور ، وهو لا يندفع وراء عاطفته مثلها بل يفكر بعقله ، وعقله يقول أن الحكومة غير جادة في موقفها . فالجيش مثلاً لم يشترك في المعركة . وعناصر الخيانة متوفرة في السراي والأحزاب وفي الحكومة نفسها . والجواسيس من المصريين يملأون منطقة القنال ، والمواد الغذائية تهرب إلى القوات البريطانية على مرأى من الحكومة وعلى مسمع منها . . . وماذا تستطيع الشجاعة والبطولة أن تفعل اتجاه هذه العوامل ؟ وماذا يستطيع حفة من الفدائيين أن يفعلوا وهم يواجهون الجيش الانجليزي المزود بأحدث الأسلحة ؟

لا . . . إن المسألة ميثوس منها ولن تجلب على البلاد إلا الخراب . . .

ولو كان هناك جدوى لكان هو أول المشجعين لهما على السفر بل لانضم اليهما شخصيا ، لو قبل فى صفوف الفدائيين ، ولكن لا جدوى من الانطلاق ، لا جدوى من الاندفاع .

وانخدع محمود وعصام بالصوت الهادى ، باللامع الهادئة الساكنة .. بمنطق سليمان افندى الحكيم . واندفعا يتناقشان مناقشة رجل لرجل ، وأخذا يتناوبان الحديث يفندان حجج سليمان افندى .. فالموجة الشعبية كفيلة بأن ترغم الحكومة على اتخاذ اجراءات حازمة والا تعرضت للسقوط ، وكفيلة بأن تخرس الملك وتسحق عناصر الخيانة . والكفاح لن يبقى محصورا على حفنة من الفدائيين ، بل سيتمدد تدريجيا حتى يشمل الجيش والشعب بأكمله . وقد هدد ضباط الجيش فعلا بالاستقالة والانضمام الى الفدائيين ان لم يشترك الجيش بأكمله فى المعركة ..

وبدأ صوت سليمان افندى يتغير واختفت النغمة المعسولة من كلامه . وتجمعت معالم الغضب فى وجهه ..

واكتشف محمود وعصام أنهما قد خدعا ، وأن المناقشة لم تكن بريئة كما ادعى ، وانما هى محاولة مستترة لمنعهما من السفر .

واضطر سليمان افندى الى السفور ، وخرج بالمناقشة الى نطاقها الشخصى البحت وصوته يحتد تدريجيا ، وانفرد محمود هذه المرة بالاجابة :

- ليه انتم ؟!

- وليه مش احنا !

- ليه ابنى أنا ، مش أولاد الناس التانيين ؟

- ان كان كل واحد حايمنع أولاده ، ما حدش حاسافر .

- والدراسة ؟

- تستنى .

- طبعا انت يهيك ايه ؟! أبوك بيشقى ويعرق ويدوب عشان

حضرتك تبقى بنى آدم ..

- فيه حاجات كتير أهم من التعليم

- اللى هى ايه يا حضرة ؟

- ايه فايده ان الواحد يبقى متعلم وعبد ؟!

- أبوك أهو عايش كده ، وجدك من قبله ، يبقوا عبيد ؟
واحتد محمود وفقد سيطرته على نفسه :
- طبعا عبيد .. كل واحد ما يكافحش عشان يتحرر من الاستعمار
يبقى عبد .
- واحتقن وجه الأب ، وقام واقفا ، ونعت محمود بأنه ابن عاق ووقع
وقليل التربية ، ثم قال فى سخرية :
- حضرتك فاهم نفسك بطل . مش كده ؟
- أنا مش بطل ، أنا راجل ، راجل بيدافع عن حرите .
- أنت مش راجل ، أنت عيل ، عيل ضحكوا عليه .
- ما حدش ضحك على ..
- أنت فديه ، خروف بتدبحه الحكومة ، عشان تقنع الناس أنها
وطنية ..
- أنا ما يهمنىش أية غرض الحكومة ، الى يهمنى هو غرضي أنا
وغرض الشعب .
- الشعب ! .. الشعب حاتخدمه لما تقع هناك من أول يوم ؟ لما
تقع ميت ؟!
- وكتم الأب دموعه بصعوبة ، وارتفع عويل كل من سنيه هانم
وسميره هانم ، وأشاح محمود بوجهه بعيدا ليخفى تأثيره ، وقال وهو
ينظر الى الأفق البعيد :
- أنا عارف ، عارف ومستعد للاحتمال ده .
- واستدارت ليلي وواجهت النافذة .
- وصرخ الأب وقد بلغ به الغضب منتهاه .
- طبعا ما يهمكش ، يهكم أية ؟ حضرتك تموت بطل ، وتنحرق
أمك وينحرق أبوك ، وتنحرق أختك .
- وشحب وجه محمود ، وغشت عينيه طبقة من الدموع ، وقال فى
توسل :

- أرجوك تفهم ، أرجوك يا بابا حاول انك تفهم أنا ضروري أسافر ،
ما أقدرش ما أسافرش .

وهز الأب رأسه في يأس ، ومشى في اتجاه الباب ، وعندما وصله
استدار وقال وقد جمد وجهه :

- لو سافرت ، لا أنت ابني ولا أعرفك ، وعتبة البيت ماتعتهاش .

وتوقف الأب عن الكلام ثم ارتجفت شفتاه وهو يقول :

- ان رجعت . .

وخرج يهرول الى حجرته .

* * * *

واتجهت أم محمود الى حيث يجلس ، ووقفت تستند بيديها على
مائدة مستديرة تفصل بينها وبينه وتقول :

- اعقل يا بني ، عشان خاطري ، عشان خاطر أمك الغلبانه .

وجمد وجه محمود وهو يتجه بنظره بعيدا عنها .

والتفتت الى عصام تستنجد به .

- أنت طول عمرك عاقل يا عصام ، عقله يا بني .

ومسح عصام وجهه بيده .

وركزت أمه عينيها عليه ، كان وجهها شاحبا شحوب الموت

وعقلها يدور . . لا يمكن ، لا يمكن أن يسافر عصام . . كل انسان الا

عصام ، ابنها ، حبيبها ، رجلها . لا يمكن أن تعيش من غيره ، ولا يوم

ولا ساعة . ماذا تعمل ؟ ماذا تعمل لتوقفه ؟!

وعادت أم محمود تلح على عصام :

- ما بتردش ليه يا عصام ؟ اتكلم يا بني .

وقال عصام دون أن ينظر اليها :

- حأتكلم أقول ايه ياخالتي ؟!

وارتخت ذراعها الى جانبها وقد جمدت فيهما الحياة ، وقالت في

يأس وكأنها لا تأمل في شيء ، وكأنها تقول الجملة لمجرد أنها تكونت في

عقلها :

- عقل المجنون ده •

وضحكت سميده هانم فى سخرية مرة :

- هو عصام فاضل فيه عقل ، ما طيره محمود • البركة فى محمود •

واحتقن الدم فى وجه أم محمود والتفتت الى أختها :

- أنا عارفه ، أنت دايما تجيبى الذنب على محمود •

- عصام طول عمره عاقل ، وابنك الى طول عمره شعنون •

والتفت محمود الى ليلي وهى تقف وراءه ، وابتنسم •

وقام عصام واقفا ، وتقدم بخطوات بطيئة الى حيث تجلس أمه ،

ووقف أمامها وقد انفرجت ساقاه وارتجف صوته بالغضب وهو يقول :

- أنا مش عيل عشان محمود يطير عقلى • فاهمه ؟

وتحكم عصام فى صوته وهو يستأنف كلامه :

- ويجب تفهمى كمان ، انى مسافر بكرة ، مهما عملت •

ورفعت اليه أمه وجهها ، واحتد من جديد ، وكاد يصرخ وهو يقول :

- مسافر • • مسافر • • فاهمه ؟

وقفزت أمه واقفة ، وألقت بنفسها عليه واحتضنته وهى تتشبث

به فى جنون • والتوى لسانها ، وكأنها فقدت القدرة على النطق السليم

وهى تقول :

- ما أقدرش • • عصام ما أقدرش ما • •

وأشاح عصام بوجهه بعيدا عنها ، وفى رقة حاول أن يتخلص من

ذراعيها ، ولكنهما تشبثا به وكأنهما طوقان من حديد • وفى عنف خلص

نفسه من ذراعيها ، وتراجع بظهره الى الوراء بعيدا عنها •

وأحنت أم عصام رأسها ، وأخفت وجهها بيديها •

وجرت اليها جميله واحتضنتها من الخلف وهى تبكى وتقول :

- حرام عليك يا عصام ، حرام عليك •

ومرت لحظة سكون لا يقطعها سوى عويل جميله •

ورفعت أم عصام رأسها ووجهها ما زال مغطى بيديها ، وحين

استكمل الرأس ارتفاعه ، أزاحت يديها عن وجهها وقد تغير تغيرا كليا •

كانت ملامح الوجه الناعم قد اكتسبت صرامة والعينان القلقتان
قد استقرتا في محجريهما ، والفم المتدلى من جانبيه قد استقام .
ونظرت لحظة الى عصام وكأنها تقيسه ثم قالت :
- خلاص يا عصام . . . دا قرارك ! لنهائي ؟

وهز عصام رأسه دون أن يتكلم .
وخلصت أم عصام نفسها من بين ذراعى جميله في عنف ، واندفعت
تجرى الى النافذة . . .

وشل الرعب الموجودين في الحجرة وصرخت جميله صرخة مدوية .
ولحقت ليلي بخالتها وهي تتسلق قاعدة النافذة وتعلقت بكتفيها .
وصاحت أم عصام :

- سيبونى ، سيبونى أموت نفسى ، مش عايزه أعيش .
ونحى عصام ليلي ، وجذب أمه من كتفيها بعنف الى أسفل ، وفي
عنف أدارها اليه ، ووقف أمامها وجها لوجه ويداه ما زالتا على كتفيها ،
والتقت عيناه بعينيها في نظرة طويلة . .

وأغمضت أم عصام عينيها لحظة ، والدم يعود الى التدفق فى
عروقها . ولان وجهها ، وعادت الى وسط الحجرة ، خفيفة الخطوة ، رافعة
الرأس ، وعلى وجهها راحة وسكينة .

وأمسكت جميله بذراع أمها وقالت لعصام :

- يللا بينا على بيتنا . .
وسار عصام خلف أمه وجميله .

وفى الساعة الحادية عشر مساء وبينما كان محمود يحزم حاجياته ،
أرسل اليه عصام ورقة مطوية مع الخادمة .

وقرأ محمود الورقة والقاهها الى ليلي وهي تجلس على طرف السرير :
- تفضلى يا ستى .

وفى الورقة قرأت ليلي :

« أمى مغمى عليها منذ ثلاث ساعات ، أرسلت فى طلب الطبيب ولم
يحضر بعد . محمود ماذا أستطيع أن أفعل ؟ اننى لا أستطيع أن أتخلى
عن أمى وهي فى هذه الحال ، وبعد ما فعلته من أجلى ومن أجل جميله ، لا

.. لا يمكن يا محمود . أنت تفهم أليس كذلك ؟ وعندما تتحسن سأحاول
اللقاء بك ، مع السلامة وقلبي معك ومعكم جميعا . »

عصام حمدي

وقال محمود وهو يرمي بفأله صوف في الحقيبة :

- وحانعمل أياه بقلبه ، حانفعنا في أياه ؟!

ولم تكن ليلى تنصت إليه ، كانت تنظر بعيدا وهي تفكر وفجأة
ركزت عينيها على محمود وهو يجلس الى جانب الحقيبة وقالت :

- تفكر يا محمود ، خالتي عيانه صحيح ؟

وتطلع اليها محمود في بلاهة لحظة ثم قفز واقفا وقد اتسعت حدقتا
عينييه :

- لاء مش معقول ! مش معقول .

وكتمت ليلى ابتسامتها وهزت رأسها وقد ضاقت عيناها في خبث
.. واقترب منها محمود .

- عايزه تقولي انها بتمثل .. !

وهزت ليلى كتفيها وقالت وهي تضحك في مرارة :

- ما تمثيلش ليه . هو دور الانتحار كان وحتس ؟!

وتوقف محمود مصعوقا وضحكت ليلى ضحكة خالصة .

- عارف يا محمود . ساعة ما رمت نفسها على الشباك وجيت أشدها
عملت ايه .. ؟

- ايه .. ؟ ايه يا ليلى ؟!

ورفعت ليلى رأسها وغامت عيناها وهي تمثل ما حدث وقالت في
صوت خافت وكأنها تحدث نفسها :

- غمزتلي بعينها وقرصتني في أيدي ..

وبدت على وجه محمود علامات عدم الفهم . وضحكت ليلى .

- يعني كأنها بتقول لي : ما تخافيش دا كده وكده ..

وخبط محمود كفا على كف ، وارتسمت فى ذهن ليلي صورة أمها
وهي تجلس فى الصلاة وتقول :

- أختي سميره شاطرة ، عرفت تطوى ولادها تحت جناحها ..

* * * *

وفى الفجر جلست الأم فى الصلاة على المقعد المواجه للباب صامته
شاحبة متصلبة كالجثة الهامدة . وأمامها جلست ليلي .

وانحنى محمود على الحقيبة يحاول اقفالها .

وطرق الباب طرقة خفيفة ، وقام محمود وفتح الباب ، ودخل عصام
بردائه المنزلى ، وبدت على وجه محمود علامات الارتياح ..

ان وجود عصام ، وجود أى غريب ، يجعل عملية الوداع أسهل
وأبسط .

وزاغت نظرات الأم وقالت فى صوت ميت :

- هو عصام مش مسافر .. ؟

وقال عصام وكأنه يعتذر :

- أعمل ايه يا خالتي ؟ .. ماما عيانة خالص ..

وانخرطت الأم تبكى وهي تكتم نشيجها حتى لا يصل صدها الى
الاب الذى اعتكف فى غرفته .

وقامت ليلي واقفة واتجهت الى أمها وربتت على كتفها وقالت

- بس يا ماما ، هو عصام كان حايحرسه .

وقالت الأم بصوت واهن :

- واشمعنى هو ، اشمعنى هو الى يروح لوحده ..

وتنهد محمود فى ضيق وقالت ليلي دون أن تنظر الى عصام :

- عصام كمان حايسافر لما خالتي تتحسن .

وأشاحت الأم بيدها مبدية عدم تصديقها لكلام ليلي وغرقت فى

صمتها من جديد وهي تهز رأسها ما بين الحين والحين .

ونظر اليها عصام فى دهشة وخطر بباله أنها لم تسأل عن أمه

- أختها - بالرغم من أنه قال أنها مريضة للغاية ..

وبجح محمود فى قفل الحقيبة بمساعدة عصام • وقام واقفا وقد أمسك بالحقيبة •

وخيل ليلي أن الشحوب يلائم وجه محمود وأنه يبدو أكثر وسامة فى بذلته العسكرية •

وبدا الارتباك على وجه محمود وأسقط حقيبته على الأرض ، وتقدم الى أمه بخطوات مضطربة وقبلها فى جبينها • واستدار لينذهب ثم عاد اليها وأمسك بيديها وقربهما من فمه وقبلهما بلهفة • وسالت دمـوع الأم • واستقام محمود واتجه الى ليلي ولف يده حول كتفها وقبلها ، وهروا بحقيبته الى الباب •

وجرت ليلي خلفه على السلم واستدار يواجهها وهز رأسه وقال :

- لا يا ليلي ، أنا مش عايزك أنت بالذات تعيطى •

وقالت ليلي وهى تمسح الدموع بكفها :

- أنا ما بيعطش يا محمود ، ما بيعطش ••

- انت فاهمة يا ليلي ؟ مش كده ؟ فاهمه أنا رايح ليه •• ؟

وهزت ليلي رأسها بالموافقة وقد أشرق وجهها والتمعت عيناها ، وقال محمود :

- وادراكي ان فيه حد فاهم ، حد عزيز على ، حاينخلينى مستريح •

وابتسمت ليلي وقالت :

- أنا فاهمه يا محمود وكلهم بكره يفهموا ، مع السلامة وحاسب على نفسك ••

ووضع محمود الحقيبة واحتضن ليلي وقبلها ونزل السلم من جديد • وصاحت ليلي :

- احنا منتظرينك ، منتظرينك يا محمود •

وسمعت صوت عصام من خلفها يقول :

- مع السلامة ، مع السلامة يا محمود •

ورفع محمود يده ملوحا لكليهما دون أن ينظر الى الخلف •

وأفسح عصام الطريق لليلي لتمر ، ومضى خلفها فى اتجاه الشقة .
ودخلت ليلي ثم استدارت وواجهت عصام وهو ما يزال فى الخارج
ووضعت يدها على الباب . تهم باغلاقه وكأنها تمنعه من الدخول .

وقال عصام :

- حادخل أشوف خالتي .

وهزت ليلي رأسها علامة عدم الموافقة دون أن تتكلم ، ورأت وجه
عصام ينقلب وقالت :

- مش دلوقت يا عصام ، مش دلوقت ، اطلع فوق ، اطلع لخالتي .

وأقفلت الباب وعصام ما زال متسمرًا فى مكانه .

ووقفت ليلي برهة تستند بوجهها الى الباب وهي تستمع الى خطوات
عصام تبتعد متباطئة على السلم . . لقد خذلها ، خذلها ؟ كيف ؟ . . لقد
خذلها والسلام .

وعويل أمها يرتفع تدريجيا حتى يصبح كماعول تدق فى رأسها
وتهد كيائها وتحول بينها وبين التفكير .

- ٧ -

وبدأت ليلي ثرقب صندوق البريد وهي ذاهبة الى المدرسة وهي
عائدة من المدرسة وفى أوقات توزيع البريد وفى غير أوقات توزيع
البريد وكأن حياتها تركزت فى ذلك الصندوق الخشبي الصغير ، وتناقلت
خطابات محمود ترسل الرجفة الى جسمها ، رجفة فخر وحنان .

وكان يكتب لها مرتين فى الأسبوع ، وأحيانا ثلاث مرات . وكانت
تشعر وهي تقرأ خطاباتة أنه يجلس تجاهها فى حجرته ، يحكى لها وقد
اتسعت عيناه ، وكأنهما قد تفتحتا على عالم جديد . وكل شيء فى هذا
العالم جميل ومثير ، الناس والاحداث والتجارب الجديدة والافكار
الجديدة والأصدقاء الجدد .

ولكن صديقا واحدا من بين هؤلاء الأصدقاء يسحر محمود فيكتب
عنه فى كل خطاب وكان حسين عامر هو الزمار الذى يقود محمود
بمزمارة الى العالم المسحور ، ومحمود يمضى فى ذلك العالم يفعل بكل

تحررة جديدة وبكل فكرة جديدة ..

كتب اليها يقول :

« فجرت اليوم لأول مرة ، أول قنبلة حارقة فى معسكر بريطانى .
ووقفت بعيدا أرقب نتيجة عملى ، وعندما اندلعت النصار فى المعسكر
خيل الى أن قبسا من النور قد ملأ قلبى وكيانى »

وفى خطاب آخر : « لقد كبرت يا ليلي ، كبرت وأشعر كأنى لم
أبلغ الا بعد أن أتيت الى القناة »

وكتب يقول : « أنا أحيا يا ليلي أحيا . أتفهمين يا عزيزتى ؟ أحيا
منفعلا كل ساعة وكل دقيقة من عمرى . كنت أحسب وأنا فى القاهرة
أنى أحيا ، ولكنى أدركت بعد تجربتى الأخيرة أننى كنت مخطئا . ان
الركود موت لا حياة . أنت تسأليننى ألا أخاف ؟ طبعاً خفت أول
الأمر ، والخوف هو الذى يجعل للكفاح لذة ، فالانسان يتقدم وهو
خائف ولكن قوة أكبر منه ، أكبر من خوفه تدفع به الى الأمام وتجعله
يعمل ما ينبغى أن يعمل به بكل ثبات وبكل دقة . وعندما ينتهى كل شيء
بنتشى الانسان ، اذ يدرك أنه تغلب على نفسه ، على ضعفه وعلى فرديته
ومرة بعد مرة يتحرر الانسان من الأنانية التى تسيطر على كل شيء فى
حياتنا ، ويشعر أنه فرد فى مجموع ، وأن حياته مهمة طالما هو فى خدمة
هذا المجموع ، وأنه لو فقد حياته لن تكف الأرض عن الدوران ، بل
سيواصل الآخرون العمل الذى بدأه ، العمل الذى فقد حياته من أجله
واذ ذاك يتحرر الانسان من الخوف ، يتحرر من « الأنا » ..

— أنا حـا أجنن يا ليلي . ومش لاقى فرصة أتفاهم معاك ، فيه أية ؟

مش تفهمينى ..

قالها عصام ليلي وهما يقفان فى محل شيكوريل بين الباب والمصعد
ينتظران عودة جميلة وأمها من « الكيس » . وكان اليوم أول أيام
« الأوكازيون » والباب الزجاجى لا يكف عن الحركة .

ولم تجب ليلي ، وقال عصام فى صوت هامس :

— أية يا ليلي أنت مش بتحبينى ؟ ..

ومرقت سيدة عجوز مصبوغة الوجه الى المحل ، وركزت ليلى نظرها على الباب الزجاجى وهو يتأرجح خلفها، وأشعة نور النيون تنكسر عليه وقالت :

- أظن انت عارف يا عصام ؟

- أنا مش عارف حاجة وبصراحة حا أجبن • انت زعلانة عشان ما سافرتش مع محمود • • ؟

ونظرت ليلى الى عصام وهو محمل بالمشتريات وقالت :

- وحا أزعل منك ليه ؟ هو السفر بالقوة • • !

- آمال متغيرة من ناحيتى ليه ؟

وانفتح باب المصعد على مصراعيه وخرج منه حشد من الناس تقدم فى اتجاه باب الخروج •

وقالت ليلى وهى تنظر الى الخارجين من المصعد :

- أنا مش متغيره ولا حاجة • •

- لاء ، مش عوايدك •

وأدارت ليلى رأسها الى عصام وقالت فى قسوة :

- عايزنى أعمل ايه ؟ أغنى ؟ أرقص ؟ وأخويا بيحارب

وهمس عصام فى يأس :

- انت ما بتحبنيش ، ما بتحبنيش خالص •

وفتحت ليلى فمها لتتكلم ، ولكن الناس فصلوا بينها وبين عصام واضطر عصام الى التراجع أمام الضغط وهو يحاول أن يحفظ توازنه بالمشتريات التى تثقله •

وقال رجل يلبس بذلة رمادية لزوجته التى تضع قبعة بريشة على رأسها :

- ضحكوا علينا ، دا مش القماش الأصيل ، دا تقليد • •

وأزاحته من الطريق امرأتان تحتضنان مشترياتهما ، وعلى وجهيهما علامات الانتصار •

وقال الرجل ذو البذلة الرمادية من جديد :

- دا تقليد . .

ولكن صوته غرق في زحمة الأصوات الأخرى .

- أما شروة ! أهى دى الفرص ولا بلاش !

قالت سيدة فى ثياب سوداء . وردت عليها أخرى :

- ولا الست أم بمبى الى كانت عايزه تخطفها منك .

وضحكت السيدة ذات الملابس السوداء

- والله كنت قتلتها قتل .

وعاد الرجل ذو البذلة الرمادية يقول :

- دا مش الاصلى ، دا تقليد . .

وقالت زوجته وهى تسوى ريشة قبعتها :

- هس . بلاش دوشة ، أنا شايفة الماركة بعينى ، قماش

انجليزى أصلى . .

وتأففت فتاة طويلة الرقبة بحاجبين مقوسين وقالت لزميلتها :

- أف . أنا كنت حا أتخنى . دا مش أوكازيون ده يا حبيبتي ،

دا حرب ، والله احنا فدائيين صحيح . .

وضحكت زميلتها .

وارتجفت ليلي حين باغتتها خالتها من الخلف ، ووضعت يدها على

كتفها وقالت :

- بشرفك يا ليلي ، مش كسبنا الشروة دى . . ؟

* * * *

ولم يرخ عصام نظره عن ليلي ، وأمه وجميله تكملان بقية

مشترواتها ، ركز عينيه عليها وكأنهما مشدودتان اليها .

ورأت ليلي النظرة العاتبة فى عينيه ، نظرة حيوان جريح يتألم . .

ماذا جرى لعصام ؟ هل جن ؟ أين ذهب تعقله واحتراسه ؟ ألا يدرك أن

أمه معنا وأن جميلة معنا ؟

وفى الطريق الى البيت أشارت سميرة هانم الى تاكسى وركبت فى المقعد الخلفى مع جميله وبينهما أكوام من المشتروات ، وفى المقعد الأمامى جلست ليلي وعصام . .

وقرب عصام جسده من ليلي حتى أصبح فخذها لصق فخذها .
ولفحت أنفاسه خدها ثقيلة متلاحقة ، ومد يده يمسك بيدها فى رقة ، وحاولت هى أن تخلص يدها من يده وعنفقت قبضته ، وجذبت يدها وازدادت القبضة عنفا . وكتمت ليلي صرخة ألم ولمعت الدموع فى عيني عصام وارتخت قبضته . وأخرج من جيبه قلما وورقة وكتب فى الورقة كلمات ثم أسقطها فى جيب معطف ليلي .

ووقف عصام يدفع حساب « التاكسى » وحيث ليلي خالتها واندفعت مرتبكة الى شقتها ، وفى الصالة قرأت ما كتبه عصام :

« أرجوك . . أرجوك يا حبيبتي لا تهجريني . . لا تهجريني »

وارتجفت يد ليلي وهى تعيد الورقة الى جيبها ، وكانت يدها ما تزال ترتجف وهى تضرب جرس شقة عصام .

فتحت جميلة الباب وقالت :

- أيوه ، أهى ليلي جت ، تعالى يا ستى لما نشوف المشكلة دى .

واتجهت ليلي مع جميلة الى حجرة أمها .
وعلى السرير جلست سميرة هانم وأمامها قطع القماش مفرودة منشورة بألوانها الصارخة المتنافرة ، لا يكاد نظر الانسان يستقر على لون منها حتى ينتقل الى الآخر ثم يكمل الدورة ليعاود النظر من جديد . وغشى نظر ليلي وقالت خالتها :

- كويس الى جيتى يا حبيبتي .

وتقدمت ليلي من خالتها . وأشارت سميرة هانم الى « موديلات » لأثواب مرصوفة بمحاذاة حافة السرير وقالت :

- آدى القماش وآدى الموديلات . نقى بقى . .
وقالت جميلة :

- أنا با أقول الدانتل الأحمر للفستان الدراييه ده • ايه رأيك
يا ليلي •• ؟

ولم تترك سميرة هانم فرصة لليلي لتتكلم :

- لاء يا جميلة •• الدانتل الأحمر ضرورى يتفصل سامبل خالص
دراييه فى دانتل ؟! الدراييه عايز شيفون • آه ، ايه رأيك نعمل الموديل
الدراييه ده فى الشيفون •• ؟

- أنهى شيفون •• ؟

- الشيفون اللى لون قلب الفسدة •

وجرت آليها جميلة تقبلها •

- انت هاييله يا ماما ، يبقى جنان ، جنان خالص ••

وتطلعت ليلي الى الباب فى قلق وانقبض وجه جميلة وقالت وهى
تقف فى مواجهة أمها وتشير بأصبعها :

- بس على شرط يا ماما ، مش عشان الخطوبة •

- دا يبقى جميل أوى يا روحى • شيفون طبيعى جنان !

وهزت جميلة كتفيها وطفرت الدموع آلى عينيها •

- لاء يا ستى وأنا مالى ، أنا قلت لك أنا عايزه دانتل جيبيير
عشان الخطوبة ••

- الجيبيير أنا حا اجيبهولك يا حبيبتي • بس عشان كتب الكتاب
مش الخطوبة ••

وسالت دموع جميلة على خديها وقالت بصوت يخنقه النشيج :

- طيب خلاص • خلاص يا ماما • مش عايره أتجوز ، مش عايزه
أتجوز خالص ••

وسارت فى اتجاه الباب •

وقامت أمها خلفها تجرى ، واحتضنتها وقالت :

- يا حبيبتي ! •• وتزعلى نفسك كده ! •• طيب خلاص أنا

حا أجيب كل الى انت عايزاه ، عايزه الدانتل لون ايه ؟

وقالت جميلة وهى ما زالت تبكى :

- سيمون ..

- والجزمة ؟

ومسحت جميلة دموعها بكفها :

- ستان لون الفستان .

- بس كده ، بكره الصبح حا أنزل أجيب الدانتل وأوصى على

الجزمة . بس تعالى دلوقت ادينى رأيك فى الموضوع ده خلىنا نخلص .

الوقت بيجرى وما عدش على الخطوبه الا أسبوع .

وسحبت سميرة هانم جميلة من يدها وقالت وهى تنظر بعيدا

وكانها تحلم :

- وبعد الخطوبة حا تحتاجى لكل الفساتين دى ، يوم فى الاوبرج

ويوم فى مينا هاوس ويوم فى الحلمية بالاس ..

وضحكت جميلة :

- بس يا ماما مش عايزه الرمادى ده . دا ميت خالص .

وقالت ليلي وهى تجلس على الفوتيل وعيناها مشدودتان الى

الباب :

- بالعكس يا جميلة دا حلو أوى ، دا حتى لون هادى وجميل .

وجلست خالتها على حافة السرير وقالت :

- دا مش هادى بس يا ليلي ، دا اللون الرمادى ده يبرز جسم

السست ، الراجل مش حايبص للون . اللون مش حايلفت نظره ، الى

حايلفت نظره الجسم ، العود .

وكتمت ليلي ابتسامتها ، وضحكت جميلة ..

- انت واعية يا ماما ، واعية تمام !

وضحكت سميره هانم وضربت ابنتها على فخذهما ، وهى تجلس

قبالتها وقالت :

- آمال فين عصام ؟ .. عصام ذوقه حلو أوى فى القساتين ..
روحى ناديه يا جميله ، ولا أقولك ، طبقى معايا القماش أحسن يتمرط ،
وليلي تناديه .

وقامت ليلي واقفة ، وقالت خالتها :

- تلاقيه فى المكتب يا ليلي

* * * *

فتحت ليلي باب الغرفة وقفلته خلفها ولقتها موجة من حنان وألم .
كان عصام يجلس وقد دفن رأسه بين ذراعيه على المكتب . ووقفت ليلي
ترقبه لحظة ثم تقدمت منه على أطراف أصابعها ، وعندما حاذته مست
كتفه بيدها ولكنه لم يتحرك وكأنه مستغرق فى النوم ومالت عليه
بنصفها الأعلى وقالت فى همس :

- عصام ..

وباغت الصوت عصام وأزاح ذراعيه ورفع رأسه اليها .
واستقامت ليلي فى خوف ، ولكنه أمسك بذراعيها بقبضتيه قبل
أن تتراجع الى الخلف ..

كان وجهه متغيرا ، وكأن ملامحه قد فقدت حدودها : الأنف
مفرطحة ، والوجنتان قد تهدلتا ، والذقن قد تدلت ، والفم ارتخى من
الجانبين ، وفى العينين نظرة زائغة وكأنه غائب عن الوعي .

ورفع عصام جسده اليها فى بطء وقبضتاه تثبتانها فى الأرض .
وملامح وجهه تتحدد وتكتسب قوة وعنفًا والنظرة الزائغة تستقر وتتركز
تدريجيا ، والوجه ينقلب ويربد . وفى العينين نظرة تهديد واصرار
وكانه سيضربها .. وقبضتاه تعنفان على ذراعيها ، وجسمه يطاول
جسمها ، ووجهه يلامس وجهها ، وشفته تسقطان على شفتيها .

وألقت ليلي برأسها الى الخلف وصاحت بصوت مخنوق :

- عصام ..

ولم يبد عليه أنه سمعها . لم يلن الوجه ، ولم تتغير النظرة .

وتراجعت ليلي الى الخلف خطوة وراء خطوة ، وتابعها عصام خطوة
بعد خطوة ، وتطلعت الى الخلف ، وحاولت أن تغير اتجاه تراجعها ، ولكن
عصام شد على ذراعيها ، واتجه بها الى الفراغ بين المقعد والحائط .
والتصقت ليلي بالحائط

- سبنى .. سبنى يا عصام ..

ولم يبد عليه أنه سمعها ، أنزل يديه ببطء وهما تحيطان بذراعيها وأمسك يديها ، وقرب جسده من جسدها . ورفعت ليلي رأسها وألقت بها الى الخلف ، الى الحائط ، وسرت البرودة فى أطرافها ، وقالت وفمها يرتجف :

- حاصر خ .. حاصر خ يا عصام .

وسحق عصام جسدها بجسده ، ونزل فمه مفتوحاً على عينيها ، ومسح خدها فى بطنه ، ثم انسحب فجأة الى فمها .

وتثلج فم ليلي وجمد ، ثم بللت دموع عصام خديها ..

وانهار على المقعد المجاور ووضع مرفقيه على فخذه ، وأسند وجهه الى يديه ، وانفجر باكياً ..

وارتفع نشيجه تدريجياً ، ووقفت ليلي متسمة فى مكانها ، وفى جسمها خواء وفى عقلها خواء ، وكأنها قد استيقظت من حلم لتوها .

وسمعت عصام يبكى . واستولى عليها مزيج من الرهبة والخجل وكأنها ارتكبت شيئاً مشيناً ، وكأنها دخلت مكاناً مقدساً لا حق لها فى دخوله ، ورأت شيئاً مقدساً لا حق لها فى رؤيته ، وودت لو استطاعت أن تهرب بعيداً .. وعويل عصام يملأ أذنيها ..

ومدت ليلي يدا مرتجفة ترددت وهى معلقة فى الهواء ثم استقرت فى رفق على كتف عصام .

وقال عصام فى صوت يقطعه النشيج :

- انت بتحتقرينى . مش كده ؟

وقالت ليلي فى همس :

- بس يا عصام ، بس أرجوك .

وأزاح عصام يدها عن كتفه ونظر اليها فى كراهية وقال وقد استقام صوته :

- أبعدى .. أبعدى عني ، مش عايز أشوفك ، مش عايز أشوفك خالص ..

وضمت ليلى شفتيها وخرجت من الغرفة تجرى .

كانت ليلى تجلس فى حجرتها تنسج « جاكيت » من « التريكو »
وكان أبوها فى الخارج وأمها فى زيارة أختها عندما دخلت عليها الخادمة
وقالت :

- سى عصام بره يا ستى ..

وجمد وجه ليلى وقامت واقفة . وسارت فى اتجاه النافذة مولية
ظهرها للخادمة وهى تقول :

- قولى لعصام ان ماما بره ..

- قلت له يا ستى ، بيقول عايز يشوف حضرتك ..

- قوليله نايمه يا فاطمة ..

- أوعى أنت يا فاطمة .

قال عصام ، وأزاح الخادمة الصغيرة برفق من مدخل الباب . ودخل
الغرفة . ولم تتحرك ليلى ، استقام رأسها وبقيت مكانها معطية ظهرها
لعصام . وساد الصمت لحظة ثم قالت ليلى فى صوت جامد دون أن
تستدير :

- عايز آيه يا عصام ؟ ..

- أنا ..

واقترب منها :

- أنا آسف يا ليلى على كل اللى حصل .

واستدارت ليلى ببطء وواجهته .. كان بياض وجهه قد اختلط
بالاصفرار ، وتحت عينيه هالة سوداء عميقة ، وكأنه مريض من زمن .
وقالت ليلى فى صوت ميت بلا تعبير :

- خلاص يا عصام ، اعتبر المسألة منتهيه .

وارتجفت فتحة أنف عصام وقال :

- مسألة آيه .. ؟

ولم تجب ليلى . جلست على طرف السرير ومدت يدا مرتجفة الى قطعة التريكو وبدأت تعمل ، تدخل الابر في غرزة وتلف حولها الخيط ثم تجذبه بأحكام وتممر الغرزة الجديدة من الغرزة القديمة ثم تفلت الأخيرة من الابر وتبدأ من جديد .

واقترب منها عصام وقال بصوت أرق :

- قصدك آيه يا ليلى ؟

وجذبت ليلى الخيط بشدة فانقطع . وألقت بقطعة التريكو في ضيق على السرير الى جانبها وقالت :

- العلاقة الى بينا ، اعتبرها منتهية .

وركز عصام نظره على قطعة التريكو ، وانحنى وأمسكها بكلتا يديه ثم أرخى قبضتيه عنها وتركها تسقط من بينهما على السرير . واستدار معطيا ظهره لليلى . وسار الى مائدة تواجها في خطى بطيئة وقد تهدل كتفاه ، وارتكز بيديه على المائدة ، وقال بصوت خافت كأنه يحدث نفسه :

- أنا كنت عارف انك مش حا تغفيريلى انى ما سافرتش مع محمود .

وسحبت ليلى قطعة التريكو وأفلتتها بعصبية من الابر ، ولكى تصل الخيط المقطوع بدأت تحل جزءا من الذى نسجته ، ويدها اليمنى تتحرك من الشمال الى اليمين في حركة عنيفة متكررة ثم . . ثم اكتشفت أنها قد حلت جزءا أكبر من الجزء الذى أرادت أن تحله ، واستقرت يداها في حجرها وقد أطبقتهما على قطعة التريكو وقالت في مرارة :

- مش دا الى أنت عايزه ؟

ولم يجب عصام . استمر في وقفته وقد أولاها ظهره .

- يعنى ما بتتكلمش . .

واستدار عصام يواجها ووجهه أشد شحوبا .

- لو تتصورى ؟ لو تتصورى أنا بالحبك قد آيه . . !

وانخفض صوته حتى كاد يتلاشى في المقطع الأخير من الجملة .

ولمعت الدموع فى عينى ليلي وجمد وجهها وأشاحت بنظرها بعيدا
وقالت بصوت مخنوق :

- انت ما بتحبنيش ، لو كنت بتحبني ما كنتش عملت السلي
عملته فوق ..

وقامت ليلي واقفة وسقطت قطعة التريكو من حجرها على الأرض
وقالت فى احتداد وهى تواجه عصام :

- ليه ؟ ليه عملت كده ؟

- عشان با أحبك ..

وضحكت ليلي ضحكة أشبه بالعويل وسارت فى اتجاه النافذة
وأسندت جبينها الى الزجاج وقالت :

- عارف يا عصام أنا كنت طول الوقت حاسه بأيه ؟ كنت حاسه
اتك عايز تضربني ..

واستدارت وهى ما زالت قريبة من النافذة وواجهته :

- لاء يا عصام ، دا مش حب ، سميّه أى حاجة تانيّة . بس
مش حب ..

وجلس عصام على الكرسي الأسيوطي المواجه للسريّر وقال :

- انت صغيرة ومش فاهمه حاجة ..

واقتربت منه ليلي وقالت :

- أنا مش صغيرة ، وفاهمه كل حاجة ، وبرضه با أقول ان ده
مش حب ..

ورفع عصام رأسه اليها وهو جالس ، وقال فى مرارة :

- فاهمه ايه ؟! فاهمه ان الحب هو الى بتقرى عنه فى الروايات ؟

فاهمه انى مش قادر أنام ، مش قادر أذاكر ، مش قادر أعيش ؟ فاهمه
العذاب الى أنا عايش فيه لما تبقى جنبى ومش قادر أبص لك ، مش
قادر ألمسك ؟..

وانخفض صوت عصام تدريجيا ، وانحنى ظهره وهو يركز نظراته
على الأرض .

- ولما أبعد عنك ، أقول ليلي كانت ويايا وما شفتهاش كفاية ،
وأبقى حأجنن زى المحبوس فى زنزانه ، وأرجع تانى والى حصل الأول
يحصل تانى .

ورفع عصام الى ليلي عينين مغرورقتين بالدموع

- عارفه يا ليلي زى أية ؟ زى واحد فى الصحرا بيحفر الأرض
عشان يوصل لنقطة ميه ، ويفضل يحفر ويقول دلوقت حأوصل ، كمان
شويه حأوصل ، المرة الجاية ، وفى كل مرة بينزل لتحت ، فى كل مرة
بيتحبس أكثر فى الحفرة الى بيحفرها ، ولا بيوصلش ، والميه ما بتظهرش ،
ما بتظهرش .

وضرب عصام مسند المقعد بقبضته وهو ينطق الكلمتين الأخيرتين .
وهب واقفا وواجه ليلي وهو يقول فى غضب وسخرية :

- تقدرى تفهمى الشعور ده ؟!

وركزت ليلي عينيها على الأرض ، ولحت قطعة التريكو مرمية ،
واتجهت اليها وانحنى والتقطتها واعتدلت فى بطنها ووضعتها على السرير
وقالت فى هدوء :

- عصام ، انت بستنى مرة قبل كده - مش كده ؟ تقدر تقول لى
ليه يومها أنا ما خفتش ؟

وقال عصام

- عشان يومها كنت بتحبينى والنهاردة ما بتحبينش

وأشارت ليلي بيدها تستبعد كلامه

- كلام فارغ .. شعورى من ناحيتك ماتغيرش . تحب تعرف ليه
ماخفتش يومها يا عصام ؟

وأطبق عصام شفتيه وجلس على المقعد من جديد وقالت ليلي وهى
تذرع الحجرة :

- كان يومها فيه حاجة ، حاجة فى ايديك ، حاجة فى وشك وفى
عنيك وفى حركاتك ، حاجة تخلى أى شىء عمله معقول ، ومش معقول
بس .. معقول وجميل ..

وتوقفت ليلى أمام عصام وقالت

- كان يومها فيه حب ، أما النهارده ، النهارده كنت بتبص لى زى
ما أكون عدوتك ، زى ما تكون عايز تنتصر على . ليه ؟ ليه يا عصام ؟

وغطى عصام وجهه بيديه ولم يجب

وقالت ليلى بصوت مرتجف

- ليه تعاملنى بالشكل ده ؟

وقام عصام وسار فى اتجاه النافذة .

وأنهك الصياح ليلى ، وانهارت على طرف السرير وهى تكرر بصوت
خافت

- عشان ايه ؟ عشان ايه ؟

واستدار عصام وسار اليها وانحنى عليها ومس كتفها بيده مسة
رقيقة وقال بصوت هامس :

- أنا خايف يا ليلى خايف ، من يوم ما سافر محمود وأنا خايف ،
من ساعة ما قفلت الباب فى وشى ، وأنا خايف لتضيعى منى ، خايف
لا تفقدك والخوف ده بيعجننى وبيخلينى مش عارف أنا با أعمل ايه !

وأشاحت ليلى بوجهها بعيدا وقال عصام

- تأكدى انى لو كنت فى وعيى ما كنش ممكن أقرب منك .. أنت
ما تقدريش تتصورى أنا متألم قد أديه من اللى حصل ..

وتوقف عصام قليلا ثم أكمل كلامه

- يمكن لو عرفت ، اننا من يوم ما ابتدئنا نحب بعض ، وأنا
ضميرى بيعذبنى ، وطول الوقت شاعر انى با أعمل حاجة غلط ، انى
با أخون الثقة الللى الناس وضعوها فى ، يمكن لو عرفت كده تقدرى
تتصورى قد أيه أنا متألم النهارده .

وفجأة فهمت ليلى تصرفاته السابقة التى احتارت من قبل فى فهمها .

فهمت لماذا يحمر وجهه عندما يدخل أبوها أو محمود أو أمها ، أنه
يعتبرها ملكا لهم ، أنه يشعر بالحجل وبالعار وبالجرم لأنه يحبها .
والعاطفة التي تملؤها هي بالفخر وبالاعتداد وبالرغبة في الحياة وبالايمان
بها تملؤه هو بالشعور بالاثم .
وأظلم وجه ليلى وقالت في قسوة :

- اذا كنت حاسس انك غلطان عشان ما سافرتش القنال . ليه
ما بتسافرتش يا عصام ؟

وفوجيء عصام بسؤالها . ورفع يده عن كتفها واستقام وقد تجمع
الغضب في وجهه :

- أنا مش غلطان . وانت عارفه الظروف اللى منعتنى

وقاطعته ليلى فى برود

- محمود كمان كان عنده ظروف وسافر

- دا اللى أنت عايزه تقولىه من الصبح . مش كده ؟

وقالت ليلى :

- أنا .. ؟

وقاطعها عصام

- قولى ، اتكلمى ، قولى أنك بطلت تحبينى عشان مش بطل زى
أخوك ..

وقالت ليلى

- أنا ما قلتش كلام فارغ زى ده

ولكن عصام كان قد وصل الى حد من الغضب لم يعد يسمع معه
سوى صوته

- أنت مين أنت عشان تهينينى ؟ مين أنت عشان تحتقرينى ؟ أنا
مش عبد لك ولا لأخوك . أنا حر ، فاهمه ؟ واذا كان عشان با أحبك ..
عشان كنت با أحبك اعتبرى المسألة منتهية ، منتهيه خالص .

وتوقف عصام وهو يستجمع أنفاسه ثم قال

- أنا زهقت خلاص . أنا عايز أحب بنت طبيعيه بتفكر زى البنات
ما بيذكروا ، وبتحس زى البنات ما بيحسوا ، أنا زهقت منك ، ومن
فلسفتك ومن أطوارك ..

وانحنى ليلي وأخفت وجهها بين يديها وقالت :
- خلاص يا عصام - انتهينا - تقدر تخرج .
- طبعا حا أخرج . فاهمة ايه ؟ انى ما أقدرش أعيش من غيرك ؟
وأزاحت ليلي يديها عن وجهها وقامت واقفة وقد شحبت لونها :
- أخرج

ونظر اليها عصام وتردد لحظة ثم سار الى الباب وخرج وطرقه خلفه

★ ★ ★ ★

جمد وجه ليلي وجلست على طرف السرير وأمسكت بقطعة التريكو
وحاولت أن تدخل الأبره فى الغرز المحلولة . وكانت يدها ترتجف
بالأبره والغرز تفلت منها ولكنها تعيد المحاولة فى اصرار وفى استماتة
وكان كيائها كله قد تركز فى هذه المحاولة ..

وفتح عصام الباب ودخل الغرفة من جديد ، ووقف يحك ذقنه بيده
لحظة ثم قال فى صوت خافت :

- فيه حاجة واحدة عايز أعرفها وأظن من حقى انى أعرفها ، من
حقى أنى أعرف أنا واقف فىن بالضبط .

ولم تجب ليلي وبقي نظرها مصوبا على قطعة التريكو وهى تدخل
الغرز فى الابرة وكأنها لا تراه ، وكأنها لا تسمعه .

وتقدم عصام الى داخل الغرفة وقال

- فيه سؤال واحد عايزك تجاوبينى عليه ، وأؤكد لك ان لو كانت
الاجابة لا ، مش حتشوفى وشى بعد كده خالص .

ولم تجب ليلي واستمر عصام يتقدم حتى واجهها

- ليلي ، أنت بتحبينى ولا لا ؟

وغص حلقه بالكلمات وأشاح بوجهه بعيدا عنها

وأطبقت ليلي فمها • وغصت عيناها بالدموع ولم تعد تر شيئا
وأنزلت قطعة التريكو ووضعتها على حجرها

وانحنى عصام عليها ووضع يده على كتفها وقال

- أنا آسف يا ليلي ، آسف على كل حاجة ، وأنا فعلا ما أقدرش
استغنى عنك ، ما أقدرش أعيش من غيرك • بس أرجوك • أرجوك
تريحيني

وأغمضت ليلي عينيها وطفرت الدموع منهما

وقال عصام :

- كلمة واحدة يا ليلي ، مش عايز الا كلمة واحدة ، انت عاطفتك
اتغيرت من ناحيتي عشان ماسافرتش

وضمت ليلي شفتيها ، وهزت رأسها علامة النفي وهى ما تزال
تغمض عينيها •

وقال عصام فى توجس :

- زى زمان ، زى زمان تمام يا ليلي ؟

وهزت ليلي رأسها بالموافقة دون أن تتكلم وتهلل وجه عصام ومال
عليها حتى قارب وجهه وجهها وقال فى صوت هامس :

- قوى قد ما أنا بأحبك يا حبيبتي ؟

وابتسمت ليلي وفتحت عينيها ونظر عصام اليها لحظة والحنان
يشرق فى عينيه ثم مس شعرها بشفتيه



ولمدة خمسة عشرة يوما عاشت ليلي فى توتر عصبى شديد ، كما لو
كانت تعيش فى دوامة ، كما لو كانت تعيش فى حلم ثقيل • ولكن
انتهى كل شئ ، انتهى والحمد لله •

وطيلة هذه الأيام بعث عصام فى قلبها الخوف والبرودة ، قبل
حفلة خطوبة جميلة كانت تصرفاته تصرفات مجنون وفى ليلة الخطوبة
بلغ جنونه أقصاه ثم انقطع عنها خمسة أيام كاملة •

وفى البداية ظنت أنها تستطيع أن تفهمه . . انه يخاف أن يفقدها وسيزول خوفه اذا ما أكدت له حبها وفعلت ذلك فى كل فرصة . ولكنها أدركت بعد مدة أن الكلمات لا تجدى . كان يجلس صامتا لا يتكلم ولا يتحرك وفى عينيه هذا الاصرار والتهديد وكأنه سيضربها ، وأمها تلاحظ ، وخالتها بدأت تلاحظ ، وجميلة بدأت تلاحظ ، وهو لا يشعر بهن ، وكأنه غائب عن الوعى ، والنظرة الغريبة فى عينيه لا تبارحهما ، واذا ما انفرد بها لحظة قال فى يأس وكأنه غريق :

- ضرورى نجد حل

وبدا عصام أكثر تساسكا عندما ظن أنه وجد الحل ، اقترح أن يتزوجا فى الحال ، قال انه فكر فى الموضوع طويلا ووجد أنه ممكن ، فهو يستطيع أن يقوم بعمل اضافى الى جانب دراسته والأجر الذى يتقاضاه بالاضافة الى دخله الحالى يمكن أن يكفيهما ، ومن الناحية العملية لن يتغير شئ وكل ما سيحدث أنها ستنتقل لتعيش معهم ، والشقة تتسع لهم جميعا وخاصة وجميلة ستتزوج وتنتقل الى بيت زوجها والمسألة طبيعية وبسيطة ومفهومة .

ووافقت ليلي على أن المسألة طبيعية وبسيطة ومفهومة ، ولكنها تساءلت هل هى كذلك بالنسبة لأُمها وأمه . ان أمها تريد لها أن تتزوج بأسرع ما يمكن ، ولكن بمهر مثل مهر جميلة ، ومن رجل لا يقل غنى عن زوج جميلة . وأمه ؟ أمه لا تريد له أن يتزوج الآن ، أمه تريد له أن يتخرج وأن يفتح عياده وأن يفتنى وأن يتزوج بابنة باشا أو بيه على الأقل . ان مستقبله مرسوم بمنتهى الوضوح والدقة وكذلك مستقبلها . لا ، ان أمها لن توافق وكذلك أمه ، وستعملان على تفريقهما بكل السبل المعقولة وغير المعقولة . فلماذا يواجهان هذا الاحتمال دون ضرورة ؟ لماذا يعرضان نفسيهما لهذه الخطورة ؟ نعم هى تعرف أن أمه تحبها ، وتحبها جدا ولكن على شرط ، على شرط ألا تفسد لها خططها وألا تتعلق بعصام وهو يطلع السلم ، وتقف به عند شقة محمد أفندى سليمان قبل أن يصل الى بيت الباشا أو البيه .

لا ، لم يكن من السهل اقناع عصام . لم يستطع أن يفهم أن كل عائلة تضع لابنها أو لابنتها خطة مرسومة من يوم أن يولد أو تولد . وعلى الانسان أن ينفذ هذه الخطة . فاذا فعل فاز بحب عائلته وبرضاها

عنه وان لم يفعل - ان خرج على الحطة المرسومة وعلى الاصول - ضربه
كما ضربها أبوها حين خرجت في المظاهرة ، وحرموه من حبهم كما حرم
أبوها محمود من حبه حين سافر الى جبهة القتال أو حتى قتلوه كما
قتلوا صفاء .

واحتج عصام واتهمها أنها تردد كلام محمود وقال أنه سيثبت لها
أن هذا الكلام كلام فارغ . فهو متأكد من حب أمه له ومتأكد من أنها
لا تريد له سوى ما يريد له لنفسه .

وهل أمه تحب جميلة أيضا أم أن هذا الحب مقصور عليه ؟ طبعاً
تحبها . فلماذا إذن أرادت لجميلة غير ما أرادت لجميلة لنفسها ؟ لقد أرادت
جميلة أن تتزوج شخصاً معيناً وزوجتها أمها بشخص آخر . . . وصعق
عصام . . . ومن هو هذا الشخص المعين ؟ جارهم ممدوح ، وكان يحب
جميلة ، وجميلة تميل اليه وطلب يدها من أمها . . . لا لم يكن يعرف ، لم
تكن لديه أدنى فكرة . ولماذا رفضت أمه ؟ ان ممدوح شاب ممتاز ،
ومحاسب في شركة محترمة ، والمستقبل أمامه مفتوح ؟

نعم ممدوح شاب ممتاز ، والمستقبل أمامه مفتوح ، ولكنه لن يمتلك
أبداً فيلا في الهرم ، ولا سيارة فورد ، ولن يستطيع أبداً أن يشتري
لزوجته خاتم سوليتير ، ولا أن يدفع مهراً مثل الذي دفعه عريس
جميلة الذي لا يستطيع فك الخط !

ولكن كيف ؟ كيف لم يعرف ؟ ولم أخفت أمه هذه الحقائق ؟ كان
من الطبيعي ألا يعرف ، ومن الطبيعي أن تخفى عنه أمه كل شيء فربما
تدخل وأفسد الحطة المرسومة لجميلة .

لا . لم يكن من السهل اقناع عصام بضرورة الانتظار حتى يتخرج
حتى يستطيع أن يستقل عن أمه لو اقتضى الأمر هذا الاستقلال . لم يكن
يرغب في الاقتناع . كان الاقتناع يتضمن استبعاد الحل الوحيد الذي
وجده للخروج من الأزمة التي كان يجتازها .

ولكن الدلائل التي تشير الى استحالة هذا الحل كانت كثيرة
وواضحة ، وكان لا بد له من أن يقتنع واقتنع .

وعادت نظرة التهديد والاصرار تطل من عينيه ، وفي عينيه رأيتها
ليلي ، وفي نظرات أمها المرتبكة الحجول ، وفي المرأة . . . في المرأة في حجرتها

وهي تجرب ثوبها الأبيض وخالتها تجرى فيه التعديلات الأخيرة ، وفي المرأة عند الحلاق وهي تصفف شعرها انعكست نظرة الاصرار والتهديد .
وفي المرأة في حجرة أم عصام رأت ليلي النظرة من جديد ، رأتها تلك الليلة ، ليلة خطوبة جميلة .

تلك الليلة كانت سعيدة في ثوبها الأبيض بياض القمر الذي يطل من جوانب السرادق الذي أقيم فوق السطح بمناسبة اعلان الخطوبة ، كانت تعبث في طيات ثوبها الرقيقة المترأكمة والخم يرفعون الطعام عن الموائد ، وفرقة موسيقية تجلس على منصة عالية تعزف الموسيقى حين قالت سناء :

- فستانك جميل يا ليلي ، عارفه عامله فيه زى ايه ؟ زى الملاك .
ومسحت عذيلة قمها بالفوطة وقالت وهي ترسم بيدها أنصاف دوائر في الهواء ، تشير الى البروز في جسم ليلي :
- كل ده ملاك ! دا ملاك مبطرخ قوى .

وضحكت ليلي واحتجت سناء :

- لكن وشها ، بشرفك ، وشها مش زى وش اليبى ؟
ولحت ليلي أباهما وهو يغادر المكان بعد أن انتهى العشاء .

لقد قال لحالتها انه سيحضر اكراما لحاظرها . ولكنه لا يستطيع بأى حال أن ينتظر الى نهاية الحفلة ، لا يستطيع أن يرى المنكر الذي حرمه الله .

وتنقلت جميلة بين الموائد تحيي الضيوف ، وخلفها خطيبها في بذلة سوداء ، وساعته الذهبية الكبيرة معلقة على كرشه بسلسلة ذهبية ضخمة كالسلاسل التي تقيد المساجين . ولكن جميلة كانت رائعة بثوبها الدانتل الكثيف من وحدات من ورق الشجر ، وقد شغلت أطرافها بلؤلؤ أبيض رفيع يلتصع تحت الأنوار التي تتألق في السرادق ، وبعنقها الأبيض الطويل وشعرها الأسود السخى الذي يستدير حول ضدغيها ثم يرتفع ليبرز أذنيها الصغيرتين ، وبعينيها الرائقتين كنبع صاف ، كعيني عصام ..

- الجدع ده ضرورى بيحبك يا ليلي

قالت عديلة وهي تميل بنصفها الاعلى على المائدة •
واستدارت اليها ليلي ، كانت تتأمل أمها وقد جلست منكشمة الى
جانب دولت هانم ، نصف ميتة كما هو شأنها منذ أن سافر محمود •
- مين ؟

- عصام أخو جميله ، ما بيرخيش عينه عنك خالص
وقالت ليلي وهي تكتم ابتسامتها :
- انت مصيبة

ومالت عليها عديلة برقبتها الطويلة وبعينيها السوداوين الكبيرتين
- أمال فكرك أيه ! أنا أفهمها وهي طايره
وقالت سناء وهي تتصيد كعادتها قصة حب
- والنبي صحيح بيحبك ياليلي ؟

ولم ترد ليلي ، رفعت يدها تحيي صدقي ابن سامية هانم
وقالت عديلة :

- حاتعملي حدقة علينا يا بت انتى ، دا مش بيحبك بس ، دا حياكلك
أكل !

وقامت ليلي واقفة وهي تضحك
- دقيقة بس ، حا أكلم ماما أحسن بتشاور من الصبح •

وسارت فى الممر بين الموائد متجهة الى مائدة أمها • وابتسم لها
بعض المدعوين وابتسمت لهم ، ورأت نظرات الاعجاب تطوقها ، وجذبتها
سيدة لا تعرفها من يدها واحتضنتها وقالت لها « يا روى عليك يا ختى
بنت مين أنت يا حبيبتى ؟ »

واستأنفت سيرها فى خطى خفيفة وكأنها تطير ، وطيات الفستان
الأبيض الشفاف كجناحى طائر أبيض كبير ، تنفرج ثم تنطبق ، لتعود
فتنفرج من جديد •

وقالت دولت هانم :

- تعالى يا حبوبة ، تعالى ورينى ، الى لابس فستان جميل كده
مش يوريه للناس !؟

وضحكت ليلى ضحكات متتابة متلاحقة • كانت تريد أن تضحك
بلا انقطاع • • بلا سبب بلا سبب • •

وقالت أمها :

— حا تقعدى لازقه مطرحك طول الليل ، اتحركى ، سلمى على
الناس أهم كلهم قرايبك •

وأدركت ليلى على الفور أن دولت هانم وأمها تريدان عرضها على
الناس فربما كان بينهم عريس لائق • ولكنها لم تغضب ، ضحكت من
جديد ضحكاتها القصيرة الفوارة المتتابة • وابتدأت بمائدة سامية
هانم وانتوت أن تتبعها ببقية الموائد • ولكنها شعرت فجأة برغبة شبيهة
برغبة القطعة الصغيرة التى تبحث عن الدفء • أرادت أن يدللها أحد ،
وأن يربت على كتفها ، وأن يمسح شعرها ، وأن يقول لها من جديد انها
جميلة • وانحرفت الى حيث يقف عصام •

كان يقف على باب السرادق المؤدى الى سلم السطح يكلم أحد
الخدم • ومدت ليلى يدها ووضعتها على كتفه واستدار يواجهها • • كانت
عينها تلمعان فى خفة وفى رعونة ، وشفتاها منفرجتين فى ابتسامة
مكتومة ، وبريق يشع منهما • • من أين ؟ من وجهها ومن جسمها ،
بريق يلف وجهها ويلف جسمها • وسرى البريق الى عصام ، سرى فى
نظرات بينهما لم تكتمل ، وفى بسمات لا تكتمل • • وفى كلمات لا
تكتمل • ولف البريق ليلى وعصام وضمهما فى وحدة منفصلة عن بقية
الموجودين •

وتمتم عصام بصوت ثقيل :

— تعالى نخرج بره شويه

واستدار الى الخارج ، وهمت أن تتبعه وانكسرت الوحدة •
اصطدم عصام بأمه وهى تدخل السرادق بعد أن فرغت من غرف
الطعام للخدم وسائقى العربات •

— عصام — البنت الرقاصة مصممة على ستاشر جنيه ، مع ان على
بك متفق معاها على عشرة • انزل شوف ايه حكايتها •

وقال عصام فى غيظ مكتوم :

— ما ينزل هو يا ستى •

- معلش يا حبيبى عشان خاطرى ، قول لها على اتناشر • احسن
أنا قلت ولا ملیم زیاده ، وما أحبش أرجع فى كلمتى •
وسارت أم عصام الى داخل السرادق بعد أن ربتت على كتف ليلي •
وتطلع عصام الى وجه ليلي وقال :
- تعالى ويایا

ولكنه كان يعرف أنها لن تفعل هذه المرة ، كان البريق قد اختفى
من وجهها ومن جسمها • وهزت ليلي كتفها فى دلال دون أن تتكلم وبقيّة
من رعونة فى عينيها • ووقف عصام وكتفه الى جانب كتفها وقال فى
صوت هامس دون أن ينظر اليها

- عارفة ان ما جتیش حا أعمل ايه ؟

وقالت وهى تنظر بعيدا :

- ايه ؟

- حا أبوسك قدام كل الناس دول •

ونظرت اليه من طرف عينيها

- اذا كنت شاطر

واستدار عصام يواجهها وقد تركزت نظراته على الخط العميق الذى
يفصل بين نهديها ، والذى تكشف عنه فتحة ثوبها

وقالت ليلي وقد احمر وجهها :

- لا يا عصام ما تبصش كده ، كل الناس شايفانا

وهز عصام رأسه وقال بصوت ثقيل خافت متقطع :

- أنتى حلوة النهارده ، حلوه قوى يا حبيبتى

واستدار خارجا من السرادق وهو يكاد يهرول •

★ ★ ★ ★

وسارت ليلي فى اتجاه عديلة وسناء ، واستوقفها صدقى فى الطريق

- ايه ما فيش بونسوار ولا حاجة ؟ خلاص ما نعرفش بعض ولا ايه؟
وصافحته ليلى وهى تبتسم فى خجل ، ولمعت فى عينى صدقى نظرة
اعجاب عابثة وقال :

- تسمحيلى أقول لك حاجة ؟

- اتفضل

- انت النهارده ساحقه

وضحكت ليلى وتورد وجهها ، وقالت وهى تميل برأسها جانبا :

- ساحقه ! يعنى ايه ساحقه ؟

- يعنى قاتله ، ودا حرام كمان .

ونظسرت اليه ليلى من طرف عينها ، وهى تكتم ابتسامتها ،
واستأنفت سيرها .
وقالت عديلة :

- ودا يطلع مين كمان ؟

- دا صدقى ، صدقى المغربى ابن سامية هانم .

وقالت سناء :

- أما جذاب بشكل ، دا شبه « جريجورى بك » تمام ، ما تتجوزيه

يا ليلى

وقالت عديلة فى لهجة حاسمة

- ما يجوزهاش .

واحتجت ليلى

- يعنى أنا الى عايزه أتجوزه ؟

وقالت سناء :

- وهى ليلى وحشه ، دا حتى باين عليه واقع فيها

وضحكت ليلى وقالت :

- أهو أنت كده يا سناء ، تحبلى البغله .

وقالت عديلة :

- حتى لو كان واقع فيها ، يمشى معها معلش ، لكن يجوزها لا .
فيه نظام طبقات يا حضرة
ونظرت اليها ليلي في اعجاب
- كلك حكم يا عديله .. دا مره بيقول
- وقالت سناء
- هس

وشعرت ليلي بيدى رجل تستقران على كتفيها العارين ، وتوقفت
عن الكلام وقد تصلب جسمها . وأدارت رأسها الى الخلف ورأت صدقى
وعيناه تطلان فى عينيها فى جرأة وفى ثقة

- مش تعرفينى بزميلاتك ، ولا الطرايبزه دى عايزه تحتكر الحلاوة
الى فى الحفلة كلها ؟

وقدمته ليلي الى سناء وعديلة ، ومدت سناء يدها بحركة آلية تصلح
من شعرها ، وتصلبت يد عديلة على المائدة وهى تحنى رأسها .
وشعرت ليلي بالحرج ويذا صدقى ما زالتا مستقرتين على كتفيها ،
وأحست أن كل العيون مركزة عليها ، ورأت عصام يقف عند مدخل
السرادق وفى عينيه نظرة خطيرة ، نظرة قاتلة .

وقالت فى اضطراب :

- ما تقعد يا صدقى بك

وكان صدقى يسحب مقعدا خاليا عندما وقف عصام تجاه ليلي وقال
فى صوت غاضب دون أن ينظر الى صديقاتها :

- خالتى عايزاك

وغمزت عديلة سناء ، وتقدمت ليلي عصام ، وقال صدقى شيئا
وضحكت عديلة وسناء ..

وسارت ليلي فى اتجاه مائدة أمها وارتفعت أنغام الموسيقى مزغردة
صاخبة ، واندفعت الراقصة من باب السرادق تجرى وغطاء من الشيفون
الأحمر يهفهف على جسدها .

ووقف الجالسون حول الموائد عند دخول الراقصة ، وانتهر عصام
الفرصة وسحب ليلي من يدها سحباً الى خارج السرادق

وقالت ليلى وهى تستند على سور السطح وقد تقطعت أنفاسها :

- جرى ايه يا عصام ؟

- فيه ايه بينك وبين الولد ده ؟

- ولد مين ؟

وهز عصام رأسه فى قسوة

- الولد اللي بيقصر فى كتافك ! أنا ما كنتش افكر أنك رخيصه

بالشكل ده ؟

وأقفلت ليلى عينيها ، وتقلص وجهها ، وكأنها قد تلقت صفة •

وقال عصام فى وحشية :

- ما تتكلمى ، ما تنطقى ، ساكته ليه ؟

وفتحت ليلى عينيها وقالت :

- انت وقح وقليل الأدب كمان

واستدارت متجهة الى مدخل السرادق ، وجذبها عصام من يدها

- أنا اللي قليل الأدب ولا أنت ؟ ضرورى شجعته ، لابد ، لابد

انك شجعته •

واستدارت ليلى اليه ويدها ما زالت فى قبضته وقالت فى هدوء

- أيوه شجعته ، وبأ أحبه كمان عاير ايه ؟

ووجهم عصام وارتخت قبضة يده على يدها • وانتهزت هى الفرصة

وانتزعت يدها فى عنف وجرت الى داخل السرادق •

كانت الراقصة ترقص أمام على بك خطيب جميلة وقد ألفت بنصفها

الأسفل على حجره وهو يحاول عبثا أن يبتعد بجسمه الى الخلف حتى

لا يلمس جسدها جسده ، وجميلة تبتسم وتشد على يد أمها التى تقف

الى جانبها ، والضحكات تعلو من جوانب السرادق •

وأشارت عذيلة ولكن ليلى تجاهلت اشارتها ، وسارت الى حيث

تجلس أمها منكشمة وحيدة ، وجلست تجاهها تدق المائدة بيدها فى

حركة متكررة ميكانيكية •

وقالت الامم :

- مالك ؟

- ما فيش .

- مافيش آزاي ؟ ذا أنت لونك مخطوف خالص .

واستمرت ليلى تقرع المائدة دون أن تشعر بحركة يدها وقالت :

- دماغى بتوجعنى

ودخل عصام السرادق وسحبت ليلى يدها الى جانبها وقامت واقفة وسارت فى طريق أفقى الى حيث يجلس صدقى وعديلة وسناء . وأسرع عصام فى خطاه حتى التقى بها فى منتصف الطريق وهمس فى أذنها بصوت خافت

- ارجعى أحسن لك

واظلم وجه ليلى وألقت برأسها الى الخلف وتابعت سيرها وقالت عديلة :

- جرى ايه يا ست ليلى ؟ عمالين نشاورلك من الصبح . عايزين نروح

وقال صدقى فى خبث :

- سيبوا ليلى فى حالها ، ليلى يظهر مشغوله خالص .

وودت ليلى لو استطاعت أن تصفعه على وجهه . وجلست بين عديلة وسناء وهى تقول :

- ما بدرى

وقالت عديلة :

- لاء يا ستى مش بدرى ، يا دوب كده ، بس نسلم على طنط سميره وجميله ونروح على طول .

وقالت سناء :

- فعلا احنا اتأخرنا خالص .

وقال صدقى :

- تسمعوا أوصلكم ، وآله دا يبقى شرف كبير خالص .

وابتسمت سناء وقالت عديلة :

- كتر خيرك يا صدقى بيه ، مافيش لزوم ، احنا ساكنين قريب خالص .

وقامت واقفة وتبعته سناء وصافحتا صدقى وسبقتهما ليلي الى حيث تقف خالتها بجانب جميلة .

وقبلت كل من سناء وعديلة جميلة ثم صافحتا خطيبها .
وقالت سميرة هانم :

- ايه رأيكم بقى فى العروسة ؟
وقالت سناء :

- جنان يا طنط جنان ! الفستان ..

وأكملت عديلة :

- والى جوا الفستان ، والحفلة كلها حاجه حلوه خالص ، عقبال الفرح ان شاء الله .

- عقبال عندكم يا حبيبتي .

وتطلعت سناء الى خطيب جميلة لحظة ، وقد ارتفع أنفها الصغير ،
الارستقراطى الى أعلى ، ثم قالت له فى جفاف ، وكأنها تلومه على شيء :

- جميله عروسه تستاهل ان الواحد يحطها فى عنيه .

وضحكت جميلة ضحكة عالية . واحتضنت سميرة هانم سناء
وقال على بك :

- يا ست هانم احنا قلنا حاجة ، على العين والراس ياست هانم
على العين والراس .

وقالت عديلة ليلي فى همس :

- البلاطى ..

وقالت سميره هانم وهى تعطى ليلي سلسلة مفاتيح الشقة :

- وبالمره يا حبيبتي هاتى لخالتك الجاكيث الفورير من الدولا ب
أحسن بردت خالص • يظهر خالتك عجزت • ما عدتش بتستحمل البرد
وبرم على بك شاربه وقال وهو يبتسم ابتسامة واسعة :
- العفو يا ست هانم • يا ست هانم العفو •

* * * *

وقالت عديلة وهى تلبس معطفها :

- أما حته نطع

وقالت سناء :

- نطع ميرى صحيح

وقالت ليلي وهى تبرم شاربا وهميا وتترقص :

- عقبال عندكم يا ست هانم يا ست هانم عقبال عندكم

ولوحت لسناء وعديلة وضحكاتهما ترتفع من المصعد وعادت الى
الشقة لتأتى بجاكتة خالتها •

وخلعت ليلي الجاكت من على الشماعة ووضعتة على كتفيها وأقفلت
باب الدولا ب • ووقفت تتطلع الى نفسها فى المرآة وتراجعت الى الخلف
وهى تضم الفورير الى صدرها بيديها ، وجمدت يداها على صدرها • •
فى المرآة رأت عصام يقف على الباب وفى عينيه نظرة سوداء قاتلة ،
وأدرك عصام أن ليلي قد رآته ودخل الغرفة وأقفل الباب خلفه ، وربع
يديه على صدره •

واستدارت ليلي له ببطء وقالت وهى تصطنع الهدوء :

- خالتي بردانه وعايظه الجاكتة •

ولم يجب عصام ، لم يتحرك من مكانه ، وفى وجهه هدوء مريب
هدوء قاتل •

وتسلل الخوف الى صوت ليلي

- عايز ايه يا عصام ؟

- حا أقتلك

- أنت مجنون !

وقال عصام دون أن يفقد صوته الهدوء :

- أنا عارف انى مجنون • لكن قلت لك - ما تروحيش عنده •

وتقدم منها ببطء ورأسه ممدودة الى الأمام ، كالقط حين يتربص بفريسته خطوة فخطوة •

وتراجعت هى حتى التصقت بالسريير وهى تقول فى صوت باك
- كنت با أغيظك ، كنت بأغيظك يا عصام

واقترب منها حتى كاد يلمسها وفلتت من بين يديه ووقفت
تواجهه والسريير يفصل بينهما

وقال عصام بنفس الهدوء المخيف :

- ما تتعبيش نفسك يا ليلي - مش حاتفلتى منى

- أرجوك يا عصام • أرجوك تسببىنى

ومسح عصام وجهه بيده فى عنف وقال فى حدة

- وانت ما سبتنيش فى حالى ليه مادام بتحبى واحد تانى ؟

- كنت بأضحك عليك يا عصام • كنت بأضحك عليك

وحاولت أن تشق لنفسها طريقا الى الباب ولكنه لحق بها وأمسك
بكتفها وأدارها اليه بعنف وأسندها الى الباب •

- أنا عارف انك كنت بتضحكى على ولكن مش حتضحكى على تانى

ومسحت يدها على كتفها العاريين واستقرتا مفرودتين على كتفها
بالقرب من عظمتى رقبتها •

- أبدا

وألقت ليلي برأسها الى الخلف وأغمضت عينيها وقال عصام فى
وحشية :

- ومن امتى وانت بتضحكى على ؟ من امتى وانتى ماشية مع

الجحش ده ؟

واستقامت رأس ليلى وقالت فى صوت هادىء :

- اقتل يا عصام • أقتل وريحنى

وتحرك اصبع يده اليمنى الكبير يمسح على صدرها ويداه ما زالتا
مستقرتين فى مكانهما وقالت ليلى :

- ما دام انت بتعتقد فى كده ، يبقى أحسن تموتنى

- ليه ؟ أنا غلطان ؟

ولم تجب ليلى • سالت الدموع من عينيها المغمضتين

وتحرك اصبع يده اليمنى الكبير على عنقها من جديد ومال وجهه
عليها وهو يكرر :

- أنا غلطان ؟

وقالت دون أن تفتح عينيها

- انت عارف ، عارف انك غلطان ؟

وسقطت شفتاه على شفتيها واستقرتا عليهما منهكتين تعبتي •

ثم جمدت شفتاه على شفتيها ، وتقلصت يداها على رقبتها وابتعد
بوجهه عن وجهها وقال بصوت مختنق :

- أنا قلت لك ما ترجعيش ورجعت •• رجعت ••

وارتجف جسم عصام وارتجف صوته وزاغت عيناه وهو يصرخ
كالمجنون ويقول :

- انت بتاعتنى •• بتاعتنى أنا •• ملكى أنا •• فاهمه ؟

وضاقت قبضتها على عنقها وصرخت ليلى بصوت متحشرج :

- سيبنى ••

ومدت يديها وبقوة لا عهد لها بها ، انتزعت يدي عصام عن رقبتها
وجرت فى اتجاه الارىكة ووقفت تواجهه كالقطة المتنمرة •

- أحسن لك تبعد عنى - خالص •• فاهم ؟

وأطرق عصام برأسه وازدادت ليلى عنفا :

- أنا مش ملكك ولا ملك أى انسان ، أنا حره ، فاهم ؟

وانقض عليها عصام وقد اربد وجهه . وبدأت بينهما معركة عنيفة صامتة ثم تمكن عصام منها وألقاها ممددة فوق الاركة . . . وجسم عصام كالصخرة فوق جسمها ويدها تطوقان ذراعيها كطوقين من الحديد وفيه المزج فوق عينيها فوق فمها فوق رقبته فوق صدرها . . . ودقات أقدام تدب فى السطح وزغاريد وموسيقى وحرارة تلهب وجهها وجسمها وأنفاس عصام المتقطعة وقدماء . . . قدماء يسحقان قدميها والزغاريد تعنو والموسيقى . . . ووقع أقدام فى الممر وطرقه على الباب وصوت ممطوط ينادى :

- سى عصام . . . سى عصام .

والقرع يشتد والنداء يتكرر وعصام لا يسمع : . . . وصرير أسنانها فى خد عصام وصرخته ، وعصام يصحو على القرع والنداء وقبضته تترخيان على ذراعيها وتنهالان على كتفيها ضربة بعد ضربة وعويله المكتوم وخطواته وهو يبتعد ، وصرير الباب وهو يفتح ويقفل ، وصياحه المجنون فى الممر :

- خلاص ، غورى من وشى ، غورى ، أحسن اقتلك .

وصوت الخادمة الممطوط وهى تقول : يوه يا سيدى ، وخطوات الخادمة تبتعد وخطوات عصام تتردد فى الممر تروح وتجىء ثم تبتعد فى بطاء . وطرقه الباب الخارجى تهز البيت وصوت تنفسها العريض وهى تدرك أنها نجت بالكاد من خطر محقق ، وبرودة الظلام تلسع قدميها وهى تتسلل من الشقة وتنزل السلم فى الظلام عارية القدمين كما لو كانت تحلم

نعم كان حلما ثقيلا وانتهى والحمد لله ، لم ينته تلك الليلة ولكنه انتهى بعدها بخمسة أيام ، خمسة أيام جاء بعدها عصام ، عصام الذى تعرفه وتحبه ، لاذلك الغريب الذى بعث الخوف والبرودة الى قلبها وجسمها . . . جاءها مشرقا هادئا متماسكا عطوفا حانيا وكأنه قد بعث من جديد :

- خلاص ياليلي خلاص .

قال عصام :

- خلاص ياليلي لقيت حل .. مش حالمسك ابدا ، ولا اضايقك
أبدا ، حا ابص لوشك الحلو بس واسمعك تتكلمى ، وأحبك وبس
وأنظر لغاية ما نتجوز .

ولانت ملامح عصام ولانت عيناه وأشرق فيهما نور ثاقب اخترق
جسد ليلي واستقر فى حناياها ..

ولم يخطر لليلي فى غمرة سعادتها أن تسأل عصام عن الحل الذى
وجده للخروج من الأزمة التى كان يعانيها .

« الحل ؟ » ..

كتب محمود لليلي : « ليس هناك سوى حل واحد ، أن يحدث
شئ هائل ، شئ يهز هؤلاء الناس المحترمين المستقرين المطمئنين ،
معجزة تجبرهم على تمزيق أكفانهم ، والا فلن يتغير الأمر .. لن
تتمزق الاكفان ، لأنهم يتمسكون بها ويستترون خلفها .. يحسبون
أنها تحميهم وتقويهم بينما هى فى الواقع تشل خيالههم وعقولهم
وقدراتهم . وخلف هذه الاكفان يعيشون . كل واحد منهم يقول : لا
لن أغامر ، لن أخاطر ، لن أخرج على الدائرة المرسومة لى . قد أضر
نفسى ، قد أضر مصالحي ، قد أضر مستقبلى ، قد أضر أولادى . لا لن
أفكر الا فى الافكار التى يتقبلها مجتمعى ، ولن أرغب الا فى الاشياء
التي يرغب فيها من حولى ولن أفعل الا الاشياء التى يفعلونها ولن أشعر
الا بالمشاعر التى يستشعرونها . ولن انفعل ، ان الانفعال قرين الألم
وسأجنب نفسى الألم ولن أفعل سوى ما فيه صالحى أنا . وتحت
أكفانهم يعيشون ، لا يحبون حبا كبيرا ، ولا يضحون تضحية كبيرة ، ولا
يخلقون فى عالم الفكر والخيال والحس . ويتزوجون ويلدون قوالب
قوالب متشابهة ، تفكر بنفس الطريقة وتتأثر وتتوثر بنفس الطريقة ،
قوالب متكررة ، أوساط من الناس بلا عبقرية ، بلا نبوغ ، بلا تفنن ،
بلا ابتكار ، بلا قدرة على الحب الحقيقى »

وفى مدة الثلاث شهور التى قضاهما محمود فى القناة لم ينقطع عن
الكتابة . ولكن خطاباتة التى كانت فى بادىء الامر طويلة ومليئة
- باحساساته وبانفعالاته ، أصبحت أقصر وأكثر رسمية أسبوعا بعد
أسبوع حتى اقتصرت على سطور يسأل فيها عن صحة العائلة .

وأدركت ليلي أنه يخفى عنها شيئا وأرسلت تسأله عن السبب أكثر من مرة . وفى كل مرة كان يتحاشى الرد على سؤالها . وعندما ألحت بعث يقول انه مشغول وان قلة عدد الفدائيين تعنى مزيدا من العمل ، تعنى أن يركز الانسان تفكيره وكيانه كله فى هذا العمل وأنه يكتب لمجرد أن تطمئن عليه العائلة .

وأدركت ليلي من هذه الإشارة أنه وزملاءه يشعرون بالوحدة وبالانعزال . وأرسلت اليه تسأله هل هذه هى الحقيقة التى يخفيها عنها . وفى آخر خطاب أرسله لها قبل أن يعود من القناة كتب يقول :

« نعم ، نحن معزولون وليس هذا شعورى أنا فقط بل شعور جميع زملائى هنا ، وان كان هذا لا يؤثر فىنا ولن يمنعنا من تأدية المهمة التى جئنا من أجلها . لا ، ان الخيانة لاتهم والجاسوسية لاتهم ، ان الخونة والجواسيس قلائل شواذ يمكن استئصالهم . ان الذين عزلونا ليسوا الخونة ولا الجواسيس ، انهم الملايين من الناس الطيبين الذين يحبون مصر ، يحبونها طالما لم يتعارض هذا الحب مع مصالحهم النفعية . ان الخيانة الحقيقية هى خيانة هؤلاء الناس الذين يحبون مصر بقلوبهم وأفواههم ، لا بسواعدهم ودمائهم . »

كان الخطاب يحوى أخبارا مؤلمة عن الحالة فى القناة ، فالى جانب الشعور بالعزلة ، كان هناك نقص فى الاسلحة وفى التنظيم وفى الملابس وفى الغذاء . والجانب الاكبر من الفدائيين من العمال والكادحين الذين تركوا خلفهم أعمالهم وأطفالا وأسرا بأكملها كانوا يعولونها . والحكومة تماطل فى مد الفدائيين بالاسلحة وبالنفقات الضرورية .

وفى ذلك الخطاب أخبر محمود ليلي أنه قادم الى القاهرة مع زميله حسين فى مهمة رسمية وان اقامتهما فى القاهرة لن تتجاوز ٢٤ ساعة يعودان بعدها الى منطقة القنال .

وكانت لهجة الخطاب غاضبة وكأنه . . . وكأنه يشركها فى اللوم على هذا الوضع ! وما ذنبها هى ؟ ولكن أليست هذه هى الحقيقة ؟ أليست هى واحدة من الناس الطيبين الذين يحبون مصر ولكن لا يحبونها بما فيه الكفاية ليمزقوا أكفانهم ويهبوا لنجدتها ؟

وشعرت ليلي بالحرج وكأنها ارتكبت ذنبا ولم يفارقها هذا الحرج وهى تمد يدها لتصافح محمود .

وكان محمود متغيرا للغاية . ولحظ أبوه هذا التغير وهم جلوس على مائدة الغذاء ونظر إليه في رهبة لحظة ولم يقل شيئا ، واستمرت أمه تملأ طبقه بالطعام رغم احتجاجه وكأنه كان صائما طيلة الفترة التي قضاها في القناة .

وحاول هو أن يتكلم وسأل الأسئلة المعتادة عن الصحة وعن خالته وعصام وجميله وموعد زواجها وعرف أن جميله ستتزوج في خلال أسبوع . ولكن فترات الصمت كانت تطول بين الجميلة والآخرى صمت وخرج وكأنه غريب . . ولم يحاول أحد أن يفتح موضوعا للحديث أرادت أمه أن تسأله هل يأكل هناك جيدا وهل الغطاء كاف وهل يتعرض للخطر ولكنها كانت تعرف أن زوجها لا يريد أن يسمع كلمة واحدة عن هذا الموضوع ، واكتفت بأن تطيل النظر إلى ابنها وعينهاها تدمعان بين الحين والحين .

وأراد أبوه أن يقول شيئا واحدا ، شيئا معينا يلح عليه ولا يحس بسواه ولا يرغب في أن يقول سواه وكلما هم بالكلام نظر إلى ملامح محمود التي اكتسبت صرامة وقوة وإلى الخطوط الخفيفة التي انتشرت في جبهته وإلى عينيه اللتين فقدتا لمعانهما وكأن شيئا قد مات فيهما وسكت ، لافائدة ، لن ينصت له هذا الشخص ، لن يسمع كلامه ، لن يرجع أبدا عما بدأ ، لقد تغير ، خرج عن طاعته نهائيا ، ويشيح الأب بعينه بعيدا قبل أن تلتقيا بعيني ابنه .

وسارقت ليلي محمود النظر وارتجف في أعماقها خوف مبهم ، كان يجلس وقد انتصب جسمه ، وانقبضت يده اليسرى على طرف المائدة وجمد وجهه ، وكيانه كله مشدود ، مشدود أكثر من اللازم في نحفز وفي توتر ، وكأن من الضروري له أن يبقى هكذا مشدودا لا يرتخي أبدا .

وبدأت ليلي تأكل باحتراس ، ووقع الملاعق على الأطباق يقع على أعصابها وكأنها تخشى أن يحدث شيئا ما ، شيئا يزعج محمود ، كلمة أو ضجة تجعله يرتخي ، تجعله يضع رأسه على المائدة وينفجر باكيا .
وأزعج ذلك خاطر ليلي وحاولت جاهدة إبعاده من خيالها .

أليس خوفها هذا مضحكا ؟ ألا أنها ضعيفة تحسب الناس كلهم ضعفاء مثلها ؟ محمود لا يمكن أن يحدث له مثل هذا الشيء . محمود قوى ، محمود حارب الانجليز ثلاثة شهر ، وهو عائد فى الغد الى القناة ليحاربهم من جديد . محمود لن ينهار ، لن ينهار أبدا ، من المستحيل أن يحدث له ذلك . ومن الطبيعى أن يكون المحارب متحفزا ، انه يحارب ولا يلهو مثلها ومثل الذين بقوا بعيدا عن القناة واكتفوا بترقب نتيجة المعركة .

وانتظرت ليلي فى صبر انتهاء وجبة الغذاء ، نعم لقد تغير محمود ، ولكن كل شيء سيعود بينهما كما كان عليه حين ينتهى الغذاء ، حين تنفرد به فى حجرتها أو حجرته ، حين يحكى لها وتحكى له كما كانا يفعلان من قبل ، وانتظرت ليلي انتهاء وجبة الغذاء فى فروغ صبر . وانفردت ليلي بمحمود فى غرفته ، وحكى لها وحكت له ، ولكن شيئا ما وقف بينهما .

وحاولت ليلي جاهدة أن تصل الى محمود وأن تقتحم ذلك السد الذى أقامه بينه وبينها وفشلت فى محاولتها ، ماذا حدث ؟ هل يخفى شيئا ؟ لا ، انه لا يخفى شيئا عنها . لقد أخبرها بكل شيء ، كل شيء يمكن أن ينقله انسان الى انسان آخر فى كلمات ، ومع ذلك ما زال ذلك السد المنيع يقف بينها وبينه وكأن .. كأن أشياء قد حدثت له ، أشياء انفرد بها عنها وكبر بها عنها ، وأصبح بها انسانا غير محمود الذى عرفته انسانا لا يستطيع أن تحسه وأن تسبر أغواره .

ولكن هل يمكن أن يحدث كل ذلك فى ثلاث أشهر ، مستحيل !! لابد أن شيئا ما يؤله وهى لا تستطيع أن تسرى عنه ، ربما يستطيع عصام أن يفعل شيئا ؟ نعم عصام صديقه وحبيبه وأسراره دائما معه ، ثم انه رجل والرجال أقدر فى هذه المواقف ، نعم ، فى الحال ، استدعوه فى الحال .

* * * *

أوقفت ليلي المصعد ، وفتحت بابه واندفعت الى داخله ثم وقفت تبسم فى ارتباك ، اصطدمت بشباب أسمر طويل وهو يخرج وتراجع الشاب الى داخل المصعد وقال :

- أنا آسف .

وابتسم في وجهها ولحظت ليلي التغير الذي طرأ على وجهه أثر هذه الابتسامة • ذابت ملامحه الكبيرة القوية المحددة في ابتسامته فصار وجهه الأسمر كوجه طفل رضيع • ولم تستطع ليلي أن تقاوم ابتسامته فأبتسمت وهي تقول :

- طالع ولا نازل ؟

ومد الشاب يده يتحسس شعره الأسود الناعم وقال :

- لا طالع ولا نازل • خارج هنا في الدور ده •

وتراجعت ليلي لتفسح مكانا يمر منه ثم دخلت المصعد بعد أن مر وأقفلت بابه الحديدي •

ولم يتجه هو الى إحدى الشقتين ، وقف يتطلع اليها وفي عينيهِ نظرة أمرة آسرة • • وكأنه يأمرها أن تبقى حيث هي ، وقالت ليلي وهي توشك على أقفال باب المصعد الزجاجي •

- فيه حاجة ؟

- دقيقة واحدة من فضلك •

ولم يكن صوته يأمر كمنظرته ، كان على العكس من نظرته هادئا ، وكأن صاحبه يتحكم تحكما تاما في كل نبذة من نبراته •

- فين شقة الأستاذ محمود سليمان من فضلك ؟

- محمود • • هنا

وأشارت ليلي الى شقتها ثم أدركت أن ذلك الشاب الذي يقف أمامها هو حسين عامر ، زميل أخيها في القناة ، وملاؤها ذلك الإدراك براحة نفسية عميقة وكأن متاعبها ومتاعب أخيها قد ذابت في هذه الابتسامة الواسعة المكتملة التي تواجهها • وشعرت ليلي كأن الله قد استجاب لدعائها ، كأن الله قد أرسل حسين خصيصا في هذه اللحظة بالذات ليسرى عن محمود ، وليقف الى جانبه كما وقف الى جانبه دائما في القناة ، وتألق وجهها بفرحة غامرة وقالت :

- أهلا وسهلا •

وفتحت الباب الحديدى على مصراعيه ، وانطلقت تقود حسين الى شقتها وقبل أن تعد يدها الى الجرس قال حسين :

- ليلي ..

لم يكن يسأل ، كان يناديها واستدارت وواجهته وقالت :

- حسين ..

- عرفت ازاي ؟

- وانت عرفت ازاي ؟ ..

والتقت عيونهما وضحكا معا .

واستدارت ليلي ، وقرعت الجرس وقال حسين :

- محمود كلمنى كثير عنك ..

وقالت ليلي دون أن تستدير :

- وكتب لى كثير عنك ..

- على كده احنا نعرف بعض كويس .. يعنى أصدقاء

واستدارت ليلي وواجهته وفى عينيها نظرة جادة .

- انت صاحب محمود .. مش كده ؟

وهز حسين رأسه يؤكد هذه الحقيقة وهو يبتسم واستطردت ليلي فى كلامها :

- والصديق يساعد صديقه اذا كان محتاج لمساعدته .. مش كده؟ .

وقال حسين وهو يتأمل وجهها بعينه السوداوين الواسعتين العميقتين .

- كده ..

وأدركت ليلي أنها تستطيع أن تعتمد عليه وأن محمود يستطيع أن يعتمد عليه ، وانفرج وجهها فى ابتسامة واسعة وقالت :

- يبقى خلاص .. عن اذنك بقى .

وتركته خلفها ودخلت المصعد وتحرك بها وأشارت له بيدها ملوحة
ثم اختفت • وعندما اختفت تذكر حسين فجأة الانباء السيئة التي جاء
يحملها الى محمود ، وشعر أنه هو بدوره في حاجة الى مساعدة ، وأنهم
جميعا في حاجة الى مساعدة ، والبناء يتخلخل أمام أعينهم ، البناء الذي
بنوه طوبة فوق طوبة بعرقهم وأعصابهم ودمائهم •

* * * *

وفتحت جميلة الباب ، كان وجهها متوردا وعيناها تلتمعان ، وما
أن رأت ليلي حتى ارتمت في أحضانها ثم سحبتها من يدها وهي تقول
وأنفاسها مبهورة :

- فستان الفرخ جه •• أما فستان ياليلي ! أما فستان !

وقالت ليلي وهي تخلص يدها من يد جميلة :

- دقيقة واحده يا جميله ، أصل محمود جه وعايظه أقول لعصام
ينزل له •

وقالت جميلة وقد زايلها حماسها :

- اخص عليك ، مش حاتشوفى الفستان الاول • ؟

ثم ابتسمت وقالت :

- وازى محمود ؟

- كويس •• هو عصام فين ؟

- فى أودة المكتب •• أحسن كده برضه ، حا البس أنا الفستان
على ما تيجى عشان تشوفيه على •

وكان عصام يجلس الى المكتب وأمامه كتاب مفتوح وكانت سيدة
الخادمة ، تركع على الأرض تمسح بخرقه مبتلة آثار قهوة على السجادة
وقدح القهوة مازال مقلوبا على جانبه على طرف المكتب •

ونفض عصام واقفا وعلى فمه ابتسامة مرتبكة

- أهلا ليلي •

وقالت ليلي وهى مازالت تقف بالقرب من الباب :

- محمود جه ..

وقال عصام بلا حماس :

- صحيح ؟ ..

وتقدمت ليلي الى داخل الغرفة .

- مش حاتنزل له ياعصام ؟

- دلوقت ؟

ووقفت ليلي تجاهه ..

- أيوه دلوقت .. الا اذا كنت مشغول .

وهز عصام كتفه وهو يبتسم :

- لا .. ولا مشغول ولا حاجة .

واستدار ليأخذ الجاكتة من على مسند الفوتيل المجاور للمقعد ومر فى طريقه بسيدة ، ورفعت اليه سيدة عينيها الكبيرتين كعيون البقر وهى تضرب السجادة بطرف القطعة المبتلة .

وقالت ليلي :

- عايزة أقول لك حاجة قبل ما تنزل ياعصام .

ولبس عصام الجاكتة وهو يقول :

- فيه ايه ياليلي ؟

وأطبقت ليلي شفتيها وأشارت بوجهها فى اتجاه سيده اشارة يفهم منها أنها لاتستطيع أن تتكلم أمامها ، ووقفا ينتظران انتهاء سيدة من عملها ، وزالت آثار القهوة من السجادة تماما وسيدة مازالت تركع مكانها تضرب الأرض بطرف الخرقة المبتلة .

وقالت ليلي فى رقة :

- مش خلاص يا سيده

ورفعت سيدة وجهها المنتفخ الى ليلي وضمت شفتيها المكتزتين ولم

تقل شيئاً ، واستمرت تضرب السجاد بطرف القطعة المبتلة .

وضايقته الحركة المتكررة عصام وصاح فى حدة :

- ياللا ، خلصينا .

ورفعت اليه سيدة عينيها السوداوين الكبيرتين الجريئتين وهى
مازالت فى جلستها وقامت فى تكاسل وهى تقول :

- يوه ياسى عصام ، يعنى أسيب السجاده وسخه ولا ايه ؟

وتنفست ليلى فى ارتياح وسيده تكاد تخرج من الباب ولكنها عادت
بقامتها المديدة المليئة الى داخل الحجرة وأخذت القدح فى بطء من على
المكتب وخرجت من الحجرة تهز رديفها فى تشاقل ، وعلى قمها نصف
ابتسامة عائمة لا توجهها الى أحد وكأنها تبتسم من شىء خطر ببالها ..
شىء سرى وخاص وهام ، شىء يعطيها الشعور بالأهمية .

وقالت ليلى :

- عصام ..

واقترب منها عصام فى خطوات سريعة وأمسك بيدها وانحنى
يقبلها فى رقة متناهية قبلات قصيرة سريعة لا تكاد تمسها وكأنه يرضيها
وكانه يصالحها بعد أن أساء اليها .

وقالت ليلى :

- عصام ، عشان خاطرى خليك لطيف مع محمود ، لطيف خالص
وأشاحت بنظرها بعيدا وهى تقول :

- محمود متغير .. متغير خالص يا عصام .

وقال عصام :

- أنا عارف هو حساس ، حساس زيادة عن اللزوم

ووضعت ليلى يدها على كتفه .

- تمام يا عصام

- فاكرة قد أيه كان متألم أيام مظاهرة ٤٦ ؟ لكن انت كنت صغيره

خالص يا حبيبتي .

وقالت ليلي في صوت هامس وهي تستعيد في ذاكرتها تلك الايام
- برضه فاكرك يا عصام .. فاكرك كل حاجه زى ما تكون حصلت
النهارده .

وأمسكت بيده ومشيا معا في اتجاه الباب الخارجى وقالت :
- بلاش أنزل وياك أحسن .. حادخل أنا لجميله ، أنا مش عايزه
محمود يفهم انى أنا اللي خليتك تنزل له .
وشدت ليلي على يد عصام وهي تبتسم وانحرفت الى غرفة جميلة ،
وفتحت الباب .

* * *

كانت جميلة تولى ظهرها للباب وهي فى ثوب أبيض .
ووقفت ليلي لحظة مبهوتة ، خيل اليها أن الثوب هو ثوبها الابيض
الجميل ، نفس القماش من الشيفون الابيض ونفس الطيات المتراكمة
كجناحى طائر ابيض .. ثم استقامت جميلة واستدارت وواجهتها .
وهزت ليلي رأسها متعجبة من سخف الفكرة التى خطرت لها ..
كان ثوب جميلة يختلف تمام الاختلاف عن ثوبها ، فالشيفون
الابيض من الخلف ليس بظهر الثوب كما ظنت ، انه مجرد وشاح
فضفاض يحيط بالثوب الاصلى من الخلف والثوب الاصلى من الستان
الابيض المطرز باللؤلؤ الصناعى وبالترتر وبالخرز .
وقالت جميلة فى انتصار :

- ايه رأيك ؟

- جنان .. حاجه حلوه خالص .. ولا الاميرات .
ولكن كان فى نفسها بعض الضيق وكان جميلة قد أخذت منها
شيئا يخصها هى .. ثوبها الابيض الجميل .

وقالت جميلة وهي تتقدم نحو المرأة :

- ولسه كمان .. لسه كاسمه مش باين خالص ، السوسته
مفتوحه .

وجلست ليلي على المقعد المواجه للمرأة وقالت :

- البت سيده بتاعتك دى رزلة قوى ، أنا عايزه أكلم عصام

على محمود ، وهى واقفه ملطووعه ، نقول لها اخرجى ماتخرجش .

وقالت جميلة وهى تمد يدها تقفل السوسته :

- أصلها واخده على عصام ، صاحبتة ياسقى !

وانقفلت السوسته فى صوت عنيف قاطع .

وقالت ليلي :

- صاحبتة ؟! صاحبتة ازاي ؟!

ونظرت جميلة الى ليلي نظرة جانبية ومدت يدها تسوى فتحة الصدر
ثم شدت قامتها فى استعلاء وقالت :

- هو انت كده ياليلي ماتفهميش حاجه أبدا ؟ كل شاب فى السن

دى ، ومش متجاوز ضرورى يعمل كده ، والا مايبقاش راجل ..

ومدت جميلة يديها وجمعت شعرها من أسفل وكومتها الى أعلى ..
ومالت بوجهها الى جانب تدرس أثر ذلك فى صورتها العامة ثم استدارت
لليلى وهى تقول :

- ايه رأيك فى التسريحة دى يا ليلي ؟

وعند ما رأت وجه ليلي الذاهل وفمها المفتوح فى بلاهة انفجرت
ضاحكة ..

- عارفه ياليلي ؟ عارفه انت بتفكرينى بأيه ؟ بتفكرينى بنفس ليلة
ما شفتهم فى المطبخ .. ليلة الخطوبه قمت بالليل بمغص فظيع ، رحت
المطبخ أعمل قربه سخنه ونورت النور وطفيته على طول .. وبلمت زيك
كده . وفضلت مبله يومين ، لغاية ماما مافهمتني كل حاجه .

وجلست جميلة الى جانب ليلي وغزا عينيها تعبير حزين وهى تقول

- عارفه ياليلي ؟ عارفه انت بتفكرينى بأيه ؟ بتفكرينى بنفس ليلة

ومسحت ليلي وجهها بيدها وقامت واقفه .

وقالت جميلة :

— على فين ؟

وبلا تعبير قالت ليلى :

— نازله ..

وقامت جميلة واقفة وقالت فى استنكار :

— اخص عليك يا ليلى ! يظهر القستان مش عاجبك ! ليه يا ليلى ؟
دا جميل خالص ، دا الجونله لوحدها أخذت سبع أمتار .. شوفى ..

وسارت جميلة الى وسط الحجرة ورمت برأسها الى الخلف فى
كبرياء وثبتت كعب الحذاء فى الارض ، ودارت حول نفسها دورات
متواصلة متعددة والثوب يتطاير حولها فى دائرة تتسع أكثر وأكثر .

ودارت الحجرة أمام عيني ليلى وخيل اليها أن السقف قد حل محل
الأرض وأن الحوائط تتمايل بعضها على بعض .

وتوقفت جميلة وقالت وأنفاسها متقطعة :

— ايه رأيك ؟ بشر فك عمرك شفتى فستان زى ده ؟! ولا حتى فى
السينما ؟

وتمتت ليلى دون أن تنظر الى الثوب .

— عريان .. عريان ..

— الصدر يعنى ؟

— كله .. كله عريان .

ومدت جميلة يدها الى « بوليو » مكمل للفستان ولبسته .
واستدارت وهى تبسم ابتسامة خفيفة .

— كده يعجبك ياستى الشيخه ؟

وهزت ليلى رأسها فى يأس وقالت وهى تكاد تهمس :

— مافيش فايدة ، عريان من جوه ، عريان ياجميلة ، عريان .

ونظرت جميلة الى ليلي في دهشة لحظة ثم صرخت .. كان وجه ليلي شاحبا ، وكانت شفاتها مرتجفتين وعيناها تائهتين بعيدا وكأنها غائبة عن الوعي ، ويداهما لا تكفان عن الحركة ، تضمان دون جدوى فتحة الصدر في ثوبها ، ثم تنزلان الى طرف الثوب تشداناه ، وكأنها تريد أن تصل به الى أطراف أصابعها ، ثم ترتفع اليدان الى فتحة الصدر من جديد ..

- مالك ياليلي ؟

وهزت ليلي رأسها وكأنها تفيق من حلم ، وانهارت جالسة في المقعد المجاور .

- مالك يا ليلي ، فيه ايه ؟ طمني .

- مافيش .

- أنا حانادي ماما .

وقالت ليلي بصوت هامس :

- لا ماتناديش حد ، أصل .. أصل عندي مقص .

- أعملك شاى ؟

وهزت ليلي رأسها علامة على الموافقة .

وخرجت جميلة ، وسمعتها ليلي تأمر سيدة الخادمة بأعداد الشاى ثم تتجه الى حجرة أمها .

★ ★ ★ ★

وهبت ليلي واقفة .. وبدأت النظرة التائهة في عينيها من جديد ومشيت في احتراس شديد على أطراف أصابعها حتى باب الغرفة ، وأرهفت السمع ثم تقدمت وعبرت الصالة وفتحت الباب الخارجى ، وخرجت ووضعته يدها على سور السلم وهمت بالنزول ولكنها وقفت متسمة .. كان أزيز المصعد يطن في أذنيها وفي رأسها وكان جسمها بأكمله يردده ، ومر بها المصعد وهو ينزل من أعلى الى أسفل ، ثم رأت حباله تنجذب الى أسفل تدريجيا . ومالت برأسها على السور وتعلقت عيناها بالحبال وهي تنجذب الى أسفل ، وتدلت بنصفها الأعلى في الفراغ الذى تركه المصعد والحبال

تجذبها الى أسفل ، وركزت يديها ورفعت جزءاً آخر من جسمها فى الفراغ حتى أصبح جسمها أفقياً على السور والحبال تجذبها الى أسفل .. الى أسفل .. وارتخت قبضتها والحبال تجذبها الى أسفل .. وصرخت جميلة :

- ليلي ! ..

وامتدت يد تمسك بظهرها وتشدها الى أسفل ، والتفتت ليلي ووجدت نفسها على السلم وجها لوجه أمام جميلة .

- ليلي .. بتعملى ايه ؟ انت مجنونه ؟

ووقفت ليلي مكانها والنظرة التائهة فى عينيها ثم اجتاحت جسمها خوف بارد كالثلج وأدركت فجأة أنها نجت بالكاد من الموت وقالت فى صوت مختنق .

- جميلة .. انزلى معايا .

وبدأت ليلي تنزل السلم ولحقت بها جميلة ، واستمرت ليلي تنزل الى أسفل وتجاوزت باب شقتهم دون أن تدري ونبهتها جميلة فاستدارت وصعدت بخطوات متثاقلة .. حجرتها ؟ .. ولا حجرتها .. انها تريد أن تنزل الى أسفل .. الى أسفل حيث لا تشعر ولا تفكر .

* * * *

ودخلت ليلي البيت .. ولمحت حجرة الجلوس مفتوحة وسرت رجفة الى جسمها .. عصام .. عصام مع محمود ، وجرت الى غرفتها وكأن انسانا يطاردها ، وعند باب الحجرة وقفت مسمرة ، كان محمود يناديها بالحاح وجميلة تشدها .. وسحبته جميلة الى حجرة الاستقبال وكأنها مسلووبة الارادة ..

كان محمود يجلس فى أول مقعد على اليمين بالقرب من الباب . وتوقفت ليلي تجاهه وكأنها لا ترى فى الغرفة سواه . ونهض عصام من مكانه وسار فى اتجاه جميلة وقال وهو يشير الى ثوبها مستنكراً :

- ايه ده اللى انت لابساه .. ؟

وقال محمود ليلي :

- البلد بتتحرق .

وقالت ليلي دون أن يبدو على وجهها أى تغيير وكأنها تقرر حقيقة ثابتة :

- أيوه بتتحرق .. بتتحرق .

ولكن كان هناك وجه ينظر فى وجهها ويبتسم ابتسامة واسعة ..
ابتسامة كاملة .. ابتسامة بلا حدود ، وجه غريب ، وجه لغريب .
وصرخت ليلي وكأنها أدركت اذ ذاك فقط مايعنيه محمود وكأنها
عادت لوعيتها اذ ذاك فقط .

- بتتحرق ؟! بتتحرق ازاي ؟

ورأى محمود ابتسامة حسين وهو يقف منتظرا وقال :

- أختي ليلي و ...

ونظر الى جميلة فى دهشة وهى فى ثوبها الأبيض ثم أكمل كلامه
- وبنت خالتي جميلة .

وبقيت يد حسين معلقة فى الهواء لحظة ، ثم تعلقفتها يد جميلة .
وهمست جميلة فى أذن عصام بشيء عاد على أثره واجما الى الأريكة
التي تواجه محمود وتبعته جميلة .

ولم ترخ ليلي عينيها عن محمود وتمتت وشففتها ترتجفان :

- ازاي يامحمود ؟ ازاي ...

وبدا وجه محمود جامدا وهو ينظر بعيدا ، وينتزع صوته انتزاعا
وكانه يجد صعوبة فى الكلام .

- الناس، الناس حرقوا السينمات وشارع قواد ، والبلد كلها نار
ودخان . . .

وقالت ليلي بصوت باك :

- الناس يحرقوا البلد ؟ ! ليه ؟ .. ليه نحرق بلدنا ؟

ولم يجب محمود ، كز على شفته السفلى وأغلق عينيها وتركها
غريبة وحيدة ، وتلفتت ليلي تنظر حولها ، كانت جميلة تجلس على طرف
الأريكة فى احتراس حتى لايتكسر ثوبها وكان عصام منكمشا فى الطرف

الثانى من الأريكة ، وتوقفت عيناها عند حسين ، وابتسم حسين فى وجهها ابتسامته الواسعة .

- الواقع ان الناس مظلومين ، الناس خرجت عشان تحتج على المذبحة بتاعة الاسماعيليه ، والسراى والعناصر الرجعية انتهزوا الفرصة عشان يطعنوا الحركة الوطنيه .

وأخرج محمود سيجارة بيد مرتعشة وقال :

- الخيانه ما ابتدتش النهاردة بس .. الخيانه ابتدت من أول يوم ، وآدى النهايه ، الحريق دا هو النهايه ، نهايه معركة القنال .

وانهارت ليلى على مقعد مقابل للمرأة الكبيرة التى تزين حجرة الجلوس ، وغامت عيناها بالدموع . وعلى صفحة المرأة تكسرت أشعة الشمس الغاربة تاركة شعلة من الاحمرار ، وركزت ليلى عينيها على المرأة ونار .. ألسنة من النار تندلع فى المرأة أمام عينيها الغائمتين وتربط بينها وبين المرأة وكأنها مشدودة اليها بقوة سحرية .. وأصوات تطن فى أذنيها ، تطن كمواقد الغاز .

وقال حسين :

- البلد الى فيها أبطال زى العساكر بتوع الاسماعيليه مش ممكن تكون دى نهايتها .. كانوا معزولين ، وكانوا عارفين ان البلد تخلت عنهم وكانوا يقدرُوا يسلموا .. يرفعوا منديل أبيض أو قميص .. ومع كده ماسلموش ، ماتوا على رجليهم .

ومسح محمود وجهه بيده وقال :

- وايه الفايده ؟ ايه الفايده ؟ دم وراح هدر

ومدت ليلى يدها تشد ياقة ثوبها بعيدا عن عنقها وعيناها مشدودتان الى المرأة .. دم ونار وهى تتطوح بين الدم والنار ، تتخبط وتسعى الى الخلاص .. والدم يحيطها من كل جانب والنار .. وجميلة هادئة كالتمثال بثوبها الأبيض .. وكلمة الخيانة تطن فى أذنيها ، ونار تطوق البلد وتخنفها .. تخنفها .

وانتفضت ليلى واقفة ، واندفعت تجرى من الحجرة .. ومن البيت

الى السلم . . الى أعلى . . الى النار . . يجب أن ترى النار . . النار التى تطوق البلد ، التى تخنق البلد ، يجب أن ترى النار .

وقامت جميلة واقفة بدورها وهى تصرخ صرخات هستيرية وتقول

- السلم . . السلم . . السلم .

وتطلب الأمر بعض الوقت حتى تتمالك جميلة نفسها وتخبرهم بالخطورة التى تتهدد ليلى ، واندفع محمود يجرى على السلم وتبعه عصام وخلفهما جميلة .

ووقف حسين على العتبة ثم لمح المصعد صاعدا فأوقفه ودخل وأوصد خلفه الباب .

* * * *

وظلت ليلى تقفز السلم وقد دبّت فيها قوة عجيبة ، قوة تدفع بها وتشدها الى النار . ولم تر حسين وهى تدخل السطح ، اندفعت تجرى حتى انهارت الى جانب السور . . كانت النار قد بدأت تحبى ولم تعد تظهر الا فى جهات متفرقة ضعيفة مائلة الى البهتان والزوال ، ولكن الدخان كان يجثم فى كتل ضخمة ، كتل بشعة كريهة على السماء ، وعلى الأرض وعلى الصدر تكاد تسحقه .

ولمس حسين ذراع ليلى فى رقة وانتفضت تنظر اليه فى خوف .
كان يقف الى جانبها يعطى ظهره الى السور ويستند بيديه عليه .
وابتسم فى وجهها ابتسامته الكاملة الواسعة ولانت ملامحها وعادت تنظر الى كتل الدخان .

وقال حسين فى صوت رقيق :

- مالك ؟ . .

ورفعت اليه ليلى عينين ميتين، وعادت تنظر من جديد الى الدخان الأسود الكثيف .

وقال حسين بصوت أرق :

- مالك ياليلى ؟

وتنهدت ليلي وقالت وهي تنظر الى كتل الدخان البشعة الكريهة .

- ليه كل حاجه كويسه تنتهى نهايه وحشه .

وجلس حسين على السور وقال وقد أحنى رأسه تجاهها :

- دى مش النهاية .. النهاية احنا الى نعملها ، أنا وانت ومحمود

وكل الناس الى بيعبوا مصر .

وضحكت ليلي ضحكة قصيرة حادة أشبه بالصرخة وأشارت الى

صدرها وقالت :

- أنا .. ؟

وانقلب وجهها واصطبغ بالكراهية والاحتقار ، وكأنها تتحدث عن

عدو لدود ، وقامت واقفة وسارت فى تشاقل فى اتجاه باب السطح ،

ولحق بها حسين ومد يده يلمس كتفها ، وقال وصوته يرتجف

بالانفعال :

- دى مش النهاية ، ما تصدقش محمود ، صدقيني أنا .

وأدارها نحوه ورفع اليها وجهه مليئا بالرجاء وبالحنان وهو يقول:

- صدقيني أنا ..

وكان كيانه بأكمله يتوقف على تصديقها له .

والتقطت عيونهما لحظة ، وفى عينيه رأت نظرة واثقة ، نظرة مباشرة

صريحة طيبة نفاذة ، نظرة تعدها بغد أجمل ، ولانت ملامحها ..

ثم مالت برأسها تتسمع الى خطى وأصوات تقترب من السطح وتبينت

صوت عصام يناديها ، ونظرت الى حسين لحظة ثم قالت بصوت ميت :

- أنا ما بصدقش حد .

واستدارت من جديد تسير فى اتجاه باب السطح ، وتوقفت

متسمة فى مكانها عندما اندفع من الباب عصام يتبعه محمود وجميلة .

وجرى عصام اليها وامتدت يدها تتحسسانها ، وتنتقلان فى سرعة

وفى يأس وفى جنون من وجهها الى كتفها وهو لا يكف عن الهمس

باسمها . وشعرت ليلي أن شيئاً ما قد مات فيها ومدت يديها فى هدوء

وأزاحت يدي عصام عنها ، وتركت خلفها وسارت فى اتجاه محمود الذى

وقف متسمرًا متعجبًا من سلوك عصام ، وتوقفت أمامه وقالت فى صوت
ميت :

- ياللا بينا •

وتقدمت الى الباب فى خطوات متثاقلة ، ومرت بجميلة وهى تقف
مولية ظهرها الى السماء ، مسمرة كالتمثال فى ثوبها الأبيض ، وكتل
الدخان الكثيفة الكريهة تحيط بها كالإطار •

* * * *

وفى مساء ذلك اليوم اعتقل محمود فىمن اعتقل من الفدائيين ، وبقي
فى المعتقل ستة شهور •

وطيلة الستة الشهور كان أبو ليلي يردد نفس الكلمات ، كلمات
لا تتغير : أنا كنت عارف ، كنت عارف ان دى النهاية •

* * * *

وتركز كيان ليلي فى هذه الفترة فى محاولة لاختفاء ما يعتمل فى نفسها
عن الآخرين ، واستمرت تتكلم وتضحك وتتصرف كما اعتادت أن تتصرف
وتعود الى حجرتها آخر النهار مرهقة وكأنها ممثلة أطالت الوقوف على
خشبة المسرح ، وعندما تتمدد على السرير تشعر بألم فى جسمها بأكمله
ألم لا تستطيع أن تحدد موضعه وكأنها قد ضربت علة • • لا ليس هذا
تماما ، ان أمها تصف مثل هذا التعب الذى لا يمكن تحديد موضعه
وصفا أدق حين تقول : «جسمى مهزوم» نعم هو هذا ، جسمها مهزوم
وليس جسمها فقط ، كل شئ فيها مهزوم ، كما لو كانت قد رفعت حملا
ثقيلًا أكبر مما تتحمله طاقتها فانكسر عمودها الفقرى •

الم يكن هذا مافعلته ؟ لقد تحدثت أباهما وتحدثت أمها وتحدثت
تقاليدهم وأصولهم وأحببت ، أرادت أن تخرج على دنياهم الضيقة الى دنيا
حية عريضة مليئة ، أرادت أن تبني وعصام دنيا من نور ، كل مافيها
شفاف • • كل مافيها أصيل ، دنيا غير الدنيا • • دنيا الحب • • دنيا
الحق ، دنيا الجمال • • وماذا كانت النتيجة ؟ قهوة مسكوبة على البساط
ومطبخ مظلم ، وجسم مهزوم وطنين ، طين الدنيا التى هربت منها •

ومحمود ؟ محمود هو الآخر تحداهم وخرج ، انطلق محلقا ضاحكا
مزهوا الى دنيا • • دنيا الحب والحق والجمال ، وعاد منكمشا مطويا مكسور
الجناح والقذى ملء عينيه والطين ، الطين الذى هرب منه ، ونار تطوق

البلد ، ودخان أسود كريحه ، وسجن مظلم ، ودنيا أضيق من الدنيا التي انطلق منها محلقا ضاحكا مزهوا .. لا .. ان الزهو ليس من نصيب أخيها ولا من نصيبها .. الزهو موقوف على جميلة .

* * * *

فى زهو نظرت جميلة حولها وقالت :

- صحيح أودة السفرة عاجباك ياليلى ؟

ولم تنتظر جميلة الاجابة ، كانت تعرف أن ليلى لم تر مثل هذه الحجرة فى حياتها ، وان خالتها تنظر حولها فى تعجب كالريفية التي تزور القاهرة لأول مرة ، وأن زوج خالتها يخفى بالصمت شعوره بالخرج والارتباك .

ومن النافذة الزجاجية الواسعة تدفقت أشعة الشمس تشعل احمرار السجاد وتتألق على البوفيه الماهوجنى المرسوم بالماركترى ، والخضرة تنبثق من الحديقة من وراء الزجاج تكسر من حدة احمرار السجاد .

وأشارت جميلة وهى تجلس على رأس المائدة الى السفرجى بيدها اشارة خفيفة فى بساطة وبشكل طبيعى وكأنها تعودت أن تفعل ذلك طيلة حياتها ، وتقدم السفرجى يدور حول المائدة وجميلة تتحدث مسترخية مبتسمة منطلقة ويدها تعبت بحلية ماسيه فى عنقها ، وانحنى السفرجى الى جانب ليلى بطبق من الكاسات على شكل هرم مغطى بالفواكه المحفوظة ، ونظر اليها عصام بعينه الرائقتين وابتسم فى وجهها وقال

- خدى حنة كمان ياليلى ، انت طول عمرك بتحبنى الجيلاتى .

وجلس يأكل الكاسات فى تلذذ وقد استرخى فى المقعد .. لم يعد يشعر بالخرج تجاهها ، فى أول الأمر عندما قطعت علاقتها به ، وقبل أن يفهم السبب كان يشعر بالخرج ، وعندما عرف أنها عرفت زال الخرج وما الداعى الى الخرج ؟ ان ضميره نقى ، نظيف ، شفاف .. كأكواب الكريستال التي تتألق على المائدة ؟ لقد فعل ما اعتقد أنه الواجب عليه تجاهها ، لقد أنقذها من شيء أهون منه الموت ، ولم يكن هناك طريق آخر ولو لم يفعل ما فعل لتسبب فى ضررها ، وأهون عليه أن يموت من أن يضرها وهو يحبها وسيظل دائما يحبها .

والمؤلم أنه كان يتصرف كما لو كان ما يزال يحبها حقاً! ولم تستطع

هى أبدا أن تفهم كيف يتأتى له أن يحبها ؟ كيف يستطيع أن يحب امرأة بروحه ، وأخرى بجسده ؟! والأخرى ؟ ألم يخطر فى باله أبدا أنها إنسانة بدورها وأنه قد أضرها فى جسدها وفى عواطفها وفى إنسانيتها؟ أبدا . . انه مطمئن مرتاح وعلى وجهه تبدو نظرة جديدة حزينة ، نظرة الشهيد ، شهيد الواجب .

نعم عصام مطمئن مرتاح ، وجميلة أكثر من مطمئنة ، انها مزهوة منتصرة ، لقد تقبلت الحياة كما هى ببساطة ، بلا تغقيد وبلا فلسفة وسمعت كلام أمها ومشيت على الأصول ، وأنعمت عليها الحياة بالرضا وبالأطمئنان .

وهى كانت فى يوم من الأيام تنظر الى جميلة فى تعال ، كانت تحسب نفسها أقوى من جميلة ومن خالتها ومن أبيها ومن أصولهم وتقاليدهم ، وكانت تضحك من أمها حين تقول : « الى يعرف الأصول مايتعشبش » .

نعم ، عاشت فترة من الزمن فى ظل هذا الوهم السخيف ، وهى فى الحقيقة تافهة ومغرورة وحقيرة ، ممسحة كالمسحة التى يمسح فيها الناس أقدامهم .

- ١٠ -

وفى صباح ٢٣ يوليه قامت ثورة الجيش المصرى وهزت الأعماق فرحة معتدة مزهوة ، ارتجفت على الشفاه والتمعت فى الدموع وغصت بها الحلوق ، وخرج الناس من بيوتهم يضعون أيديهم فى أيدي الضباط وعلى أيديهم قلوبهم .

وجلس محمد افندى سليمان فى بيته الى جانب الراديو يستمع المرة بعد المرة الى البيان الذى أصدرته قيادة الثورة ، وقد شله الخوف من أن يحدث شىء يفسد الثورة ويحول دون خروج محمود من المعتقل ، لم يصدق أذنيه فى بادئ الأمر ، لم يصدق أن رجالا مثله ، مصريين مثله استطاعوا أن يتحدوا كل السلطات وأن يقلبوا الحكومة ، وحينما أدرك أن الأمر حقيقة حرفته موجة من الاعتزاز بنفسه وبمصريته .

ثم ارتجف فى جسده خوف ممض تزايد حين سمع عن اتجاه الثورة

الى خلع الملك .. الأرض تدور لم تتوقف يوما عن الدوران ، والملك يحكم
والمصريون يخضعون ، فكيف يتأتى لهؤلاء الرجال أن يغيروا الأوضاع .
واستمع محمد افندى سليمان الى خبر طرد الملك من مصر وهو يجلس
الى جانب الراديو وتحجرت الدموع فى عينيه فى رهبة واعتزاز وهو يرى
الصنم الأول يتحطم أمام عينيه .

* * * *

وفى نفس اللحظة لم تكن ليلي فى البيت، كانت تمشى فى شارع القصر
العينى ولمحت عاملا يرتدى بذلته الزرقاء ، يركب دراجة ويتقدم فى اتجاهها
من بعيد وهو يلوح بيديه ، ويلتفت يمنة ويسرة يقول للناس شيئا
والناس تتجمع فى كتل صغيرة تتحدث ، والعامل يتقدم ويترك خلفه كتلا
تتجمع ، وعندما أصبح العامل على مبعدة أمتار من ليلي توقف ونظر اليها
ووجهه الأسمر يضحك وقال وهو يلوح بيده : «الملك خرج» ثم استدار
يبلغ الخبر لصبي حاف يجرى فى اتجاهه ، وسرت الرجفة فى جسم
ليلي ، واندفعت تجرى فى اتجاه العامل ، وخرج الناس من حوانيتهم ..
وتجمعوا حوله يستوضحونه ، والعامل يكرر ووجهه يضحك « الملك
خرج ، ومدت ليلي يدها اليه ، وشد العامل على يدها فى بساطة وقوة
وقال :

- مبروك ..

- مبروك .. مبروك .. مبروك .

وأخذ الناس يرددون كلمة مبروك وكأنهم لا يستطيعون النطق بغيرها
ثم زالت الفواصل التى تفصل بينهم وأخذوا يرتنون على أكتاف بعضهم
البعض وهم يضحكون ويتندرون ، ووقفت ليلي لحظة بينهم وهى تشعر
أنها منهم وأنهم منها ، وأنهم جميعا ساهموا بطريقة ما فى طرد الملك ،
وغزاها شعور بالارتياح وبالانتماء وبالاعتداد ، وودت لو طالت وقفتها
بين الناس ولكن وقفتها لم تطل ، اعتدل العامل فى جلسته على الدراجة
ايدانا بالتقدم وأراد الناس أن يستوقفوه ولكنه لم يتوقف ، تقدم وهو
يلوح بيديه ويضحك ، يتصل بمزيد من الناس ويخبر مزيدا من الناس
أن الملك قد طرد ، ويتقدم ، يتصل ويتصل ، وكأن هذا الاتصال يشبع
فى نفسه رغبة جامحة .. رغبة فى أن يتصل بأكبر عدد من الناس فى
هذه اللحظة بالذات .

اهتزت أبواب سجن الأجناب حيث اعتقل جانب من الفدائيين تحت الطرقات القوية ، وكأنها طرقة رجل واحد ، والطرق يختلط بالهتاف : تحيا مصر ، تحيا الثورة ، يسقط الاستعمار .

وكان من الممكن أن يكسر الشبان الأبواب في هذه اللحظة ، ولكن لم يكن هناك ما يدعو لذلك ، كانوا يدركون أن أبواب السجن في حكم المفتوحة ، وأنهم في حكم الأحرار وأن المسألة مسألة أيام .

ولكن لم يطق الشبان أن تفصلهم الأبواب في هذه اللحظة ، في هذه اللحظة بالذات التي انتظروها عمرهم ، وعاشوا لها عمرهم ، أرادوا أن يتصلوا ببعضهم البعض وأن يتحسسوا بعضهم البعض واهتز السجن بالطرق والهتاف .

ولم يكن الوقت وقت طابور ، ولكن مأمور السجن أصدر أمره بفتح الأبواب وتعايق المساجين والسجانين واختلطت الضحكات بالدموع وتمنطق معتقل بحزام سجان ورقص . والتفت حوله مجموعة تصفق له على الوحدة ، وتفرق المعتقلون في مجموعات تتحدث وتضحك ، ثم ارتفع صوت يغنى :

بلادى بلادى فداك دمي
وهبت حياتى فدا فاسلمى

وساد الصمت لحظة ، ثم انضم الى الصوت أصوات ، والى الأصوات أصوات ، واعتدل الشبان فى وقفاتهم واتسعت الحلقة حتى استوعبت الجميع ، واتصلت الأصوات كأنها صوت رجل واحد . . صوت قوى مزغرد يصل بين الناس فى طول مصر وعرضها

* * * *

وقال حسين محمود وهما يتمشيان فى الحديقة الخلفية لسجن الأجناب .

- أنا مش قلت لك ؟ عشان تبقى تصدقنى .

وابتسم محمود وهو يهز رأسه فى تعجب !

- لكن مين كان يتصور ؟! مين كان يتصور أن الأمور حاتتطور بالشكل ده ؟ وبالسرة دى ؟

واقترب الصديقان من أريكة خشبية وانهار محمود جالسا وهو يتمطى ، وشعر اذ ذاك براحة عميقة تدب الى جسمه ، وكان مسئولية ضخمة قد أنزاحت فجأة من على كتفيه وكأنه قد أسلمها لغيره ونفض يده منها وآن له أن يتمطى في ارتياح .

وقال حسين :

- بتفكر في ايه يا محمود ؟

ومد محمود يدا متراخية تحك ذقنه الطويلة وقال :

- في حلقه كويسه ، وحمام سخن وفرش نضيف .

وضحك حسين ضحكة قصيرة .

- يا بختك ياعم ، حاتلاقى بيت متوضب مستنيك ، وأمك واختك على فكرة أختك لطيفه جدا .

ونظر اليه محمود وقال :

- انت مابتتجوزش ليه يا حسين ؟ بدل مانت عايش وحدك كده .

واستغرق حسين في الضحك ثم رفع رأسه وقال :

- أنا مفلس يا أستاذ .

- سنتين مهندس في شركة محترمة ومفلس ! مش معقول .. كنت بتاخذ كام ؟

- ٣٥ جنيه .

- وما حوشتش حاجه ؟

- حوشت ..

- وبعدين ؟ ..

وابتسم حسين وهو يهز كتفه :

- جوزت أختي وخلصت منها .

ومال محمود على حسين ووضع يده على فخذه وقال :

- لكن انت مين زيك ياعم ! مش يمكن تأخد البعثة الى اختك
قسمت لك فيها ؟

وقال حسين :

- أنا مش عايز أسافر دلوقت .

واعتمد محمود فى جلسته وقال :

- وبعدين معاك يا حسين ، البعثة الاولانية اعتذرت عنها وكان
اعتذارك مفهوم ، كان فيه ظروف ، وماكانش الواحد يقدر يسيب البلد
فى الظروف دى ، ودلوقت الحاله مافيش أحسن من كده ، يبقى ايه ؟

- شهر ولا شهرين بس لما الحاله تستقر ، مش يمكن يحتاجوا لنا

- هم مين ؟

- الثورة .

وقال محمود فى سخرية :

- ليه ؟ .. حايعينوك وزير أشغال ولا ايه ؟

وبدأ حسين يضحك ، ثم توقف قبل أن يكمل ضحكته ومال فى
اتجاه محمود وقال فى صوت جاد :

- احنا ضرورى نكون صاحبين يامحمود ، الانجليز مش حايسكتوا
مش ممكن حاشوفوا البلد بتفلت من ايدهم بالشكل ده ويسكتوا .

وقال محمود فى استرخاء وهو يحك ذقنه الطويلة بيده .

- على العموم ياعم احنا مسئوليتنا انتهت لغاية هنا ، الجيش النهاردة
هو اللى مسئول .

وسكت حسين قليلا وهو ينظر الى الأفق ثم قال فى صوت خافت
وكأنه يفكر :

- كلنا مسئولين ، طول الواحد ماهو عايش ، مسئوليته تجاهبلدة
مابتنتهيش .

وقام محمود واقفا وهو يقول فى غضب :

- طيب خليك راقد بقى ، اللي زيك ما يستحقش السفر .

واحمر وجه حسين للاهانة المفاجئة ، وأوشك أن يقول كلاما لا ذعا لمحمود ، ولكنه كز على شفته ولم يتكلم ، كان يحب محمود ، وكان يدرك مدى التغير الذى طرأ عليه فى فترة الاعتقال ، لقد رسم محمود صورة وردية للحياة وحين واجهته بوجهها العارى انهار ، واجه الموت بشجاعة ولم يستطع أن يواجه الخيانة ، رأى الخيانة فى القناة وفى حريق القاهرة وفى حركة الاعتقالات ، وانكمش ، أخافته الدنيا .
واستدار محمود وقال :

- أنا آسف يا حسين .

وتطلع حسين فى وجه محمود الذى شابه النحول وفى عينيه اللتين احتلتها نظرة حيرى ، نظرة طفل خدع خديعة كبيرة ، وابتسم ونهض واقفا وأحاطه بذراعه وهما يسيران فى اتجاه البهو الداخلى .

وأراد حسين أن يقول شيئا يسرى به عن محمود ، لقد أدرك أنه قد طعنه فى الموضع الحساس فى وقت غير مناسب ، لقد ذكره بالمسئولية فى وقت ظن فيه أنه تخلص نهائيا من المسئولية .

فقد جاءت الثورة كنجدة من السماء لمحمود ، نجدة رفعت عن كاهله مسئولية مواجهة الحياة بقدموتها وواقعيتها ، نجدة جعلته يؤمن أنه يستطيع أخيرا أن يقف على الشاطئ يتفرج ، بلا أدنى شعور بالتقصير .

وقال حسين وهو يميل على محمود وابتسم :

- أنا وش نكد ، مش كده ؟

وخلص محمود نفسه من ذراع حسين وانفجر ضاحكا وقبل أن يكمل ضحكته أمسك حسين بذراعه وقال :

- محمود ، فيه حاجة عايز أكلمك فيها ، حاجة خاصة بى .

وتوقف محمود عن الضحك ورفع عينيه الى حسين وقد لمع فيهما الاهتمام :

- فيه ايه يا حسين ؟ ..

وتردد حسين لحظة ، ثم اختفت الابتسامة من وجهه وسقطت يده عن ذراع محمود وتقدم الى الأمام

وقال محمود

- فيه ايه يا حسين ؟ ماتتكم يا أخى •

وقال حسين دون أن ينظر اليه :

- بعدين يا محمود •• بعدين ••

وانخفض صوته وهو يقول :

- دى مشكلتى أنا ، وأنا اللي ضرورى أحلها •

* * * *

تقلب حسين على الحشية المصنوعة من القش ثم استلقى على ظهره وهو يفكر ، لماذا استعمل كلمة «مشكلة» ؟ لماذا لم يستعمل مثلا كلمة «موضوع» ، أو «مسألة» بدلا من «مشكلة» ؟ ولكن أليس الحب من طرف واحد مشكلة ؟ وأنت لاتعرف حتى اذا كانت البنت التى تحبها مرتبطة بشخص آخر أو غير مرتبطة ؟ لا ، ليست مرتبطة ، كانت مرتبطة فعلا ، ولكن انتهى كل شئ • كان هذا واضحا جدا من الطريقة التى أبعدت بها يدي عصام عن جسدها وكأنهما يحتويان على قدر من القدرة لاتحتمله بحال من الاحوال ، لا •• لايمكن أن يكون هذا خصاما عاديا •• انها نهاية علاقتهما ، النهاية التى يستحقها ذلك الوغد ••

وابتسم حسين ابتسامة خفيفة فى الظلام •• بأى حق يشتم انسانا لايعرف الا شكله ، ولا يعرف عنه الا القليل ؟ أليس هذا جنونا ؟ ولكن أليس الموضوع كله جنونا فى جنون ؟ ماذا يعرف عن البنت التى ملأت كل دقيقة من حياته فى هذا السجن ؟ البنت التى نام على صورتها وأصبح على صورتها ، والتى ملأت قلبه بالإشراق وبحب الحياة ؟ لا شئ •• لا شئ على الاطلاق ، ومع ذلك يخيل اليه دائما أنه عرفها طوال حياته وأنه لن يعرفها أبدا أكثر مما يعرفها اليوم ، وأنه يستطيع أن يتم الجملة التى تبدوها وأن يسبقها فى الاتجاه الذى ترغب فى الالتفات اليه ، وهو لم يرها أكثر من نصف ساعة ! ! أهو السجن ، أهى الوحدة التى خلقت من هذه المقابلة العابرة أسطورة استوعبت كل كيانه ، أسطورة تتلاشى عندما يقع عليها ضوء النهار ، عندما يخرج من السجن •• لا أبدا لن يحدث هذا ، لقد أدرك مدى ارتباطه بها حتى قبل أن يدخل السجن ، فى نفس اللحظة التى رآها فيها • أن ما حدث لايمكن أن يصدقه أحد ، لايمكن أن يخضع لمنطق ولا تفسير علمى • ولكنه حدث ، وحدث له هو الذى

لا يقتنع الا بكل ماهو علمى وكل ماهو منطقى .. عندما اندفعت تجاهه فى المصعد كاد يصرخ ، ووقفت تعتذر وفى عقله تكونت جملة .. جملة واحدة : «انت كنت فين من زمان ؟ أنا طول عمرى باستنأك» ولسانه يقول كلاما فارغا لا صلة له بما كان يعتمل فى نفسه فى تلك اللحظة .. وتركها وخرج ، وعندما أقفلت الباب الحديدى بينها وبينه أدرك انه لا يستطيع أن يتركها تذهب ، انها نصيبه وهو لا يستطيع أن يتخلى عن نصيبه ، وعندما إكتشف أنها أخت محمود عرف أنه سيراه كثيرا ومع ذلك عندما ارتفع المصعد شعر أن جزءا منه يرتفع معها ، وعندما التقت عيناه بعينيها وضحكا سويا خيل اليه أنها الأخرى قد أدركت أنه نصيبها ولكنه كان مخطئا ، كانت هى فى واد ، وهو فى واد آخر ..

ومد حسين ظهر يده يمسح خبات من العرق تجمعت على جبينه .. ماذا حدث لها فى هذه المدة القصيرة ؟ ما الذى جعلها تكره الحياة وتهم بالانتحار ثم تستسلم وتستدير لتواجه الناس بجسم جامد وبوجه جامد نضبت منه الحياة ؟! وحتى فى هذه المدة القصيرة لم يكن عصام معها ، لم يكد يجلس هو مع محمود حتى ظهر عصام ، بعد عشر دقائق ، بعد ربع ساعة على أكثر تقدير وجلس هادئا مطمئنا .. لا .. لا يمكن أن يكون قد حدث بينهما شئ .. حقا ان عصام من النوع المتحجر من الناس، النوع الذى يتكلم بحساب ويحس بحساب وينفعل بحساب ويتألم بحساب ، نسخة مكررة من آلاف النسخ التى يراها الانسان ، لقد أدرك هو ذلك بمجرد أن رآه ، ومع ذلك فهو انسان ، ولا يمكن أن يكون قد حدث بينه وبين ليلي شئ حطمها هذا التخطيط ، وتركه هو هادئا هادئا الهدوء ، لا ، لابد أن الأمر كما تصوره ، لابد أن ليلي سمعت شيئا عن عصام ، ربما من جميله ، شيئا جعل الدنيا تنهار أمام عينيها .

وتقلب حسين فى سريريه ، ثم ثنى الوسادة حتى غطت وجهه ، كيف عرف ؟ كيف استطاع أن يحدد الموقف بهذه الدقة وبهذه السرعة ؟ .. لقد فهم بمجرد أن رأى وجهها المذهول حين دخلت الحجرة ، فهم حتى قبل أن يراها على السطح تبعد يدي عصام عن جسمها فى تقزز ، فهم الموقف تماما وكأنها أسرت اليه بالتفاصيل وكأنها أخبرته بأنها كانت تحب عصام ، وان عصام فعل شيئا مريعا أسقطه من حبها ومن احترامها فهم كل ذلك بسرعة وبدقة ، وهى لم تنظر اليه ، بل لم تشعر حتى بوجوده ، وتركت يده الممتدة اليها معلقة فى الهواء .

يارب كيف استطاع أن يفهم الموقف وهم في الحجرة وليلى لم تلتفت حتى لعصام؟! استنتج! لو كانت هناك مقدمات لكان من المعقول أن يستنتج ولكن لم تكن هناك مقدمات ، ومع ذلك فهم وكأن الحجاب قد زال بينه وبين هذه الفتاة وكأنه استطاع أن يقرأ أفكارها ، وهي حتى لم تلتفت إليه ، لم تشعر بوجوده! لا لا يمكن .. لابد أنها قد شعرت به .. لا يمكن أن يشعر هو بها هذا الشعور الذي يحطم كل منطق واحد ويتغلغل من الجسد الى الروح دون أن تبادله ولو جزء منه ، ولو واحد على ألف .

وسوى حسين الوسادة وتوسد كفيه .. عندما لوحث له من المصعد وابتسمت ، خيل اليه أن التيار قد سرى منه اليها ، وعندما همس في أذنها في السطح : « صدقيني » وادارت اليه وجهها والتفت عيناها بعينية .. قال لها كل ما أراد أن يقول في نظرة واحدة ، وفهمت هي كل ما قال ، ثم انقطع التيار ، سمعت ليلي صوت عصام وهو يناديها وعاد وجهها جامدا متحجرا وكأن الحياة قد نضبت منه .

وأغمض حسين عينيه وهو يحاول استبعاد صورة ليلي وهي تقف على السطح ، انه لا يريد أن يتذكرها كما كانت اذ ذاك ، انه يريد أن يراها كما رآها لأول مرة ، وهما يقفان على عتبة السلم ، وفرحة الحياة تتراقص في عينيها وفي وجهها ، لقد مضى على الحادث ستة شهور ، ولا بد وانها تغلبت على الصدمة ، وعندما يراها ..

وقفز حسين جالسا في سريره .. نعم سيرها بعد أيام على الأكثر وستدخل عليه الحجرة والفرحة تتراقص في عينيها وفي وجهها وفي جسدها ، وستلفه هذه الاشراق العجيبة التي كادت تجعله يصرخ في المصعد .

جلس حسين في حجرة الصالون في بيت محمد افندي سليمان ينصت الى أم محمود ، وشعور من المرارة يتجمع في صدره . كانت هذه هي المرة الأولى التي يزور فيها بيت محمود بعد الافراج عنهما وقد مضى عليه في البيت حوالي الساعة ولم تظهر ليلي ، ومحمود يرتدى

ملا بسه استعدادا لخروجهما معا ولم يعد هناك أمل فى أن يراها اليوم بل ربما لن يراها أبدا .

وتخايلت على فم أم محمود ابتسامة خجول أشرق لها وجهها الطيب والتفت حسين فجأة الى باب الغرفة كأنه ينتظر شيئا ثم أشاح بوجهه بعيدا وغامت عيناه .

ورأى صورة امرأة سمحة بيضاء ممتلئة تخبز أمام فرن . ووجهها يتألق فى ضوء اللهب وطفلة صغيرة سمراء تتعلق بذيلها . أمه فى البيت . فى السنبلالوين ، وأخته سميحة فى ذيلها . ولأول مرة منذ سنين طويلة يرى حسين فى وضوح صورة أمه التى فقدوها وهو فى التاسعة من عمره ، كانت الصورة تبدو دائما مهزوزة ولكنه يراها الآن فى وضوح ، والبيت الصغير والباب ذوالمزالج الخشبي الكبير وشجرة النخيل الوحيدة التى تهتز فى مهب الريح والمثلثت الساخن بلهبه من الفرن والقشدة والعسل الاسود ، وابتسامة خجول على وجه أمه . ويد طرية تمسح على جبهته ، وتسوى شعره ، وقبلات خفيفة فى عينيه . . . قبلات سريعة خجول . . .

وقالت أم محمود والابتسامة الخجول تتخايل على وجهها :

- وانت عايش لوحذك كده يا بنى ؟

وتتمم حسين بشيء غير مسموع . . . ونساء يلبسن السواد يزحمن البيت وعينا أخته الطفلة واسعتان حائرتان تنتقلان من وجه الى وجه تبحثان بلا جدوى عن وجه أمها ، وهو وقد دفن نفسه فى تل من الدريس على مبعدة من البيت . وصراخ النساء يصل اليه كنباح كلاب القرية فى ليلة عاصفة ، وأبوه بعد أنصراف النساء يسحبه فى قسوة غير عادية ثم ينهار باكيا عندما يصلان الى عتبة البيت الخاوى . . . وامرأة غريبة أمام الفرن تقدم له المثلثت والقشدة والعسل ، وأخوة جدد غرباء ، وأب غريب ، ورحلة طويلة بين غرباء ، غرباء فى المنصورة فى الدراسة الثانوية ، وغرباء فى القاهرة فى كلية الهندسة . حتى أخته سميحة أصبحت هى الأخرى غريبة ، وحياتهما معا فى القاهرة بعد موت أبيهما وكفاحهما معا لكى يكمل دراسته ، ولكى يوفر لها مصاريف الجهاز بعد أن تخرج ، أصبح مجرد ذكرى . والكلمات أصبحت تتوقف على لسانيهما . هما يبحثان عن موضوع يطرقانه ، موضوع يهمهما سويا .

كل انفصل وسار في طريق ، وأصبح غريبا عن الآخر ، ولمعة الحب في عينيها التي كانت من نصيبه أصبحت من نصيب رجل آخر ..
رجل غريب ..

وهز حسين رأسه وهو ينتزع نفسه من أفكاره ، ضايقه هذا الاتجاه في تفكيره ، واعتقد أنه اشفاق رخص على نفسه ، لقد حرم حقا حب الأم ولكنه وجد الحب في كل مكان ذهب اليه ، وجده في صداقات عميقة أغنت حياته وفي لفتات عابرة بينه وبين غرباء أصبحوا أثرها غير غرباء .. ربتة خجلة لصبي أجعد الشعر في مدرسة المنصورة ، وجلة على لسانه لم يستطع أن يكملها ، ونظرة بينه وبين رجل عجوز أبيض الشعر في ترام ١٢ ، وبسمة في منطقة القناة بينه وبين عامل صارم الوجه وهو يمد بالطلقات بعد أن فرغ مدفعه الرشاش من طلقاته .. وبسمة خجلة على وجه هذه السيدة التي جلست أمامه ، بسمة أصبحت بعدها غير غريبة عليه .. ان الغرباء لم يكونوا قط غرباء عليه ، لقد عاش الى سن الرابعة والعشرين دون أن يشعر بهذا الاشفاق الرخيص على نفسه ، وهو يعرف تماما لماذا شابت تفكيره هذه المرارة .. أمس أمضى طول الليل يحلم باللحظة التي ستدخل فيها ليلي عليه وترفع اليه وجهها المشرق وتمد يدها وعيناها تضحكان وتقول بصوتها القوي العميق الذي يشبه صوت الناي : أهلا وسهلا ..

- يلا بينا ..

قال محمود وهو يقف على باب الغرفة في بذلة كحلية أنيقة .

وحاول حسين أن يخفى ضيقه بابتسامة وقال وهو يقف :

- دهده ، دا انت رسمى أوى ، ولا عريس فى الزفه .

وتطلع محمود اليه بعينين قلقتين وهو يبعد ياقة القميص الأبيض عن رقبتة :

- ما كانش حقى ألبسها فى الحر ده ، مش كده ؟

كانت البذلة جديدة ، فصلها محمود قبل بدء المعركة ولم يلبسها . وسافر الى القناة وبعد القناة ، المعتقل ، وفي المعتقل كان يتصور نفسه وهو يرتديها ، حتى أصبحت مرتبطة في ذهنه بالحسرية ، وبحركة لا ارادية لبسها اليوم دون أن يفكر في أنها لا تناسب جو أغسطس الحار

وربت حسين على كتفه وقال :

- ولا يهملك ، على العموم الدنيا بتبرد بالليل ..

ووقفت أم محمود تودع حسين ، وابتسم حسين فى وجهها ابتسامته
الواسعة المكتملة ومدت الأم يدا مرتبكة ، وربتت على كتفه ربتة خفيفة
وقالت :

- مع السلامة يا بنى

وعبر حسين الصلاة وخلفه محمود ، وارتفع صوت ينادى محمود من
خلف باب حجرة جانبية ثم انفتح الباب وظهرت ليلي

* * * *

واستدار حسين بسرعة ليواجه ليلي واحمر وجهها لحظة ، ثم تماكنت
نفسها ، وأحنّت رأسها فى اتجاهه انحناءة قصيرة وقالت

- محمود ، فيه واحد اسمه حمدى سأل عليك الضهر وأنت نايم
وبيقول حايستناك فى قهوة ركس الساعة تمانيه .

ونظر محمود الى حسين وهو يهز رأسه فى تعجب :

- شايف يا سيدى س حمدى ومواعيده الى من طرف واحد دى ؟!
ولم يجب حسين ، كان ينظر الى ليلي بوجه مذهول وكأنه لا يعرفها
وقال محمود :

- انت طبعا تعرف ليلي أختى يا حسين ؟

ولم يجب حسين ، تقدم فى اتجاه ليلي بخطوات مترددة ومد يده اليها
وعيناه تنظران الى عينيها وكأنه يبحث عن شيء . وقال وكأنه يسأل ،
وكانه غير متأكد من الاجابة :

- احنا اتقابلنا قبل كده ؟

واهتزت حدقتا ليلي لحظة واحدة ، ثم مدت الى حسين يدها ورفعت
اليه وجهها باردا جامدا خاليا من التعبير وعلى فمها ابتسامة متحفظة
مصنوعة :

- أيوه اتقابلنا ..

ولاحظ حسين أن نبرة الصوت قد تغيرت بدورها ، لم يعد صوتها

يصدر من الاعماق عميقا منطلقا كصوت الناي بل أصبح يصدر من طرف
اللسان مكتوما محبوسا

واحتفظ حسين بيدها فى يده وهو لا يزال ينظر اليها ، يبحث فى
رجاء يائس عن ذلك الشيء الذى ضاع منها ، الذى مات فيها . ذلك الشيء
الجميل الذى كان يشع من كل جزء من وجهها وجسمها . .
وأسقط يدها فى غضب وكأنها سلبته شيئا يملكه . . وغامت
عيناه . .

ورأى أخته سميحة وهى طفلة فى الخامسة تبكى وتقول :

- خليها تطير يا حسين ، خليها تطير

وهو فى جلبابه الابيض ينقل بصره فى حيرة بين أخته وبين
الفراشة الجميلة المحنطة فى الكراسى ، وسميحة تبكى فى حرقة :

- خليها تطير يا حسين ، بتبقى حلوة لما تطير . .

وهو يضم سميحة الى صدره ويقبلها فى شعرها ويقول :

- ما تقدرش يا سميحة ، ما تقدرش تطير . .

ونظر حسين الى ليلي نظرة أخيرة . ودون أن يلفظ بكلمة استدار
نحو الباب الخارجى وهو يكاد يهرول .

★ ★ ★ ★

ولكنه عاد من جديد ، وافتقد من جديد فى ليلي الشيء الذى جذبه
اليها بادىء الأمر ، وخرج وحلقه يغص بالمرارة ليعود ، ولم يكن يدري
لم يعود ، ربما لأنه كان يذكرها دائما وهو بعيد عنها كما رآها أول
مرة . وربما لأنه كان يؤمن أنه يستطيع بقوة حبه لها أن يعيدها كما
كانت . أو لعله كان مدفوعا اليها بذلك الشعور العجيب الذى لا يسنده
منطق ولا قبس من دليل ، الشعور بأنها له وأنه لها وان طال الانتظار

وكان عليه أن يكون حريصا وأن يغير أسلوبه الذى تعود عليه
كان دائما يعرف ما يريد ويصل اليه بأقصر الطرق المباشرة . كان يكره
التسلل ويحب الاقتحام . ولو كان الموقف طبيعيا لأعلن لها حبه فى
أول فرصة ولطلب اليها أن تتزوجه . ثم انتظر بعد ذلك أن تبادله حبا
بحب . لو كان الموقف طبيعيا لما اهتم كثيرا لحقيقة أنه عاطل وأنه مفلس

ولما انتظر منها اذا أحبته أن تهتم بهذه الاعتبارات . فهو مهندس وسيجد قطعاً عملاً وسيبدأ معها جنباً الى جنب من أول السلم .

ولكن الموقف لم يكن طبيعياً ، وعليه أن يخطو بمنتهى الاحتراس ، أن يتسلل من خلال ذلك السياج الذى فرضته على نفسها ، أن يصل الى أعماقها .

وحاول حسين جاهداً أن يجرها الى الحديث ، أن ينتزع ضحكاتها ويشير تحمسها وغضبها . وكانت تتكلم فى تحفظ وتضحك فى تحفظ ولا تغضب ولا تتحمس وكأنها فقدت القدرة على الغضب والتحمس وعندما تقابل نظرتها نظرتة الفاحصة اليائسة تبتسم فى اعتذار ، وكأنها تعتذر عن وجودها . واذ ذاك يتسرب الشك الى حسين ، ويتساءل : هل وراء السياج أعماق ؟ أم أن عصام قد نزل بليلى الى الأرض وربطها بها؟ وجعلها مثله ، نسخة من آلاف الناس الذين يتكلمون بحساب . ويشعرون بحساب وينفعلون بحساب ؟ .. هل هذا السياج قناع تخفى خلفه قدرتها على الحب والانطلاق والانفعال خوفاً من أن تجرح مرة أخرى ؟ أم أنه المظهر الطبيعى لانسانية متحجرة .. ؟

وهل هذه الكراهية لنفسها التى تبدى فى تصرفاتها وأقوالها كراهية طارئة عابرة ؟ أم كراهية وطيدة ليفت قلبها وقتلت فيه كل منابح الحب لنفسها وبالتالى للآخرين ؟ وهل تمسكها بالأصول والتقاليد البالية العتيقة ، ايماناً منها بهذه الأصول أو التقاليد ؟ أم أنها تحتمى بها وتستند اليها بعد الهزة العنيفة التى مرت بها ؟ وهل هى تؤمن بالآراء التى ترددها ؟ هل هى تؤمن حقاً أن الحب كلام فارغ ، وأن كل الرجال سواء ، وأن المهم أن يتمتع الانسان بمركز اجتماعى محترم ؟ وهل هى تعجب بجميلة وبزيجتها وتعتبرها مثلاً أعلى للزيجات؟ أخوها يقول أنها تغيرت وكذلك سناء ، عندما رأت نظرتة الفاحصة

اليائسة مركزة فى وجه ليلي فهمت ..

لمست سناء ذراع حسين حين انفردت به فى الحجرة وقالت :

- ليلي ما كانتش كده ، ليلي اتغيرت .

ورفع حسين اليها عينيه وقال فى تساؤل :

- عصام ٠٠ ؟

واحمر وجه سناء كما لو كان الموضوع يمسها هى شخصيا وقالت

- انت عارف ٠٠ ؟!

وهز حسين رأسه ثم قال :

- بس مش عايز ليلي تعرف انى عارف .

وقالت سناء :

- انت بتحبها ٠٠ ؟

وأطرق حسين ، وابتسم ابتسامة واهنة وفهمت سناء .

ثم رفع حسين رأسه وقال فجأة :

- ايه اللى حصل ٠٠ ؟

وحسب أن سناء ستتردد ، ولكنها لم تتردد ، أخبرته فى اختصار

وفى كلمات كالسوط وكأنها لا تجلد بها عصام وحده بل كل الرجال .

وعادت الى مقعدها واعتدلت فى جلستها وقالت فى غضب :

- انت الوحيد اللى تقدر تساعدها .

- اسمعنى ٠٠ ؟

وقالت سناء فى اختصار :

- ليلي مبسوطه منك .

وأشرق وجه حسين بابتسامته الواسعة

- مش باين ٠٠ !

وأطرق برهة ثم رفع رأسه وقال :

- هى قالت لك ٠٠ ؟

وهزت سناء كتفها وضحكت فى سخرية :

- طبعا لا ..

ورفع حسين اليها عينين متسائلتين دون أن يتكلم وقالت :

- ليلى مش ممكن تعترف ، حتى بينها وبين نفسها ، انها بتميل
لأى انسان ..

وقامت سناء واقفة وهى تكمل كلامها :

- ليلى اتعذبت كفايه ، ومش عايزه تتعذب تانى * مش عايزه تحب

وقال حسين وصوته يخنق بعاطفته :

- ولكن الوضع مختلف ، أنا باحبها *

وقالت سناء فى سخرية وهى تقف تجاهه :

- وعصام كان بيحبها * ولسه لغاية دلوقت بيقول انه بيحبها *

وسارت فى اتجاه باب الغرفة ووقف حسين وهو يقول :

- أرجوك ، الموضوع مختلف ، عصام ..

- عارف ؟ ساعات بيتهيالى انكم ما بتقدروش تحبوا ، ان القدره

على الحب والتضحية مش موجوده عند الرجاله *

- بلاش التعميم ده وحياة أبوك * انت أولا ، بتثقى فى أنا ؟

ولا لا ؟ !

ونظرت سناء الى ذلك الرجل الطويل العريض الذى يقف أمامها

وقد توقف اصبعه على صدره وهو ينتظر اجابتها ، وكأنه طفل ينتظر

من أمه أن تؤكد له أنه ولد طيب ...

وانفرج وجهها فى ابتسامة واسعة :

- المهم ان ليلى هى الى تثق فيك ، مش أنا *

- ازاي ؟ .. ازاي أخلى ليلى تثق فى ؟ ..

- لو كنت بتحبتها كفايه ، كنت عرفت ازاي *

وتجهم وجه حسين وأراد أن يقول لسناء أنها غبية وأنها لو عاشت

مئة سنة لن تحب انسانا بمقدار ما يحب هو ليلى ، ولكن سناء ابتسمت

فى وجهه ابتسامة رقيقة وقالت فى حنان :

.. ما تزهقش .. وما تياسش .. اصبر ..

وعمل حسين بنصيحة سناء وانتظر في صبر وخيل اليه أن محاولاته كادت أن تنجح وأنه كاد أن يصل ، كانت ليلى تضحك من نكتة قالها والتقت عيناه بعينيها وفجأة توهج اللعان القديم في عينيها لحظة واحدة ثم أشاحت بوجهها عنه وانطفأ ..

ولكنه أدرك اذ ذاك أنه سينتظر - العمر كله لو تطالب الأمر - ليرى ذلك اللعان يتوهج في عينيها من جديد ..

* * * *

ولكن الأمور خرجت من يد حسين فجأة وبسرعة مذهلة ..

كان يمر على ادارة البعثات ليسأل عما حدث بشأن البعثة التي تقدم اليها .. وطالعه الموظف المختص من خلف أكوام من الاوراق ومنظاره يتدلى على أنفه وسأله عما يريد بصوت هامس .. واستغرق الرجل العجوز مدة طويلة وهو يبحث في بطاء عن دوسيه البعثة .. ووجد الدوسيه وفتح به بنفس البطء .. وبدأ يقلب صفحاته صفحة وراء صفحة حتى وصل الى قرار لجنة البعثات العليا وتطلع الى حسين صامتا لحظة وهو يفحصه بامعان .. وتأكد لحسين أن الحظ قد خانته هذه المرة وأنه لم ينل البعثة .. ودهش عندما وجد نفسه يتنهد في ارتياح وكأنه قد فر من مأزق كان يواجهه .. ولكن الموظف المختص سوى منظاره على عينيهِ بعد فترة صمت وأخبر حسين أنه قد اختير كعضو أصلي للبعثة التي تقدم اليها ، ونبه عليه بأهمية السرعة في استكمال أوراقه لكي يلحق بالفصل الدراسي الأول .. وسكت الموظف وكأن الكلام قد أرهقه ، وعاد يصوب نظره الى حسين من خلف منظاره المتدلى على أنفه ، وحاول حسين جاهدا أن يتحاشى تلك النظرة ، غزاه شعور عجيب بأن ذلك الرجل العجوز الذي يجلس منكشاً كالقط ، يطوقه ، ويحكم المصيدة عليه ..

وعندما وصل حسين الى الشارع تذكر ليلى فجأة وشعر بقلبه يهبط من صدره في عنف ويترك خلفه خواء ، وأندفع في اتجاه بيتها ..

يجب أن يراها ، يجب أن يثبت لنفسه أنها ليست سرايا في حياته بل حقيقة ملموسة ، حقيقة قائمة يستطيع أن يمد يده اليها وأن يحتويها ولا يفلتها أبدا ..

وبعد ذلك فقط يستطيع أن ينظم ذلك البحر من الأفكار التي تتوالى على رأسه ويستطيع أن يقرر الخطوات العملية التي سيتخذها لمواجهة هذا الموقف الجديد ..

* * * *

أسرع حسين الخطى وهو يكاد يجرى ، وعندما وصل الى باب العمارة الخارجى اندفع باب المصعد ووجد ليلى تقف تجاهه فى ملابس الخروج ، ووقفت هى أمام المصعد لا تتحرك . وتقدم حسين اليها ومد يده وأخذ يدها واحتفظ بها دون أن يتكلم ، واحمر وجه ليلى ورفعت عينيها اليه لحظة وتشبثت نظرته بها فى يأس . وأسدلّت هى جفنيها على عينيها وأدركت أن شيئاً ما قد حدث ، شيئاً خطيراً . كان حسين يبدو أمامها لأول مرة مجهداً متعباً منهاراً ..

وقال حسين فى جمل لا تكتمل :

- جات لى بعثة - ثلاث سنين - ألمانيا

ورفعت ليلى وجهها اليه ، ورأى حسين فى عينيها حزناً عميقاً ، كما لو كانت قد أدركت اذ ذاك فقط مدى تعاستها ووحدها وشعورها بالوحشة والانعزال .

وأدرك أنها فى حاجة اليه ، ربما بقدر ما هو فى حاجة اليها ، رغم كل الحواجز العالية التي ترفعها فى وجهه . وضغط فى حنان على يدها التي ما زال يحتفظ بها فى يده .

وأدركت ليلى أنها كشفت عن نفسها وسحبت يدها فى عنف وقالت

- محمود فوق ..

وتقدمت فى اتجاه الباب الخارجى للمبنى .

وقال حسين :

- رايحه فين ؟ .. استنى هنا

ودهشت ليلى من التغير المفاجئ فى صوته ، كانت نبرة اليأس قد زایلته وحلت محلها - لا نبرته العادية - بل نبرة أمرة ، كأنه يأمرها أن تنتظر . وحين استدارت وواجهته كانت ملامحه قد لانت فى ابتسامة

أسرة ، ابتسامة لا تقاوم ، ومع ذلك لم تبتسم فى وجهه ، نبع فى قلبها خوف من تلك الثقة ، من تلك الابتسامة التى تملأ وجهه .
- تعالى هنا . أنا عايز أكلمك فى موضوع .

وتحدد الخوف الغامض الذى ملأ قلب ليلي ، خشيت أن يقول حسين شيئاً يقلب نظام حياتها ، شيئاً يسلبها الراحة التى وصلت بعد مجهود اليها ، الراحة التى تنبع من إدراكها أنها مكتفية بذاتها ، وأن انسانا ما ، لا يستطيع أن يؤذيها أو يؤلمها .

وكان عقل ليلي يعمل فى ببطء وصعوبة . . يجب أن تهرب . فى الشارع ؟ سيتبعها حسين . فى حجرتها ؟ ستوصد الباب وتحكم اغلاقه واذا ذاك لن يستطيع أحد أن يصل اليها . لن يستطيع أحد أن يؤذيها ولكى تكسب الوقت ، لكى تحول بين حسين وبين أن يتكلم قالت وعيناها مصوبتان على السلم .

- فىن . . ؟

وقال حسين فى بساطة ووجهه ما زال يبتسم :

- فوق ، أو نخرج فى أى حته .

وقالت ليلي فى اضطراب :

- مش ممكن ، مش ممكن يا حسين

وجرت تقفز درجات السلم . وتبعها حسين وأوقفها فى مواضعته وقد أحاط كتفها بيديه .

- كلمتين بس يا ليلي . كلمتين بس .

ورأى اذ ذاك وجهها وقد ارتسم عليه الخوف . وحز خوفها فى قلبه وقال :

- ما تخافيش يا ليلي ، أنا عايزك تثقى فى ، أرجوك .

وقالت ليلي فى صوت رفيع يكاد يصل الى مرتبة البكاء .:

- سيبنى يا حسين أرجوك ، سيبنى ، سيبنى فى حالى .

وقال حسين بصوت هادىء وبلا انفعال :

- وان ما كنتش أقدر أسيبك ؟ اذا كنت با احبك .

وأفلتت ليلي ، وفى قفزات وصلت الى باب شقتها . ومدت يدها الى الجرس ولكن يد حسين أمسكت بيدها قبل أن تصل الى الجرس .

وقال فى صوت عميق هامس وهو يضغط على يدها :

- أنا با احبك يا ليلي ..

وأطرقت ليلي برأسها وكأنها تلقت الصفعة التى كانت تخشاها . ثم تمايلت نفسها ، أدركت أن حسين قد وضعها أمام الأمر الواقع ، وأن عليها أن تستجمع قواها لتواجه الموقف . ورفعت اليه وجهها باردا متحجرا خاليا من التعبير

وأسقط حسين يدها من يده وقال فى مرارة :

- لسه مرتبطة بعصام ؟

والتقت عيناه بعينيها ثم أشاح بوجهه بعيدا . وشعر كأن طعنة سكين قد اخترقت قلبه ، رآها تقف أمامه عارية كحيوان جريح ينزف وعلى عينيها تتابعته الدهشة والخوف فالشعور بالضعة والضياع .

وود حسين لو استطاع أن يسترجع السؤال الذى سأله .

واستندت ليلي على مقبض الباب كأنها تخشى السقوط ، واقترب منها حسين ووضع يده على كتفها وكيانه يختلج برغبة جامحة فى أن يحتويها بين ذراعيه ، وأن يقبل عينيها . وشعرت ليلي بلمسته . واستقامت فى الحال وقد تصلب جسمها ، ومدت يدها فى عنف وأزاحت يده عن كتفها ، واستدارت تواجهه وفى عينيها نظرة كراهية عميقة جعلته يتراجع الى الخلف حتى التصق بالحائط .

وقالت ليلي فى هدوء :

- أنا مش مرتبطة بحد ، ومش حا ارتبط بحد .

وقال حسين فى قسوة :

- عارفه أنت محتاجه لأيه ؟ محتاجه لحد يقعد يهزك لغاية ما تفوقى

لغاية ما تدركى ان الدنيا ما انتهتس • وان الى حصل ده كان ضرورى
بحصل لائنك أنت الى أسأت الاختيار •

وانهالت ليلي على الباب تدقه بقبضتها وتطلع حسين اليها قليلا ثم
هز كتفه ومد يده يدق الجرس ويقول :

— لكن للأسف ما عنديش وقت عشان أفوقك ، لائى مسافر •

واستدار وتركها خلفه وأدرك وهو ينزل السلم أنه قد اتخذ قرارا

بهائيا فى موضوع البعثة •

* * * *

ولم يكن حسين مرتاحا فى أعماقه لهذا القرار لائى أنه يتضمن اسقاط
ليلى من حسابه • ولكن الاحداث تحالفت على اقناعه بصحة قراره •
تحاشت ليلي مقابله خلال ترده على البيت ، وفكر فى الاستعانة بسناء
وسأل محمود عنها فأخبره أنها سافرت مع عائلتها الى رأس البر لقضاء
جانب من الصيف ، وأنه هو وأفراد عائلته سينتقلون بدورهم الى رأس
البر بعد أيام •

واندفع حسين يستكمل أوراقه ويختار الكتب التى سيأخذها معه
ويدرس برامج الدراسة فى الجامعة التى سيلتحق بها • وتوطدت صلته
بأخته سميحة فى هذه الأيام كما لم تتوطد منذ زواجها • كان يسهر
معهما فى بيتها الى ساعة متأخرة من الليل يتحدثان • كان قد أخبرها
بموضوع ليلي وكانت تدرك انه يتألم وان كان يرفض أن يعترف حتى
بينه وبين نفسه أنه يتألم • وقالت له مرة وهى تعدل من وضع غطاء
المائدة لتخفى ارتباكها :

— تحب أروح أشوف ليلي يا حسين ؟

وهز حسين رأسه بالنفى دون أن يتكلم وتطلعت اليه سميحة
متسائلة فقال :

— ليلي عايزه كده يا سميحه • ما فيش داعى اننا نحاول نضطرها
لحاجه هى مش عايزاها •

وقالت سميحة :

- عارف يا حسين ؟ أنا قلبي حاسس ان لك نصيب فيها .
ومسيرها لك برضه بعد ما ترجع من ألمانيا .

وضحك حسين ساخرا :

- حضرتك بتفتحي البخت ولا أيه ؟

ولكن كلام أخته الذي بدا ساذجا غير منطقي أدخل السكينة الى نفسه وتجاوب مع شعور في أعماقه لم يتأت له من قبل أن يتبلور .
شعور بأن شيئا ما يربطه بليلي ، شيئا أقوى منه وأقوى منها ، شيئا سيجمعهما معا في يوم من الايام . وأعانه هذا الشعور على التسليم بالأمر الواقع .

ولكنه عاد الى بيته مثقلا بشعور من الجرم ، بعد أن ودع ليلي ليلة سفرها الى رأس البر .

تحاشته تلك الليلة كمعادتها منذ أن فاتحها بحبه . وجلس طول الوقت مع محمود في حجرته . ولكن عندما خرج الى الصلاة كانت تقف هناك وسط كومة من الحقائب بعضها مفتوح وبعضها مغلق وهي تتحدث الى أمها

وصافح حسين الأم مودعا ثم استدار الى ليلي وتشبثت نظرتة بوجهها وهو يحتضن يدها بين يديه ، واهتزت حدقتها ثم سحبت يدها من يده وابتسمت ابتسامتها المعتذرة وقالت :

- مع السلامه .

واستدارت تخاطب أمها :

- ماما . على فكره ، الجاكتات الصوف ، نسينا الجاكتات الصوف

ووقف حسين في مكانه لا يتحرك ونظرتة مركزة على ظهر ليلي .
وشعرت ليلي بنظرتة تحرق ظهرها ، واستدارت في بطن ، وواجهته ،
وقالت بصوت هامس مضطرب وكأنها تفضي اليه بسر :

- أصل الدنيا بتبقى برد هناك ، برد وضلمة بالليل .

وارتجفت شفتها السفلى وكست عينيها طبقة من دموع جمدت على حدقتها .

ولمدة خمسة عشر يوما طاردت حسين عينا ليلى ، وقد تحجرت
فيها الدموع ، وكل يوم يمضي يقربه من موعد سفره الى ألمانيا الذي
يحدد مواعده ، ويزيده شعورا بأنه تخلى عن ليلى في وقت هي أحوج ما تكون
فيه الى المساعدة .

وظلت عينا ليلى تدعو انه وتنشيان به حتى وجد نفسه يجلس في
القطار الذاهب الى رأس البر .

وأسند حسين رأسه الى ظهر المقعد ، وشعر براحة نفسية عميقة .
وكأنه فرغ لتوه من صراع طويل . . لقد عرض عليها حبه ، وحين
رفضته انصرف غاضبا كطفل كبير ، رغم أنها في حالة لا تسمح لها أن
تحبه هو ، أو أن تحب أى انسان . ربما لو كانت في حالة طبيعية لأحبته
ربما تحبه بعد مدة حين نستطيع أن نقف على قدميها وتسعيد ثقتها في
نفسها وفي الحياة . ربما لن تحبه أبدا ، ربما ستحب انسانا آخر .
ولكن كل هذا لا ينفي أنه يحبها ، ولا يعفيه من واجبه تجاهها . يجب
أن يستنفذ كل الوسائل الممكنة لمساعدتها .

لقد توهم أنه لا يستطيع أن يساعدها الا كزوج أو كحبيب ، ولكن
ربما يستطيع أيضا أن يساعدها كصديق ، كمجرد صديق . يجب أن
يستنفذ كل الوسائل الممكنة والا . . ستظل عيناها معه تدعوانه
وتتسببان به في يأس ، وتوقظانه من نومه ، ولن يهرب منهما أبدا
ولو قطع آلاف الأميال . . آلاف الأميال . آلاف ، آلاف . .

وأخذ القطار يطن في أذنه بكلمة آلاف وقام حسين الى النافذة
وفتحها . وأخذ يستوعب الحقول الممتدة أمام مرأى بصره ، وكأنه يريد
أن يحفرها بكل تفاصيلها في ذاكرته . لقد نشأ هنا كطفل وكصبي في
قرية مثل هذه القرية ، فيها حقول مثل هذه الحقول ، وساقية وترعة
وناس مثل هؤلاء الناس . ناس يكدحون ويعرقون ، ويخفي مظهرهم
الحشن الصلب قدرة جبارة على الحب وعلى العطاء وعلى التضحية .

وشعر حسين بحنين جارف وود لو استطاع أن يتوقف ، أن يمشي
والنسيم يلفح وجهه بين الحقول الخضراء ، أن يشم عبير الأرض ، أن
بصافح الأكف الحسنة الصلبة .

ولكن القطار مضى ينهب الأرض ، وهو يطن وطنينه يردد فى أذنه
كلمة آلاف . آلاف . نعم ، سيذهب آلاف الأميال بعيدا عن هذه
الحقول ، بعيدا عن الوطن ، وفى الغربة سيعيش وحيدا ، ويعمل وحيدا
يأكل وحيدا ، وينام وحيدا ، وفى نهاره وحشة . وفى ليله وحشة
للوطن . لو كانت معه . لو كانت معه . . .

واضطرم صدر حسين بموجة غضب . لماذا لا تستطيع أن تقف على
قدميها مثل بقية الناس ؟ لماذا لا تلطم من يلطمها ، وتستأنف المسير ؟
ولماذا يسهل تحطيمها وكأنها مصنوعة من . . من . . .

وجلس حسين على المقعد وهو يحاول أن يجد شيئا يشبه به ليلي . .
من الزجاج ، من الكريستال ، نعم من الكريستال ، جميل ومن السهل
تحطيمه ، والكريستال سلبى أيضا مثلها ، يعكس الضوء ولا يشعه .
تضعه فى النور فيتألق ، وتضعه فى الظلام فلا يشع نورا . نعم النور
ليس فى قلبها ولكنه فى الخارج . الثقة فى النفس لا تنبعث من داخلها
بل لقد استمدتها دائما من الآخرين . ولذلك استطاع عصام أن
يسحقها ، أن يجعلها تكره نفسها وتكره بالتالى الآخرين

وهى جميلة ، وهى ذكية ، وهى ممتازة من كل الوجوه ، ومع ذلك
لم تستطع أبدا أن تقف على قدميها . كان لا بد لها دائما أن تستند الى
شخص أو الى شيء . استندت أولا الى أخيها ، الى بطل طفولتها ، ورأت
الدنيا من خلال عينيهِ واسعة جميلة طليقة مليئة بالحب ، بالتضحية ،
بالاخلاص ، بالحق ، بالصدق ، بالجمال .

وأراها عصام جانبا آخر من الحياة لا تعرفه ، جانبا غاريا قبيحا ،
وخارت الأرض تحت قدميها ، استحالَت الى رمال طرية .

وتطلعت الى أخيها فى يأس تحاول أن ترى فى عينيهِ الحياة التى
رسمها لها ، ولكنه أغمض عينيهِ خشية أن ترى فيهما ما رآه . . وكان
محمود لم ير سوى الخيانة وكأنه لم ير

ورأى حسين أشجار النخيل تنبىء باقتراب القطار من محطة
دمياط ، وبدأت له متراصة متكاثفة ، صفوفًا وراء صفوف ، شامخة
مزهوة منتصرة مثقلة بشمارها ، بعراجين من البلح الأحمر الذى يلتصق
فى أشعة الشمس .

... لم ير الجمال ، وكان محمود لم ير الجمال ، لم ير لأبطال
الذين وقفوا للأعداء شامخين منتصرين ، وماتوا شامخين منصرين ..
لم ير الفرحة الغامرة التي تألقت فى عينى ذلك الصبى حين رفع رأسه
لآخر مرة ليشاهد النار وهي تنأجج فى معسكر من معسكرات الانجليز
.. لم ير الأسطى مدبولى يزحف وهو جريح الى داخل معسكر
بريطانى ويحرق مخزن البترول بقنبله يدوية ويحترق معه ، ولم يسمع
هتافه بسقوط الاستعمار يدوى فى سكون الليل ، يهز الاعماق ، ويهز
الأرض ، ويفجر فيها منابع الثورة ..

واهتز القطار وهو يتوقف فى محطة دمياط ، وسحق حسين عقب
السيجارة بحدائه ، وحمل حقيبته ونزل ..

وتركت السيارة الطريق الزراعى ، وتوغلت فى طريق رأس البر ،
وبدأ الهواء المشبع ببخار الماء يلفح وجه حسين ويسكن من توتره ..
وشعر بحنين جارف الى ليل ..

من هو حنى يلوم الآخرين على ضعفهم ؟ من هو حتى يصدر الاحكام
على تصرفاتهم وأفعالهم ؟ لقد كاد يبكى كالطفل وهو يرى القاهرة
تحترق ، وكاد يبكى وهو يرى نهاية معركة القناة ، ولم ينقذه الا الايمان ،
الايمان بالشعب . لقد أحس بالشعب دائما ولم يعزل أبدا ، وبالتالى
لم يضعف .

ومحمود انعزل ، وليلى انعزلت ، انعزلت حبيسة وراء (الأنا)
تنكأ جراحها . وكان الدنيا كلها قد تركزت فى هذه (الأنا) . ولم يعد
لليلى هم الا أن تحميها من عدوان العالم الخارجى . لقد استندت الى
أمها ، الى أصولها ، الى تقاليد الناس من حولها ، ورأت الحياة من خلال
عينى أمها ضيقة لا تتجاوز الجدران الأربعة التى تعيش بينها ، مخيفة
يتحصن ضدها الانسان ، وينصرف جهده ليتحاشاها لا ليحيها . وبتسلح
فى ذلك بالأصول ، يتكلم بحساب ، ويتصرف بحساب ، وينفعل
بحساب لكى لا يتعب ولكى لا يتألم .

وقد لا يعرف سعادة كبيرة ولكنه أيضا لن يعرف ألما كبيرا
فالجدران هناك تحيطه وتحميه ضد الوحش الذى يتربص به فى الخارج
.. ضد الحياة ! ..

وامتدت الكثبان الرملية تحت بصر حسين ، أرض خراب قاحلة

جافة بلا ماء ولا شجر ، ومن خلف الكئبان طالعت عينا ليلي وقد تحجرت
فيهما الدموع ..

كانت ليلي مستلقية على مقعد طويل تحت الشمسية تقرأ كتابا حين
شعرت بيد تلمس كتفها .

— ليلي — حسين جه ..

قال محمود

ولان وجه ليلي في ابتسامة لم تكتمل ، أدركت أن جسمها ممدد
تحت نظر حسين وقامت تحييه في ارتباك :

— أهلا وسهلا ..

وقال محمود وهو يزيح المنشفة من على كتفه ، ويضعها على ظهر
مقعد خال :

— حسين مسافر ألمانيا بعد أسبوعين .

واهتزت حدقتا ليلي ولم تقل شيئا : مدت يدها وأخذت المنشفة
من يد حسين ووضعتها على ظهر المقعد وأخذت تسويها بيديها ، وقال
محمود :

— مش تهنى ليلي يا حسين

وانقبض وجه حسين وأكمل محمود كلامه :

— أخذت التوجيهيه وحادثخل الجامعه .

وتهلل وجه حسين وهو يحتضن ليلي بنظراته وقال :

— مبروك

وسار محمود الى البحر وخلفه حسين ، بعد أن ألقى نظرة تساؤل
الى ليلي ..

وجلست هي من جديد ، ولكنها لم تجلس على المقعد الطويل .
جلست متصلبة على مقعد من الخيزران ، وحاولت أن تستغرق في
(الباب المفتوح — م ١٢)

القراءة من جديد • ولكنها لم تستطع • بدأت أصوات الباعة تحول
بينها وبين التركيز ، وأمواج البحر تتدافع وتمتد حتى تصل الى قدميها
وقال محمود لحسين وهما يديران ظهريهما لموجة عالية :

- البحر مش حاجه النهارده

- مش حاجه بس •• دا فظيع يا أخ •

وقال محمود :

- لقدام يبقى كويس

- قدام؟! قدام مين يا عم • دا أنا ما اعرفش أعوم •
وانفجر محمود ضاحكا ، وقد سره أن يكتشف في نفسه نقطة
تفوق على حسين •

- طويل وعريض كده ولا تعرفش تعوم ؟

وكادت موجة عالية أن تقلب حسين ، وتماسك وهو يضحك

- كفاية كده ، يللا بينا نخرج •

واندفع محمود الى الداخل يشق الأمواج ، وهو يشير لحسين أن
يتبعه • وهز حسين رأسه واستدار في اتجاه الشاطئ •

واقترب حسين من ليلي وقطرات الماء تتساقط من شعره ووجهه
وأعطته ليلي المنشقة دون أن تتكلم • وجلس على الرمل الى جانبها ، وقال
وهو يجفف شعره ويبتسم في وجهها :

- لسه مخلصمانى ؟

وأقفلت ليلي عينيها وهى تبتسم ••

وقال حسين مداعبا :

- ما هو حاجة من اتنين ، أما مخلصمانى أو خايفة منى

- وحا أخاف منك ليه •• ؟

وقال حسين فى خفة :

- دا سؤال وجيهه ، الواحد بيخاف من شخص تانى ليه ؟ اما ان الشخص التانى دا مؤذى أو ...

وتطلعت اليه ليلي فى توجس ، وركز حسين عينيه فى عينيها وقال بصوت عميق :

- أو خايف يحبه ..

وأشاحت ليلي بوجهها بعيدا عنه وتطلعت ساهمة الى البحر ، والموج يعلو شامخا متوجا بالبياض ، ثم يتلاطم ويستكين ليرتد من الشاطئ ذليلا الى البحر ، وقالت فى صوت هامس :

- أنا عمري ما حا أحب حد

وطرح حسين رأسه على مقعد خال ومد قدميه وارتحنى فى جلسته وقال وفى صوته رنة عدم التصديق :

- متأكد ؟!

- طبعا متأكد

- أنا شخصيا مش متأكد ..

وقالت ليلي فى عنف :

- قصدك ايه ؟

واعتدل حسين فى جلسته وهو يبتسم ويشير بأصبعه فى تأكيد الى صدره :

- قصدى أنك حاتحبيني ، حاتحبيني أنا ، حاتصبحى فى يوم الصبح وتكتشفى أنك بتحبيني ..

ونظرت اليه ليلي فى دهشة لحظة ، ثم انفجرت ضاحكة

- بتضحكى على ايه ؟

وهزت ليلي رأسها فى تعجب وهى مستغرقة فى الضحك وقالت:

- يا ريت يكون عندى ثقة فى نفسى زيك كده يا حسين

وقال حسين ووجهه كوجه طفل غاضب :

- مش فاهم حاجه ..

وابتسمت ليلى وقالت :

- ايه الى بيخليك متأكد بالشكل ده ، زى ما أكون أنا شخصيا
قلت لك .. انى باحبك ..

وارتجف صوت ليلي وهى تنطق بالكلمتين الأخيرتين

وقال حسين ، وكأنه يقرر حقيقة واقعة :

- انت فعلا قلتيلي

وفتحت ليلي فمها فى بلاهة ، وابتسم حسين :

- أنت فعلا قلتيلي ، قلتيلي أكثر من مره

وأشارت بيدها فى يأس وهى تبتسم

- لا .. دا انت مجنون خالص

وزحف حسين فى اتجاهها

- تفتكرى الحاجات دى الواحد بيقولها بلسانه بس ، بالعكس
دا بيقولها أكثر بعنيه

وقالت ليلي فى سخرية :

- وعنيه قالت ايه بقى يا سيندى ؟!

- عنيك الى فقدت لمعانها بتلمع لى أنا بس ، ووشك الى راح
منه الاشرار بيشرق لى أنا بس .

- أنت بتتخيل حاجات وهميه ، حاجات ما حصلتش خالص ..

واقترب حسين منها حتى كاد رأسه يلمس فخذهما ، وقال فى
صوت تناهى فى رفته :

- خدينى على قد عقلى يا ليلي .

ولمعت الدموع فى عينيها وقالت :

- أنا أسفة يا حسين

- لا .. أرجوك ، أنا عايز أشوفك النهسارده مشرقه تمام
زى ما شفتك أول مره

ورفع اليها وجهه وقد ذاب في ابتسامه الآسرة وقال

- عايزة تبسطيني قبل ما اسافر

وهزت ليلي رأسها بالموافقة

- طيب ، خلىنا نتخيل ، نتخيل مع بعض

ومسحت ليلي عينيها وابتسمت ، وقال حسين :

- نفرض انك صحتى الصبح واكتشفت انك بتحبيني

وقالت ليلي وكأنها تلعب لعبة مسلية :

- وبعدين ؟

- وبعدين حاتروحي مكتب التلغراف ، وتكتبى تلغراف على
عنوانى فى ألمانيا

- أقول فيه ايه ؟

وأمسك حسين بحصاة ، وأخذ يكتب بها على الرمال ، وهو ينطق
ببطء وكأنه يملئ ، وتاهت عيناه ، وغار صوته ، وكأنه يحلم ...

« قم بالترتيبات اللازمة لعقد زواجنا ، سأخبرك فى البرقية التالية
بموعد وصولي ، التفاصيل بالبريد ... »

ورفع حسين رأسه الى ليلي ويده ما زالت ممسكة بالحصاة ونظر
اليها نظرة فاحصة ، وكأنه يختبر مدى قوتها ، مدى قدرتها على القيام
بهذا الدور الذى يريد لها أن تقوم به .

وتلملت ليلي تحت نظرتة الفاحصة ، وأدركت أن المحادثة
ستخرج من النطاق الخفيف الذى كانت تدور فيه الى نطاق جاد خطير .
وتشبثت باللعبة المسلية ، وقالت فى صوت تسرب اليه بعض الخوف

- وبعدين ؟

- تركبى الباخرة وتيجى ...

وبدا من صوت حسين أنه لم يعد مهتما بالمحادثة ، كان اهتمامه
منصباً على محاولة الوصول الى أعماق هذه الفتاة ، الى معرفة الى أى

مدى يستطيع الاعتماد عليها ، ومصيره هكذا معلق بمصيرها .
وقالت ليلي بصوت ضعيف وهي تشير بذراعها الى مسافة وهمية
- كل السكة دى لوحدى ؟

واعتمدل حسين فى جلسته وقال فى بطاء ، وبطريقة يحمل بها
كلماته أكثر من معنى :

- دى السكة الى ضرورى تمشيها لوحذك يا ليلي .
وشعرت ليلي بنظرته الفاحصة تضيق عليها الخناق ، وكأنها
تكشف عن مدى ضعفها ووهنها . وأشاحت بوجهها بعيدا وهي تتطلع
الى البحر ، ثم ارتجفت شفتاها وهي تقول :

- طيب افرض ان البحر هايج والموج على .
وقال حسين ، وهو يحمل كلماته من جديد أكثر من معنى :
- عشان نوصل للبر ، ضرورى نواجه الموج والبحر .
ونظرت اليه ليلي طويلا ، وقد ضاقت عينها ، ثم ضحكت ضحكة
أشبه بالعويل وقالت :

- وعلى البر ألاقى آيه ؟ ألاقى آيه يا حسين ؟ .. قهوة مدلوقة ؟
ونظر اليها حسين فى دهشة لحظة ، ثم أدرك أنها تشير الى
تفصيل من تفاصيل علاقتها بعصام ، وانقبض وجهه ولم يقل شيئا .
وغطت ليلي وجهها بكفيها ، وقالت وهي تهز رأسها فى يأس :
- ما أقدرش ، ما أقدرش يا حسين .

وكشفت عن وجهها ، وقامت واقفة ، وقام بدوره واقفا يواجهها .
وقالت ليلي بصوت هادئ :
- ما تضيعش وقتك يا حسين ، ما فيش فايده منى .

ومضت ليلي فى خطى متباطئة الى العشة ، ولحق بها حسين ،
وسمعه خلفها يناديها :

- ليلي

ولم يكن فى صوته غضب ولا يأس ولا رجاء ، كان الصوت
يستوقفها ، يأمرها فى رجولة وحنان أن تقف ، ووقفت .
وقال حسين :

- عارفه يا ليلي حاتلاقى على البر ايه ؟

ونظرت اليه ليلي ولم تتكلم ...

- حاتلاقى حاجة أهم منى ، وأهم من أى انسان تانى . عارفه ايه
هى يا ليلي ؟

ورفعت اليه ليلي عينين متسائلتين .

وقال حسين فى ببطء :

- حاتلاقى الحاجه الى ضاعت منك ، حاتلاقى نفسك ، حاتلاقى
ليلى الحقيقيه ..

ولم تفهم ليلي مقصده فى بادىء الأمر ، ثم احمر وجهها وأدركت
لأول مرة انها تغيرت ، وأنها أصبحت أشبه بالجنّة الهامدة ، وأن حسين
أدرك هذه الحقيقة . وفرت الى العشة فى خطى مذعورة .

* * *

وعلى مائدة الغداء جلست ليلي فى مواجهة حسين والى يمينها
أمها والى يسارها محمود ، وكان أبوها غائبا فى القاهرة .

وأحنت ليلي رأسها على الطبق لتتجاشى نظرات حسين ، كانت
تخاف نظراته الفاحصة ، التى تنفذ الى أعماقها وتكشف عما فى هذه
الأعماق . وتخاف أن ترى اليأس فى عينيه ، اليأس منها .

ولكن حين التقت عينها بعينه مصادفة تبدد خوفها ، لم تجد
فى نظرة حسين يأسا ولا خوفا ، ولا كانت تفحصها ولا تمتحنها ،
كانت تربت عليها فى حنان ، وتضمها فى شوق واعتزاز ، وتتألق
فرحا ...

كان حسين يستوعب كل تفصيل من ملامح ليلي وكأنه يريد أن

يحفره في ذاكرته ، ويدخره في قلبه ، وكان هذا الاستيعاب يملؤه بالنشوة . انه يحب هذا الجانب من وجه ليلي الذي ينحدر في نعومة من الاذن الدقيقة الى الخد . ويحب الشفة العليا التي ينفرج احمرارها من الوسط عن مثلث صغير يعلو عن الشفة السفلى ، وكأنها تبتسم وهي لا تبتسم . ويحب العينين العسليتين الذكيتين الحساسيتين المعبرتين وكأنهما شاشة عدسة رقيقة الحساسية ، والجبين العريض الممتد في استواء وكبرياء ، والشعر القصير الناعم الفاحم السواد ، والبشرة العاجية المشربة باحمرار خفيف في الحدين ، البشرة الناعمة نعومة بشرة الطفل ، و . . .

انه يحب كل ملامحها ، كل على حده ، ولكنه يحب الوجه في مجموعه أكثر ، في الوجه في مجموعه جمال خارق ، جمال لا ينبع من جمال الملامح وحدها ، ولا من انسجامها كل من الآخر ، انه ينبع من . . . من أين ؟ من التناقض بين البراءة الناعمة التي تشبه براءة الاطفال ، وبين الجبين العريض ، والعينين اللتين تتأججان ذكاء ، ذكاء امرأة واعية حساسة ناضجة ؟ أم من التناقض بين الوجه الطفل والجسم الممتلئ الناضج ؟ أم من شعوره هو تجاهها ، من حبه لها ؟

ما من مرة رأى وجهها الا وأشرق في كيانه سكيانة حلوة تهدده ، وتسلمه الى اطمئنان حلو ، وتدفعه في حنو الى الامام . وكأنه فهم فجأة كل الاسرار التي استعصى عليه من قبل فهمها ، وكأنه وجد فجأة الحل لكل مشاكله ، وكأن أحلامه قد تجسمت فجأة فأصبحت حقائق ، وما عليه الا أن يمد يده ويمسك بها . فأى شيء يستحيل عليه لو أصبح كل يوم على وجهها ؟

ولكنه لن يصبح كل يوم على وجهها ، في الغد يرحل ، وهو لا يملك من الامر شيئاً ولا يستطيع له تغييرا ، لا يملك سوى أن ينظر اليها ويدخر صورتها في عقله وكيانه ، ويعيش على الذكرى سنوات في الغربة . يجب أن يكون وجهها آخر ما يراه حين تباعد الباخرة بينه وبين أرض الوطن ، آخر ما يراه في أرض الوطن . . رمزا لكل ما يحبه في الوطن .

ولمعت فكرة في عقل حسين ، في الغد حين يرحل ، يجب أن تودعه ليلي ، يعبر النيل في طريقه الى دميـاط ويقف في المركب ،

وتقف هي أمامه على الشاطئ يملأ كيانه من وجهها ويتخيل ...
يتخيل أنه راحل عن الوطن ليعود اليها ، للوطن .

ولكن كيف يقنعها بتوديعه ؟ ومتى ؟ وهل تستطيع أن تخرج
بمفردها لتوديعه ؟ هل تستطيع أن تتغلب على خوفها من نفسها ومنه
ومن الناس ؟

وسيطرت الفكرة على حسين ، وتضخمت أهميتها في نظره
لحظة بعد لحظة .

لو خرجت لتوديعه لكان معنى ذلك أنها خطت الخطوة الاولى
تجاهه . ولن يتركها قبل أن تخطو الخطوة الاولى .

وتركز كيان حسين في محاولة الانفراد بليلى ، ولم تسنح له
الفرصة الا عند غروب الشمس .

كان يتمشى مع محمود على شاطئ البحر حين لمحا ليلي وسناء
تقفان أمام الشاطئ ترقبان الغروب ، ليلي بوجه حزين ، وكأن
الشمس لن تشرق في الغد ، وسناء بوجه يتوهج ، وكأنها خزنت في
كيانها ما تبقى من أشعة الشمس الآفلة للغروب .

وانضم محمود وحسين الى ليلي وسناء ومضوا يمشون في
خطوات بطيئة على الشاطئ ، وجو أرجواني يلفهم ونسيم رطب يبعث
بالخدر الى أجسامهم .

وكانت ليلي تمشي بحذاء الشاطئ والى يسارها سناء ومحمود
فحسين . وانهمك محمود في حديث جانبي مع سناء ، وليلى وحسين
صامتان ، ليلي تصوب نظرها الى الامام وحسين يتململ في مشيته
ثم استدار حسين وغير مكانه بحيث أصبح يمشى بمحاذاة البحر
الى يمين ليلي .

واحمر وجه ليلي وسارت الى جانب حسين وذراعه تلمس كتفها
عفوا بين الحين والحين ، فترسل في كيانها رجفة كرجفة الكهرباء ،
رجفة ما تكاد تفيق منها حتى تنتظر بحلق جاف وقلب واجف أن تتجدد
من جديد . وبطرف عينها رأت وجه حسين مشدودا . وكأن شيئاً
ما يثقل عليه .

ولمحا حسين تنظر اليه بطرف عينها واحتك ذراعه بكتفها - عن قصد - هذه المرة ، وعيناه تذويبان في نظرة حنان ، وشفته السفلى تبرز بروزا خفيفا وكأنه يقبلها . واحمرت أذنا ليلى ، وتطلعت الى الامام . وابتسم حسين لنفسه ولانت ملامحه المشدودة .

وانخفضت نفمة الحديث الدائر بين محمود وسناء حتى أصبح حديثا هامسا ، واتسعت خطواتهما وكأنهما يسعيان بلا وعى الى الانفراد . ولاحظ حسين هذا التطور وبطؤت خطواته ، ان الفرصة تواتيه ولن يدعها تفلت منه . وليلى تأبى الا أن توسع خطواتها لتلحق بسناء ومحمود .

ومد حسين ذراعه وجذب ليلى الى الخلف في اتجاهه ، ووجهه يضحك وهو يقول هامسا :

- تعالى هنا ، انت رايحه فين ؟

ووقفت ليلى تجاهه مسسمة ، في دهشة من جرأته المتناهية ، ثم سعت الى تخليص يدها من قبضته . وشلها الخوف حين وجدت حسين يرفع يدها الى فمه ، ويقبل باطنها ، ومحمود وسناء على مبعدة خطوات منهما .

وأطلق حسين يد ليلى حين اطمأن الى ابتعاد سناء ومحمود .

وقالت ليلى وشفتاها ترتجفان :

- انت مجنون . افرض محمود . . .

ولم تستطع أن تكمل .

وقال حسين وهو يضحك :

- افرضي ، أنا با أحبك ، وفخور انى با أحبك ، ونفس محمود

يعرف ، والدنيا كلها تعرف انى با أحبك .

ثم غام وجهه ، وكاد يلتصق بها ، وهو يقول بصوت عميق

هامس مرتجف :

- بس مستنيك ، مستنيك أنت يا حبيبتي .

وأجرى حسين أصبعه على ذراع ليلي في لمسة خفيفة ، ورق صوته حتى أصبح كصوت الأطفال :

- وعارف أنك حاتحبينى ، ومسرك لى زى ما أنا لك .

وغص حلق ليلي ، وغامت عيناها تحت سحابة من الدموع .

وأخبرها حسين باقتراحه . وحاول أن يزيل مخاوفها ، فهما يستطيعان أن يتقابلا بعيدا ، عند المحافظة ، أمام النيل . وهى تستطيع أن تسبقه ، ويواتيها هو هناك بعد أن يتخلص من محمود . ولكنها كانت ما تزال تنظر اليه بعينين واسعتين خائفتين ، وكأنه يطلب اليها أن تقتل انسانا .

وقال حسين وقد تسرب اليأس الى صوته :

- مش حاتييجى ؟

ولم ترد ليلي .

واندفع حسين فى مشيته وهو ينظر الى الأمام .

واتسعت خطوات ليلي لتلحق به . ومدت يدا متخبطة كالعمياء ومست بأصبعها يد حسين ، وقالت بصوت مرتجف :

- الساعة كام ؟

وأمسك حسين بيدها فى يده ، ووجهه يتوهج ، واحتضنتها نظرتة فى اعزاز .

وسحبت ليلي يدها من يده . لمحت سناء ومحمود من بعيد وهما يستديران فى طريقهما الى حيث تقف هى وحسين .

* * *

تمددت ليلي فى السرير وهى تفكر . . شاب مثله ممتاز من كل الوجوه يريد أن يتزوجها هى ، وهو يعلم بكل تفصيل من تفصيلات علاقتها بعصام . .

وشعرت بموجة من الارتياح تسرى الى جسمها كالارتياح الذى تشعر به عندما ينتهى الطبيب من خلع ضرس مصاب ، أو عندما تغطى

جرحا ملتهبا فى جسمها بطبقة من المرهم المرطب • شعرت وكأن حسين قد رد اليها اعتبارها حين طلب اليها أن تتزوجه •

وتقلبت ليلى فى فراشها • • لا • • انه لا يريد أن يتزوجها ، انه يريد حبها أولا كشرط أساسى للزواج ، ويعلق الزواج على هذا الحب • كان يستطيع أن يعرض عليها الزواج الآن فى الحال ، ولكنه لم يفعل ، انه لا يريد جثة هامدة ، وهى جثة هامدة •

هو يريد حبها وهى لا تستطيع أن تحب ، تخاف من الحب ، وليس فى قلبها الا الكراهية ، الكراهية للدنيا ولعصام • • عصام الذى خدعها عصام الذى حطمها • • عصام الذى • •

وحاولت ليلى أن تنساق كماداتها فى التفكير الذى يتتالى عليها عادة طيعا ، متسلسلا ، صورة بعد صورة ، يحمل الى عينيهها الدموع والى قلبها موجة من الرثاء لحالها ، والاشفاق على نفسها ، ولكنها لم تستطع أن تستطرد فى هذا الاتجاه • كان مجرد تذكر اسم عصام يجعلها تغلى وتغص بالكراهية وتود لو استطاعت أن تحطم شيئا ، أما الآن فهو بعيد ، بعيد وكأنه لم يكن ، كأنها لم تعرفه كما عرفتة ، كأن لم يكن بينهما علاقة •

واكتشفت ليلى فجأة أن غضبها قد انفثا ، وأنها لم تعد تكره عصام ولاحظت أن جسمها لا يؤلمها على غير العادة ، وأن عضلاتها مرتخية غير مشدودة • وكأنما خرجت لتوها من حمام بخار امتص السموم التى كانت تسرى فى جسمها •

واستغرقت فى نوم هادى متصل لا تقطعه الأفكار السود ، ولا الاحلام ، ولكنها حرصت على أن تستيقظ مبكرة لتودع حسين •

* * *

وعندما خرجت من دورة المياه لم يكن أحد قد استيقظ فى العشة بعد ، وحتى لو استيقظ أحد ، لم يكن فيما تفعله شئ غريب ، فهى تستيقظ عادة كل يوم قبل أن يستيقظ أحد وتخرج مبكرة لتتمشى •

وخلعت ليلى قميص نومها ، ووقفت بملابسها الداخلية أمام المرآة تمشط شعرها القصير • ولحظت أن بشرتها قد جفت من تأثير الشمس

وقتحت علبة الكريم التى لم تمس من قبل ، ومالت فى اتجاه المرأة ويدها تدلك وجهها ..

وتوقفت يدها بفتة على خدها ، وازدادت اقترابا من المرأة . وتأملت الوجه الذى يطالعها ، الى العينين اللتين تلمعان كعينى قطة متوحشة فى الليل ، وإلى الشفتين اللتين تبرزان فى استدارة ، وقد دب اليهما الاحمرار ، وإلى الوجه الذى يتوهج بالدم ، وإلى الصدر الذى يرتفع وينخفض فى سرعة وفى عنف ، وكان نبضها قد ارتفع فجأة .

وتراجعت ليلى عن المرأة .. الى أين تذهب ؟ الى أى مصير تندفع بهاتين العينين المتوحشتين ، وهذا الصدر المتهدج ؟ الى الخراب .. قال أبوها .. الى الخراب ..

ومدت ليلى يدها تمسح حبات من العرق تجمعت على جبينها . وسارت بخطوات متلصصة الى السرير وكأنها تخشى أن يهاجمها أحد ، وعلى طرف السرير انهارت ..

وكانها لم تجرب ، وكانها لم تتعلم ، وكانها لم تقاس من الاندفاع ، من خلف ظهر أبيها تخرج ، ومن خلف ظهر محمود وأما . تخرج على الأصول لتقابل حسين . تخرج بقدميها وبمحض ارادتها لتسعى الى الألم وإلى الشعور بالضيق وبالهوان .

تمشى اليوم مع حسين ، ومن قبل حسين عصام ، وفى القد مع أى رجل ، أى رجل يهمس فى أذنيها بكلمات معسولة . وأناتها كلبة تتبع كل من يشير اليها .

ولكن حسين ؟! حسين مختلف ، حسين يحبها .. وعصام ألم يكن يحبها أيضا .. ؟!

الحب ! .. ألم تعان من هذه الخرافة ما فيه الكفاية ؟ ألم تكن سعيدة وهى مكتفية بذاتها ، لا يستطيع أحد أن يؤلمها أو يؤذيها ومع ذلك فهى تسعى اليوم الى النار بقدميها وكانها لم تجرب ، وكانها لم تتعلم وكانها لم تقاس ..

ومالت ليلى برأسها الى جانب تسمع خطوات تدب فى العشة .. لقد استيقظ محمود ، وحسين يستعد للخروج ..

وأحنت ليلي رأسها على رقبتها ، وكزت على شفتها .. فليذهب من حيث جاء ، ويتركها في حالها . لن تقنى نفسها في أحد ، لن تذل نفسها لأحد ، لن تضع رقبتها بين يدي أحد . ستظل كما هي سيدة نفسها ، مكتفية بذاتها ، لا يستطيع أحد أن يؤلمها أو يعذبها .

* * * *

ووصلت أصوات الى ليلي ، وبدأت تسمع من جديد .
كان محمود يصمم على اصطحاب حسين ، وحسين يحاول أن يتخلص ودوى صوت حسين منتصرا مزغردا وهو يفصل في المناقشة التي دارت بينهما :

- أنا عايز كده يا محمود ، عايز أطلع في الصبحيه الجميله دي لوحدي ..

وضاقت عينا ليلي ، انه منتصر ، متأكد أنها هناك تنتظره ، لقد أشار اليها وهو متأكد أنها ستتبعه .. ولكنها لن تكون هناك ، لن تتبعه ، لن ...

وسرت رجفة في جسد ليلي ، جاءها صوت حسين عميقا خفيضا ..
دافئا .. وهو يقول :

- حا توحشنى يا محمود ..

وقال محمود :

- انت طبعا حا تكتب لى بانتظام ..

- طبعا ..

ودارت ملعقة محمود في قدح الشاي ، والصمت يسود الصديقين ،
وقال محمود بصوت مرتجف :

- انت بالنسبة لى يا حسين أكثر من صديق ، انت الى خلتنى أطمئن ، وأفهم أن الدنيا بخير .

وصعد الدم الى رأس ليلي . وقفزت من مكانها واقفة .. يجب ، يجب أن تشكر حسين ، يجب أن تقول له : مع السلامه .

وقال حسين وهو يقف :

- أشوف وشك بخير يا محمود .

وجرت ليلى الى باب حجرتها ، ومدت يدها الى مقبض الباب المغلق
تفتحه . .

واكتشفت أنها لا تستطيع أن تخرج لحسين ، لا تستطيع أن تمد
يدها اليه وتصافحه ، لأنها غير مستعدة ، لأنها عارية بملابسها
الداخلية .

وسمعت ليلى محمود يصيح فى الفراندة ، وكأنه يضع كل كيانه
فى كلماته :

- مع السلامة ، مع السلامة يا حسين .

وانقبضت يد ليلى على مقبض الباب المغلق .

١٣

وفى الأيام التى تلت سفر حسين لم تشعر ليلى بشيء ، وكان
حواسها قد تخدرت . وكأنها فقدت القدرة على الحس . وكلما ذكرته
هزت كتفها بلا مبالاة ، وانصرفت الى شأن من شئون البيت ، أو الى
كتاب تطالعه . واستمرت على هذه الحال أسبوعين ، الى أن جاء
يوم كانت فيه ممتدة على مقعد طويل فى الفراندة ، تطالع الجريدة
الصباحية . وكان أخوها يقف الى جانب السور يتطلع الى البحر الممتد
تحت مرمى البصر .

وتمطى محمود واستدار يواجهها وهو يقول :

- يا بخت حسين ، زمانه دلوقت فى البحر .

ولم تقل ليلى شيئاً ، استقامت فى جلستها ، وأسقطت الجريدة من
يدها ، وقامت واقفة . وفقدت القدرة على الاستقرار فى مكان واحد أو
على شيء واحد . .

وصرخت فيها أمها :

- جرى لك ايه ؟

كانت تتحرك على المقعد كما لو كانت محمولة ، تعتدل في جلستها بمعدل مرتين في الدقيقة ، وتقوم لثجلس لتقوم من جديد . وتفتح الكتاب لتطويه في ملل بعد دقائق ، وتأكل في غير مواعيد الاكل ، وتشرب دون ظمأ ، لتجد شيئاً تفعله . وتخرج لتتمشى ، وما تكاد تخرج حتى تعود من جديد ، وتنزل الى البحر لتخرج منه بعد دقائق .

ووجدت دائماً سبباً تبرر به مسلكها ، هذا المقعد غير مريح وهذا الكتاب سخيف ، والشمس حارة ، والبحر قذر .

وقالت سناء :

- اذا كان البحر مش عاجبك نروح بكره الصبح الجربى .
وحبذ محمود الفكرة ، ووافقت ليلي .

* * *

وشق الشراع الهواء ، واندفعت المركب الى الأمام في اتجاه الجربى وبدأ محمود يتكلم ، وسناء تنصت اليه باهتمام ، وقد أسندت رأسها الى يدها ، ورفعت اليه عينيها .

ولم تحاول ليلي أن تنصت الى كلامهما ، كانت تتطلع الى ذلك الجانب من شارع النيل الذى تمر به المركب . . . السينما وعلى واجهتها لوحة كبيرة فيها امرأة عارية الصدر تبتسم فى بلاهة ، وصالات لفنادق متشابهة متكررة لا يجلس حول موائدها أحد ، وأحذية وصنادل وشباشب متراكمة ، وفترينات تلمع فى أشعة الشمس وهى تزخر بالحلويات الدمياطية . . . الهريسة ، والبسبوسة ، والمشبك . وأكشاك لبائعى الكوكاكولا والفول والطعمية وعلان يقول : قف . هنا سندوتش بطارخ .

كل شىء معد بعناية وكل شىء ينتظر ، ولا أحد يقف ، ولا أحد يشتري ، والمرأة فى اللوحة تبتسم فى بلاهة والسوق فى هذه الساعة من الصباح قد خلت من الناس ، بل حتى من الباعة ، وبدأت خاوية كمدينة مهجورة .

وقامت سناء الى مقلمة المركب ، وخلعت البرنس وتمددت على ظهرها وقد كشفت عن جسمها ، وغطت وجهها .

وتطلعت اليها ليلى . . لقد تمددت بنفس العناية المدروسة التي تتصف بها كل حركاتها ، وكأنها قد درست الزوايا التي تبرز جمال جسمها الصغير الأبيض المتناسق الملفوف . انها تدرك أن جسمها جميل وتحبه وتعتنى به وتدهنه بالزيت قبل أن تتعرض للشمس وبالكريم بعد أن تستحم . وتقيس وسطها كل يوم وتنزعج اذا زاد عن معدله . وتنصرف الى الألعاب الرياضية ، وتحرم نفسها من الطعام حتى يعود كما كان . وهى لا تخفى حقيقة اهتمامها بجسمها وعندما تسخر منها عديلة تبتسم فى اطمئنان وتقول :

- أنت ليه عايزانى انكسف من جسمى يا عديله ؟ . .

كما لو كان من الطبيعى ألا يخجل الانسان من جسمه ؟ . . !
وتمطت سناء وقالت دون أن تكشف عن وجهها :

- الجو جميل بشكل النهارده . .

وتطلعت ليلى الى محمود ، وهى تتوقع أن ترى عينيه مركبتين على جسم سناء ، ولكنه كان يلعب بيديه فى الماء وينظر وفى عينيه نظرة حاملة الى مجموعة من سفن الصيد المتراسة فوق الرمال .

واستدارت ليلى بدورها تتطلع الى السفن . . حطام سفن لا تستطيع أن تنزل الى الماء ، وفى الصحراء تقف وحيدة عاطلة مشلولة معزولة عن الماء . .

وتنهده محمود فى ارتياح وهو يستوعب منظر السفن فى ذاكرته ، وبدأت له وطلاؤها الأبيض يلتصق فى أشعة الشمس كطيور بيضاء ضخمة جميلة ، استرخت على الشاطئ تستريح ، لتعاود طيرانها من جديد . .

وقال محمود لسناء :

- شفت المراكب دى ؟ . .

وكشفت سناء وجهها ، وجلست ترقب المراكب فى حنان وكأنها تربت عليها بنظرتها .

وامتد شط الجربى تحت أنظارهم ، وقد ازدحم بالناس ، يسبح بعضهم فى النيل ويجلس البعض الآخر حول الموائد المتفرقة تحت مظلات واسعة ..

وقالت سناء والفرحة تتراقص فى عينيها :

- وصلنا ..

* * * *

واختار « الرئيس » بقعة هادئة نسبيا . وشد المركب الى وتد وأرسي السقالة . ولكن سناء قامت واقفة وقفزت من المركب الى الماء مباشرة ..

وقال محمود ليلي :

- ياللا بينا ..

ودون أن ينتظر جوابها قفز الى الماء .

وتحاشت ليلي رشاش الماء بيدها ، وبرزت سناء من الماء ، واستندت على طرف المركب بيديها .

- ياللا يا ليلي . دى الميه جميله جدا .

- مش دلوقت . بردانه ، بعدين ..

وانضم محمود الى سناء يتشبث بالمركب بدوره ، ومالت المركب فى اتجاههما ، وصرخت ليلي فى غيظ :

- حاسب يا محمود .. جرى ايه ..

وهز محمود كتفه واستدار وبدأ يعوم ، ولحقت به سناء .

كانا يعومان فى رفة متناهية ، وكأنما يخشيان أن يلطما الماء الذى يلفهما سويا فى راحة لذينة ، أشبه بالاسترخاء .

وقال محمود :

- أنا أقدر أعوم كده لبكره

وضحكت سناء ..

- عرفت ازاي ؟ .. أنا كنت با أفكر نفس الفكرة ..

كان شيئاً ما قد بدأ يسرى بينهما ، حين أتيحت لهما الفرصة ليتعرفا على بعضهما معرفة وطيدة في رأس البر . شيء هادئ ، لذيذ ، يتسلل ببطء شديد ، وينمو مع الأيام . شعور بالارتياح وبالانتماء وبال الحاجة المتبادلة . شيء أشبه بالظل لفهما سوياً ، ليس فيه حرقة ولا لوعة ولا أرق ولا حنين جارف مضمّن ..

كان محمود ينظر الى وجه سناء الصغير ، الى شففتيها الرقيقتين اللتين تطبقهما في اصرار ، والى أنفها الصغير الذي يرتفع طرفه الى أعلى في كبرياء ، والى عينيها الصغيرتين المستقرتين في اطمئنان ، والى شعرها العسلي الناعم المنسدل في خطوط مستقيمة ، ويشعر كما لو كان قد وصل بعد كفاح الى بر الأمان .

وكانت سناء ترى اللمعة في عينيها الخضراوين الحائرتين ، والبسمة المرتبكة على شفتيه الرقيقتين ، والكبرياء في نفة وجهه الحمري الوسيم وتود لو استطاعت أن تأخذه بين ذراعيها ، وتربت على شعره وتهنئه وتدلله حتى تطمئن العينان الحائرتان ، وحتى تتسع البسمة المرتبكة فتصبح ضحكة كبيرة منطلقة .

* * * *

وراقبتهم ليلي وهما يبتعدان ، وشعرت أن شيئاً ما يلفهما معا وينأى بها عنهما ، ويعزلها وحيدة ضائعة تائهة . وحاولت أن تناديهما وجمد النداء على فمها . وأطبقت جفنيها على عينيها ، وجلست منكشمة كما لو كانت تنتظر شيئاً تخشاه .. وطفا على السطح الشعور بالوحدة الذي كبتته طيلة الأسابيع الماضية ، جباراً عاتياً .

وأبقت ليلي عينيها مطبقتين كما لو كانت تخشى أن تفتحهما على صحراء جافة شاسعة ، وأصاب وجهها رشاش ماء ، وفتحت عينيها على وجه يرقص بفرحة الحياة ، وجه طفل يداعبها .

وأمسكت ليلي في غضب بالمجداف وانهاالت به على الطفل ، ولكن الطفل غاص تحت الماء وأفلت منها ، وهو يلوح لها بيده ، ويضحك ضحكة طليقة مجلجلة ، عمقت من شعورها بالوحدة والعزلة .

وكذلك الناس الذين يعج بهم الشاطئ ، كانوا بدورهم يعمقون من

شعورها بالوحدة ، هؤلاء الاطفال الذين يتسابقون فى السباحة ، وفى أعينهم نظرة خطيرة ظامئة وكأن مصيرهم معلق على هذا السباق . وهذه المرأة التى لا تستحي ، والتى أسندت رأسها الى حجر رجلها ، واسترخت فى نومتها ، فى اطمئنان وكأنها تنام فى مخدعها ، وكأن عيون المارة لا تأكلها . وهذه الفتاة التى تضحك ضحكات قصيرة بلهاء بلا توقف ، وكأنها فقدت السيطرة على نفسها ، أو كأن رفاقها الشبان يدغدغونها ..

وأفاقت ليلى على جسم مرن يرتطم برأسها ، ورأت كرة من المطاط تتطاير مرتدة الى الماء ، والصبى الشقى الذى عاكسها يستعيدوها وحوله زفة من الاطفال يهمسون ويضحكون عليها ، وكأنهم أدركوا بحاستهم أن شيئاً ما يفصلها عن بقية الآدميين الذين يعج بهم الشاطئ .
وغلى دم ليلى بالغضب وقالت :

- يا ريس ..

ولم يلتفت اليها المراكبى ، كان يجلس منصرفاً عنها وفى عينيه فرحة ساذجة وكأنه يشارك المصيفين لهوهم .

وعادت ليلى تقول فى لهجة أشد عنفا :

- أنت ..

والتفت اليها الريس مندهشاً

وقالت :

- حظ السقالة وانزل ..

- والمركب .. ؟

- حا اطلع بيها ..

- لوحذك .. ؟

وقالت ليلى فى حدة :

- أيوه لوحدى ..

★ ★ ★ ★

وجلست ليلى فى وسط المركب وقد تصلب جسدها وشدت

قبضتها على المجذافين ، وبدأت تلطم الماء ، لكمة بعد لكمة في سرعة وفي قوة ، بكل قوتها ، وبكل كيائها وكأنها في سباق .. وكأنها تهرب من خطر يلاحقها ..

وتعمقت ليلي في النيل بعيدا عن الناس .

وتوقفت تستجمع أنفاسها ، وحبأت العرق تلتصع على وجهها وتلفتت حولها ... ماء ولا شيء سوى الماء ، ماء من كل جانب يحيطها ويحاصرها يخنقها وكأنها استوعبته في كيائها وتسرب من فمها الى رئتيها .

وارتخت قبضتها على المجذافين .. الى أين تذهب ؟ الى أين تهرب ؟ .. وممن ؟ .. من الناس ! الوحدة معها وهي وحيدة ، والوحدة معها وهي مع الناس . الوحدة فيها هي ، في نفسها ، في أعماقها ، في دمها كالسرطان تنمو وتتضخم .

وانكفأت ليلي على وجهها وهي تحتضن المجذافين ..

حسين هو السبب .. نعم حسين هو المسئول ، قبل أن تعرفه كانت مكتفية بنفسها ومطمئنة ومرتاحة الى هذا الوضع . ورجته أن يتركها في حالها ، أن يبتعد عن طريقها ولكنه لم يبتعد .. وذهب وخلف لها وحدة تنهش في جسمها وشعورا بأن شيئا عزيزا ضاع منها شيئا لا تستطيع أن تعوضه .

قال حسين انها فقدت اللعان في عينيها والاشراق في وجهها ولكنها في الحقيقة فقدت أكثر من هذا ، أكثر من هذا بكثير ، فقدت المحبة ، محبة الناس والاطمئنان والاستقرار . ولم يتبق لها شيء سوى الوحدة والشعور بفداحة الخسارة .

لو لم يذهب ، لو بقي الى جانبها .. وهزت ليلي رأسها في يأس وما الفائدة ؟ كانت وحيدة وهو معها ، وهو يحدثها عن حبه ، مرة واحدة فقط اتصلت به ، اندمجت معه ، حين مر بيده على ذراعها وقال « أنا مستنيك يا حبيبتي ، طول عمري مستنيك » .

وحتى هذا الاندماج لم يدم ، وكأنه كان حلما . تغلب عليها الخوف . خافت من محمود ومن حسين ومن الدنيا كلها وأفاقت .. وأفاقت ليلي على المجذاف يفلت من يدها اليمنى ، وينزلق على

جدار المركب . . وانبعثت فيها كاللارد قوة جبارة ، قوة لا عهد لها بها ، قوة لم تكن تحلم بأن كيائها يحتويها ، قوة جعلتها تتحدى النيل وكأنه ند لها ، وكأنهما قوتان متساويتان يتصارعان . فى لحظة واحدة كانت قد شددت بقبضتها اليسرى على المجدف ، ومالت بكل جسمها الى جانبها الايمن لتنتشل الآخر . وانحرف المركب أثر ميلها المفاجئ وارفع الماء تدريجيا يقارب حافته ، وهى تحاول انتشال المجدف وتساوى سطح الماء مع جدار المركب . . واعتدلت ليلى والمجدف فى يدها . وتنهدت فى ارتياح وارتخت فى جلستها . وأحست اذ ذاك فقط برعدة الخوف ترتجف فى جسمها .

واستدارت بالمركب عائدة ، وهى تجدف فى ببطء واتزان ، والتيار يدفعها الى الامام . وسرح نظرها فى الأفق البعيد وهى تفكر فى التجربة الأخيرة التى مرت بها . . من أين جاءتها هذه القدرة على التصرف ؟ على العمل فى حزم وفى قوة وفى سرعة وبلا تردد ؟ من أين ؟

وهزت ليلى رأسها فى تعجب وهى لا تكاد تصدق أنها واجهت الموقف بهذه الشجاعة . إنها ترتبك عادة أمام أتفه الأمور وتفقد القدرة على التفكير وعلى العمل وتغطى وجهها بيدها وتستسلم لمصيرها ، فكيف تصرفت والائزمة تواجهها كما يجب أن تتصرف تماما ؟ بكل سرعة وبكل دقة وبكل قوة ؟ . . وكأن التى تصرفت ليست هى وكأنها انسانية أخرى ؟ . . انسانية أخرى ؟! انسانية أقوى ترقد فى أعماقها !

وقال محمود :

— جرى ايه يا ليلى ؟ احنا قلقنا عليك خالص . .

كان قد سبىح هو وسناء فى اتجاهها حين لمحها تتجه بالمركب الى الشاطئ . وهزت ليلى رأسها وكأنها تصحو من حلم حين رأت نظرة اللوم تعقب نظرة القلق فى عينى محمود .

وقال محمود وقد جمد وجهه والمركب تعود بهم الى رأس البر :

— انت مش حاتبطلي التصرفات الغلط دى ؟! كان ممكن تغرقى وانت لوحده كده . .

وسرت رجفة الى جسم ليلى ، وأشاحت بوجهها بعيدا ، وقالت وهى تهمس وكأنها تخاطب نفسها :

— كنت فعلا حا أغرق . .

التحقت ليلي وسناء وعديلة بقسم الفلسفة بكلية الآداب
بجامعة القاهرة . .

ومنذ اليوم الأول لافتتاح الدراسة تكتلن وظهرن كشلة متميزة
لا تكاد تفترق في الكلية . تختلط مع الطلبة والطالبات في حدود
مرسومة ، لتبقى دائما شلة محدودة المعالم .

وإذا أراد طالب أن يتقرب من واحدة من الشلة ، فعليه أن يتقرب
إلى الشلة مجتمعة ، وإذا استثقلت دمه واحدة منهن فعليه أن ينسحب .
وإذا رغب أن يتحدث إلى واحدة منهن ، فعليه أن يقول ما يريد أن يقول
أمام الشلة مجتمعة والا فلا . إذ لا أسرار هناك بين أفراد الشلة . وإذا
دعيت واحدة إلى حفل أو نشاط اجتماعي دون الأخريات فلا تذهب
لأن الشلة شلة . .

وعامل الطلبة والطالبات الشلة كشلة . الشلة تحب هذا
وتكره ذلك ، الشلة تفعل هذا ، ولا تفعل ذلك ، وكأنهن إنسان واحد
لا ثلاث بنات كبار ، لكل منهن شخصيتها المنفردة المتميزة ، ولكل منهن
عالم تكشف منه ما ترتئي ، وتحجب منه ما ترتئي . .

* * * *

وكانت عديلة أطولهن . عريضة البنيان بلا امتلاء ، بيضاء ذات
عينين سوداوين كبيرتين ، تغطيها أهـداب سوداء سخية . قوية
الشخصية ، بحيث يدرك من يراها قوة شخصيتها للوهلة الأولى
متكلمة قوية الحجة ، لا تترك إنسانا دون أن تقلده تقليدا يثير الضحك
من الأعماق . ولا يفوتها ظل من ظلال الفكاهة في أي سلوك إنساني أو
أي وضع اجتماعي ، دون أن تلتقطه وتبلوره وتجعله مصدرا من مصادر
الضحك بين الشلة لمدة سنين .

وكانت واقعية أيضا وعملية بشكل جعل سناء تقول إنه يكفي أن
تلمس عديلة أروع قصيدة شعر لتستحيل القصيدة إلى مسألة حساب .
ولم تكن ترغب في الالتحاق بقسم فلسفة ، كانت تريد أن تلتحق

بقسم (يأكل عيش) كما تقول ولكن المجموع لم يترك لها فرصة الاختيار .

وكانت هي التي تشرح ما يستحب وما لا يستحب للشلة ، وما يصح وما لا يصح . وهي التي تختار وتستبعد المعارف ، وتحافظ على سمعة الشلة ، وتجعل من حياتها في الكلية وخارج الكلية ضحكة متصلة .. !

ولكن ضحكة عذيلة لم تكن تخلو من مرارة ، واتجاهها العمل لم يكن سوى ضرورة أوجبتها عليها الظروف ، وتحت هذا المظهر الصلب الصلد ، العدوانى أحيانا ، كان يخفق قلب يحن الى الحب كقلب كل فتاة ، ولكنها كانت تخفى هذه الحقيقة في عناد .

كانت تقول ان الحب وسيلة المترفين لتضييع الوقت ، وان ليس لديها وقت تضيعه . كان عليها أن تساعد أمها في شئون البيت وأن تعمل لتتخرج سريعا ، ولتشتغل ولتكسب مالا تسد به ديون أمها الأرملة ، وتساعد به أخوتها الذين يصغرونها سنا .

والحياة ليست حلما ورديا ولا قصة غرامية ، الحياة حقيقة عارية أفواه مفتوحة تطلب الغذاء والكساء والتعليم ، ومعاش ضئيل لا يزيد على سبعة جنيهاً ، وأب مات فجأة بعد أن فقد وأفقد الأم كل ما كانا يملكان من مال ، ومستوى اجتماعى يجب الاحتفاظ به حتى لا يشمت الأقرباء والأعداء ..

* * * *

وكانت سناء مختلفة عن عذيلة ، وكأنهما تقفان على طرفى نقيض ! كانت تحب الشعر والموسيقى والأدب والتحف الفنية الجميلة ، وكل ما هو جميل .. وكانت تهتم بمقاييس جسمها ، وبتجميله وبالطريقة التي تلبس بها ، وتقضى وقتا طويلا في اختيار كل ثوب من أثوابها ، وتضفى عليه طابعا منفردا يميزه ، بالطريقة التي تربط بها الحزام ، أو بالوردة التي تحليه ، أو (بالإشارب) الرقيق الذى تربطه حول رقبتها ، وتترك طرفيه القصيرين يتطايران على كتفيها فى الهواء .. ولم تكن تبخل على نفسها بشيء ، كانت تحب الأشياء الصغيرة

الجميلة ، كيس النقود الذهبى الصغير كشبكة الصياد ، وساعة على شكل أيقونة تتدلى من عنقها ، وعطر جميل تنبعث رائحته من منديلها .

وكانت متيسرة بالنسبة لعديلة وليلى ، وساعدها ذلك على احاطة نفسها بإطار من الجمال الذى تحبه ، والذى أفلحت فى الاحتفاظ به حتى بعد أن تغيرت حالتها المالية .

وكانت تحب الخيال أيضا ، وتستعين به اذا لم يسعفها الواقع وتعيش فيه ساعات طويلة ، وتحب الحب . .

وقبل أن تحب محمود ، أحبت روبرت تايلور وهى فى الرابعة عشرة من عمرها ، وحفرت الحرف الأول من اسمه على ظهر يدها بالموسى وتركت الدم ينبع دون أن تقر به ، حتى يستقيم حرف الراء حين يجف الجرح . وكلما زال أثر الجرح ، جرحت نفسها من جديد .

وكانت قليلة الكلام ، تنصت أكثر مما تتكلم ، ويبدو وجهها الأبيض الصغير هادئا ، ونادرا ما يعكس الانفعالات العنيفة التى يضطرم بها جسمها الصغير الممتلئ .

وكان الناس يحسبونها خجولا ، ولكنها كانت فى الحقيقة معتزة بنفسها . ولم يكن ذلك الاعتزاز كبرياء ولا تعاليا ، وانما كان شعورا هادئا مطمئنا ، ينبعث من ايمان مطلق بصحة تصرفاتها . وكانت تنساق لعديلة ولليلى فى الامور الصغيرة بلا مناقشة ، مما جعلهما يعتقدان أنها سهلة القيادة . ولكن هذا الانسياق لم يكن فى الحقيقة ضعفا ، كان كرما ينبعث من رغبة أكيدة فى ارضاء من تحب .

ولم تكن عديلة تظن ولا ليلي أن هذه الفتاة الصغيرة الرقيقة الشفتين السهلة القيادة ، التى تعيش فى الخيال ، تطوى ضلوعها على عزيمة جبارة وعلى قدرة عملية ، لا تقل عن قدرة عديلة .

كانت تعرف ماذا تريد وكيف تصل الى ما تريد وكيف تحتفظ به

* * * *

وعندما توطدت علاقة سناء بمحمود فى رأس البر ، اكتشفت أنها لا تستطيع أن تعيش من غيره ، قبل أن يكتشف محمود هذه الحقيقة بشهور . .

وكانت العلاقة التي قامت بينهما مختلفة عن الحب الذي تصورته دائما ، الحب المصحوب بالحرقه واللوعة والغيرة والشك والارقي ، الحب الذي عرفته عن طريق روايات السينما وروايات الغرام . كانت شيئا هادئا حلوا نمي نموا مطردا وفصلها عن الخيال ، وربطها بالأرض ، وجعلها تشعر لأول مرة في حياتها ، أنها تسير على أرض صلبة وجميلة في ذات الوقت . .

وعلى هذه الأرض انتوت أن تعيش طوال حياتها .

وعندما عادا الى القاهرة كانت تراه في البيت حين تزور ليلي وتنفرد به أحيانا حين تعتمد ليلي تركهما معا . ولم تقتنع سناء بهذه المقابلات العابرة ، واقترحت أن يتقابلا في الخارج . وبدأت الدهشة على وجه محمود لحظة ، وقال شيئا عن سمعتها ، وضرورة صيانتها .

وركزت هي عينيها الصغيرتين في عينيه وقالت :

- أنت عايز تقابلني ولا لا ؟ . .

- طبعا عايز . .

- خلاص . .

وكانت تعنى ما تقول ، فمنذ أن بدأت تحب محمود لم يعد هناك شيء له قيمة سوى محمود . وكأنها لم تعد ترى الا من زاوية واحدة الزاوية التي تصلها بمحمود . وأصبحت أفكار محمود أفكارها وانفعالات محمود انفعالاتها ومشاريع محمود مشاريعها .

وبدءا يتقابلان بانتظام في صالة فندق المتروبوليتان . ويجلسان في ركنهما المختار في الضوء الخافت . ويتكلم هو أغلب الوقت ، وتنصت هي أغلب الوقت ، وهي تحتضن بعينيها انهادتتين كلامه .

ونمت يوما بعد يوم في كيانه حتى أدرك يوما أن لا غنى له عنها . وكانت تعرف طوال الوقت أن ذلك اليوم آت ، ولكن حين أتى ، ارتجف في أعماقها حب جديد ، فوق الحب القديم ، حب أشبه بذلك الذي يعمر قلب الشهيد . وقالت لمحمود :

-- عارف يا محمود ؟ أنا نفسي أعمل حاجة تثبت لك قد أيه أنا

يا أحبك . نفسي أموت نفسي عشانك . .

وأمسك محمود بيدها فى حنان وقال :

- أنا عايزك تعيشى عشائى يا سناء ، أنا من غيرك ما أساويش حاجة ..

وكان هو يعنى ما يقول . كان يشعر وهى معه أنه قوى ، وأنه قدير وممتاز ووسيم ، وأن الدنيا من حوله مليئة بالحب ، وبالاخلاص والتضحية والجمال . وأن القيود التى كانت تربطه بالأرض وبالخوف وبالشك وبالحيرة وبالقلق ، قد انحلت فجأة ، وأنه يستطيع أخيرا أن ينطلق ، وأن يطير لو اقتضى الامر .

وتتطلع اليه سناء وترى العينين الحائرتين وقد استقرتا . والتمعتا بالثقة الباسمة . وتحتضن بعينيها عينيه ، وأحلامه والفرحة التى تضطرم فى قلبه . وتطوى عليها جوانحها وتعيش بها ولها وفيها ، فى عالم أخفته عن عديلة ولا تعرف عنه ليلي الا القليل .

فليلي لا تعرف أنهما يتقابلان فى الخارج ولا تعرف أنهما يحلمان بمستقبل يجمعهما . ولا تعرف أنهما يناقشان فعلا التفصيلات العملية

وكان من المفروض أن تخبر سناء ليلي بكل هذه التفصيلات ، ولكنها لم تخبرها ، توقف الكلام على شفقتها فى كل مرة همت فيها بفتح الموضوع لليلي ، كانت تشعر شعورا غامضا أن ليلي لن تفرح لفرحتها ، ولن تنفعل لانفعالتها ، ولن تحلم معها كشأنهما دائما . كانت تدرك أن شيئا ما قد فصل ليلي عنها ، وجعلها أقرب الى عديلة منها اليها ، على عكس ما كان عليه الحال دائما ..

* * * *

كانت ليلي دائما أقرب الى سناء منها الى عديلة ، وفى داخل نطاق الشلة كانتا تكونان وحدة حقيقية ، وحدة يغذيها تقارب فى المزاج وفى المشاعر وفى الذوق ، وفى مفهومات الحياة . ثم حدث تطور بعد تجربة ليلي مع عصام . نأت ليلي عن سناء ، وانجذبت بكليتها الى عديلة . وقالت :

- عارفه يا سناء ، عديله أعقل واحدة فى الشلة بتاعتنا ، لو كنت سمعت كلامها ، ما كانش حصل الى حصل ، كانت دايم تقولى ما تندلقيش . واندلقت زى الرطل ..

وفى واقعية عديدة الباردة وجدت ليلي العزاء ، ومع عديدة بدت لها الحياة سهلة بلا تعقيد ، ولا أوهام ولا آلام ، وكأنها مسألة حساب يتبع الانسان قواعدها ، فيصل الى الحل الذى لا يختلف عليه اثنان . والمهم أن يتبع الانسان هذه القواعد خطوة فخطوة ، فى دقة وفى تعقل وفى حرص ، وبعد تفكير ، ودون اندفاع ، والا غشت بصيرته واختلطت عليه الأرقام ، وتشابكت وتعقدت ، وأصاب انسان حيرة لا مخرج له منها . .

والقواعد مرسومة معروفة تعرفها عديدة ، ويعرفها كل الناس . ومن يعرفها يعرف الفرق بين الخطأ والصواب ، ومن يتبعها يسير فى طريق الصواب ، حيث الاستقرار والاطمئنان ، وراحة البال ، والاحترام والثقة بأن الانسان على صواب ، لا صوابه هو فحسب ، بل صواب الآخرين ، كل الآخرين .

واذ ذاك لن يكون الانسان وحيدا ضعيفا . لن يواجه الحياة وحيدا ضعيفا ، بل مع الآخرين ، يسندونه فى كل خطوة يخطوها ويؤيدونه ويحمونه ، ما دام يتبع القواعد ، قواعدهم .

وعلى هذه الأرض الصلبة الى جانب عديدة وقفت ليلي بعد تجربتها مع عصام ، وفى نطاق القواعد المرسومة ، عاشت تتحصن ضد الحياة التى تخشاها ، وتكبت منابع الاندفاع والانطلاق فى طبيعتها ، وتواجه الحياة بوجه بارد وقلب بارد ، واحساس بارد ، وتصرفات محسوبة معدودة ، وبراحة نفسية مبنية على شعورها بأنها على صواب ، وبأنها مكثفة بذاتها ، وان انسانا ما لا يستطيع أن يؤذيها ، أو يؤلمها .

ثم مر حسين بحياتها . ومسها تيار الحياة دافقا دافئا فوارا مثيرا مليئا بانفعالات حية ، لا يكاد يحلم بها من يتمسكون بالقواعد ويجيدون الحساب .

ووقفت ليلي على الشاطئ ترقب تيار الحياة وهو يتدفق . وشىء فى قلبها يثور ويتمرد ، يريد أن يصل ما بينها وبين تيار الحياة . وشىء فى عقلها يشدها الى الوراء ، ويطوقها ، ويحبسها على الشاطئ .

بقيت على الشاطئ ، ولكن تيار الحياة عمق من شعورها بالوحدة والعزلة ..

واشتد ارتباط ليلي بعديلة وكأنها تستمد من هذا الارتباط ، القدرة على الوقوف على قدميها • وازداد تباعدها عن سناء •

كانت عديلة تقف على أرض تستطيع ليلي أن تلمسها ، وأن تطمئن اليها ، وكانت سناء تحلق في أجواء ، تخشى ليلي من مجرد التطلع اليها •

وفي عقل ليلي ارتبط حسين بهذه الأجواء ، فهو يقف هناك عاليا ينتظر ، ينتظرها هي ، وهي لا تستطيع ، ولا ترغب في أن ترتفع اليه حيث ينتظر • حيث يعيش الانسان في حمى مستمرة ، حيث لا يعرف أين يقف ، حيث يرى الاشياء على غير حقيقتها ، ويشعر بقوة ليست له وبجمال ليس فيه ، وبسعادة أكبر مما يتحملها كيانه • وحيث يرتبط بالسماء بخيط رفيع ، ينقطع فجأة ، ويسقط الانسان على الأرض .. حطام انسان ..

واستطاعت ليلي أن تخفي حقيقة حبها لحسين حتى عن نفسها ، وأن تكبت حنينها له ، أولا بأول •

وترسب الحنين طبقات فوق طبقات ، وكمن في الأعماق مع رغبتها الدافقة في الحياة ، وفي الانطلاق •

وعلى السطح طفت الخديعة التي عاشتها ليلي في هذه المرحلة •

* * * *

نظرت ليلي الى ساعة الجامعة ، وهي تدخل من الباب الخارجي • ودقت الساعة معلنة العاشرة الا الربع • واتجهت ليلي الى المبنى الرئيسي بكلية الآداب ، وترددت قليلا وهي تصعد في السلم الى الدور الثاني • ليس من اللياقة أن يراها المحاضر ، وأن يدرك أنها كانت في الكلية ولم تحضر محاضراته • ولكن كيف يدرك غيابها وفي المحاضرة عدد ضخم من الطلبة والطالبات ؟••

وزيادة في الاحتراس توقفت ليلي على مبعدة من إحدى الحجرات ووقفت تنتظر خروج سناء وعديلة •

وانفتح باب الحجرة ، وتزاحم الطلبة والطالبات في الخروج ،

وضحكت فتاة صغيرة سمراء واسعة العينين ، كالقطة ، وقالت لزميلتها

- شفتى سوزى ، كانت عاملة فى نفسها ايه ؟

- ما خدتش بالى ..

- كاشفه نصف صدرها ، ومغرقه نفسها برفان ، ومسبله عينيها

للاستاذ طول المحاضره .

وقالت صديقتها ، وهى مغرقة فى الضحك :

- وأظن صاحبنا ولا هو هنا ، ان الجبل اتحرك ، يبقى يتحرك هو

ولكزتها الفتاة الصغيرة فى ذراعها منبهة ..

وانشق موج الطلبة المتدافع ، وظهر الدكتور فؤاد رمزى خارجا

وهو يمشى فى خطوات بطيئة متزنة ، تتبعه سوزى برائحها العبقة

وفريق من الطلبة والطالبات .

ومشى الدكتور رمزى وقامته الطويلة منتصبه ، ووجهه الأبيض

الشاحب البياض الوسيم ، خال من التعبير ، وعيناه البساردتان

مصوبتان الى الامام ، وكأن هؤلاء الطلبة والطالبات لا يتبعونه ، وكأنهم

لا يحادثونه ، وكأنه لا يسمع ما يقولون .

وبدا لليلى كما لو كان يمشى فى طريق خال ليس فيه غيره ، كما

لو كان قد اختفى خلف صندوق زجاجى ، يعزله عن الآخرين .

واقترب الدكتور رمزى الى حيث تقف ليلى . ولم تدر كيف رآها

وعيناه مصوبتان هكذا الى الامام ، ولكنه رآها . وطافت عيناه حولها

ثم استقرت عليها ، وكأنها تعاينها ، وكأنها تزنها ، بلا رغبة وبلا

فضول ، وببطء وبناية ، كما يعاين الانسان قطعة نقود فى يده

ليتأكد أنها ليست مزيفة . وانزاحت العينان ، وتنفست ليلى فى ارتياح

ولكن الدكتور رمزى توقف أمامها وقال وهو يصوب نظره الى

الامام وكأنه لا يراها :

- كنت فىن يا آنسه ؟

واحمر وجه ليلى والدكتور رمزى يواجهها ، والطلبة من خلفه

يتطلعون اليها في سرور وفي فضول ، وكأنها فأر وقع في المصيدة
وتمالكت نفسها ، وقالت في صوت ضعيف :

- جيت متأخرة ..

- وبعدين .. ؟!

وأدركت ليلي أنه يسألها هذا السؤال ليحرجها ، وليصل الى مرحلة
التقريع والتأنيب ، ولم تقل شيئا .

- تانى مرة ابقى نظمى مواعيدك . الى عايز يتعلم ، ضرورى
ينظم مواعيده ..

قال الاستاذ هذه الكلمات دون أن ينظر اليها ، وبصوت بارد
وكانه يؤكد لها وثلاثين ، أنه فى حقيقة الأمر لا يهتم بها فى كثير
ولا فى قليل ، سواء نظمت مواعيدها أم لم تنظمها ، انحرقت بنار أو
لم تنحرق . وأعقبت النصيحة الغالية ضحكة من طالب ، انصرف
الاستاذ على أثرها ، وترك ليلي والعرق يبلل جبينها .

ودارت عينا ليلي تبحث بلا جدوى عن عذيلة وسناء . والتقت عيناها
بعيني الطالب الذى ضحك ، عيني وقحتين جريئتين ، يعمقان من
شعورها بالوحدة .

وتركت ليلي المكان وهى تكاد تهزول .

* * * *

وانحرفت ليلي الى حجرة الطالبات ، ودفعت الباب ، وانهارت على
أقرب مفعد . وألقت حقيبتها على الأرض بجانبها واحتفظت بذكراتها
فى حجرها . وبدأت تنظر الى الموجودات بطرف عينا ، وكأنها تخشى
أن ترفع رأسها .

على المائدة وسط الحجرة جلست طالبة تنقل محاضرة من مذكرات
مفتوحة أمامها ، والى يمينها جلست أخرى تلمع حذاءها بقطعة من
الصوف ، وفى مواجهتها واحدة تشرب الشاي فى قرف شديد ، وكأنها
قد وجدت فيه عقربا ، وأمام المرأة وقفت زميلتها نوال أو - النحلة -
كما يسميها طلبة سنة أولى فى قسم الفلسفة ، وقفت تسوى حاجبها
الرفيع بطرف المشط .

والتقت عينا ليلي بعيني نوال في المرأة ، وأشاحت ليلي بوجهها
بعيدا ..

كانت عذيلة قد قررت أن سمعة نوال بطالة في الكلية ، وأن
الاختلاط بها يسئ الى سمعة الشلة ، ومن يومها تجنبتها ليلي ، الا في
حدود تبادل التحية ..

ونقلت نوال المشط الى الحاجب الآخر وهي تسويه .

- صباح الخير ..

ولم تستطع ليلي وهي ترد على تحية نوال ، أن تتغلب على الضيق
الذي كانت تشعر به اذ ذاك .

ولحظت نوال هذا الضيق ، وحسبته موجها اليها ، ورفعت حاجبيها
في استنكار ، ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة ، واستدارت لليلي :

- لك جواب في اللوحة .

وقالت ليلي في تعجب واضطراب :

- جواب ! .. لي أنا .. ؟

واتسعت ابتسامة نوال ، وضاحت عيناها في نظرة خبيثة :

- جواب .. أهو ..

وأشارت بيدها الى لوحة الخطابات ، وعادت تواجه المرأة تسوى
الثوب على جسدها الصغير ، وتشد الحزام على خصرها الدقيق دقة غير
عادية ..

ووقفت ليلي أمام اللوحة . وأدركت من الطابع الأجنبي أن الخطاب
من حسين .

ومدت يدا مرتجفة وأخذته ، ودسته في مذكراتها ، واندفعت تجاه
الباب .

ونادتها نوال وهي تتثنى ، وتمط في مخارج ألفاظها :
- ليلي .

وتوقفت ليلي على عتبة الباب مسمرة ، وكأن أحدا ضبطها وهي تسرق شيئا • ثم استدارت ببطء ورأت كوب الشاي وقد توقف عند فم صاحبته ، والفتاة التي تلمع حذاءها ، وقد ارتفعت في جلستها ، ووضعت ساقا على ساق ، وكأنها مقبلة على مشاهدة موقف مسل ، ونوال وقد وضعت يدها في خصرها ، وفي عينيها نفس النظرة الحبيثة •• تقول :

- شنطتك ، نسيقي شنطتك •

وانحنى ليلي لتتناول حقيبتها الموضوعة على الأرض • وأطالت في انحناءتها ، وهي تحاول أن تخفي اضطرابها ، ثم استقامت ، وخرجت من الغرفة وهي تكاد تهزول •

واستوقفتها طالبة في المر ، وقالت لها شيئا ، لم تفهم منه الا كلمة « عذيلة » ، وتمتمت هي بشيء ما ، لم تدرك ما هو واستمرت في اندفاعها •

★ ★ ★ ★

لمحت ليلي حجرة دراسية خالية ، ودخلتها واختارت مكانا في آخرها ، وجلست ، فتحت الخطاب بيد مرتجفة •••

عزيزتي ليلي ••

لم أكن أريد أن أستعمل كلمة « عزيزتي » بل أردت أن أستعمل كلمة أخرى ، كلمة أقرب الى الحقيقة والى شعوري نحوي ولكنني خفت أن أخيفك وأنا أعرف أن من السهل اخافتك • من السهل بشكل مؤلم ، مؤلم لي على الأقل •

وهذا أيضا هو سبب ترددي في الكتابة اليك ولكن حنيني الجارف الى الوطن لم يترك لي الاختيار فقد أصبحت أنت رمزا لكل ما أحبه في وطني وعندما أفكر في مصر أفكر فيك وعندما أحن الى مصر أحن اليك وبصراحة أنا لا أنقطع عن الحنين الى مصر •

أكاد أراك تبترسين ، فأنت لا تصدقينني • أليس كذلك ؟ أنت لا تثقين بي ، أنت تقيمين بيني وبينك المواجهز ، أنت لا تريدين أن تنطلقى وأن تتركى نفسك على سجيتها ، لأنك تخشين أن تتعلقى

بى ، أن تفنى كيائك فى كيانى ، أن تستمدى ثقتك فى نفسك وفى الحياة منى ، ثم تكتشفى كيائك مدلوقا - كالقهوة - فى غرقتى .

وأنا أحبك وأريد منك أن تحبينى ، ولسكنى لا أريد منك أن تفنى كيائك فى كيانى ، ولا فى كيان أى انسان . ولا أريد لك أن تستمدى ثقتك فى نفسك وفى الحياة ، منى أو من أى انسان . أريد لك كيائك الخاص المستقل ، والثقة التى تنبعث من النفس لا من الآخرين .

واذ ذاك - عندما يتحقق لك هذا - لن يستطيع أحد أن يخطمك لا أنا ولا أى مخلوق . إذ ذاك فقط ، تستطيعين أن تلطمى من يلممك وتستأنفى المسير . واذ ذاك فقط تستطيعين أن تربطى كيائك بكيان الآخرين ، فيزدهر كيائك وينمو ويتجدد ، واذ ذاك فقط تحققين السعادة فأنت تعيش يا حبيبتي ، وقد حاولت ، ولم تستطعى ، أن تخفى عنى تعاستك . .

لقد انحبست فى الدائرة التى ينجس فيها أغلب أفراد طبقتنا ، دائرة الانا ، دائرة التوجس والركود ، دائرة الأصول ، نفس الأصول التى جعلت عصام يخونك ، وجعلت محمود يشعر بالعزلة فى معركة القناة . وجعلت طبقتنا ، كطبقة ، تقف طويلا موقف المتفرج من الحركة الوطنية ، نفس الأصول التى تكرهينها وأكرهها ، ويكرهها كل من يتطلع الى مستقبل أفضل لشعبنا ووطننا .

وفى دائرة الانا ، عشت تعيش ، لأنك فى أعماقك تؤمنين بالتححرر ، بالانطلاق ، بالفناء فى المجموع ، بالحب ، بالحياة الحسبة المتجددة .

عشت تعيش لأن تيار الحياة فىك لم يمت بل بقى حيا يضارع من أجل الانطلاق .

فلا تنحبسى فى الدائرة الضيقة ، انها ستضيق عليك حتى تخنقك أو تحولك الى مخلوقة بليدة معدومة الحس والتفكير . .

انطلقى يا حبيبتي ، صلى كيائك بالآخرين ، بالملايين من الآخرين ، بالارض الطيبة أرضنا ، وبالشعب الطيب شعبنا .

وستجدين حبا ، أكبر منى ومنك ، حبا كبيرا ، حبا جميلا . . حبا لا يستطيع أحد أن يسلبك اياه ، حبا تجددين دائما صداه يتردد فى

الأذن ، وينعكس في القلب ، ويكبر به الإنسان ويشتهد : حب الوطن
وحب الشعب ..

فانطلقى يا حبيبتي ، افتحى الباب عريضا على مصراعيه ، واتركيه
مفتوحا ..

وفى الطريق المفتوح ستجديننى يا حبيبتي ، أنتظرك ، لائى أثق
بك ، وأثق فى قدرتك على الانطلاق ، ولائى لا أملك سوى الانتظار
.. انتظارك ..

حسين عامر

ملحوظة : -

أردت أن أكتب خطابا خفيفا ، ولكنى وجدت نفسى أتفلسف بالرغم
منى ، (وهذه نقيصة أخرى من نقائصى يمكن أن تضيفها الى القائمة)
ولكن أنت أيضا تحبين الفلسفة وتحبين .. تحبين كل الأشياء
التي أحبها ..

صدقينى يا ليلي لقد خلقنا لبعضنا .

وتناوبت مشاعر من الحنان والحزن على وجه ليلي ، وهى تقرأ الخطاب
.. وعندما فرغت منه ، مالت بنصفها الألى وقد حدت النظر الى الأمام .
وأشرق وجهها وكأنها ترى رؤيا جميلة ، رؤيا بعيدة التصديق ..
رأت نفسها تمشى بخطى جبارة الى باب مغلق فتدفعه . وتقف على أقدامها
على عتبة الباب تتلقى أشعة النور تغمرها وتلفها ، وتتلفت لفتة أخيرة
الى الغرفة المظلمة التى انحبست فيها ، فاذا بالنور قد أضاء جوانبها
وتسير الى الأمام ، لا يخيفها انسان ولا يهينها انسان ، تلطم من يلطمها
وتستأنف المسير .. !

ودقت ساعة الجامعة ، وانتصبت ليلي واقفة ، وكأنها تيقظت لتوها
من النوم ، وطوت الخطاب ، وخرجت من الغرفة . ونزلت من على السلم
الحلقى ، بخطى متباطئة .

وفى نهاية السلم كادت تصطدم بعديلة .

واجهت عديلة ليلي بوجه جامد ، وبشفتين مطبقتين • وجرتها من
يدها حتى انتحيتا ركنا خاليا تحت السلم ، وقالت :

— جواب ايه اللى جالك ؟

ونظرت اليها ليلي فى دهشة ، ولم تقل شيئا •

واستأنفت عديلة كلامها :

— أنا كنت حاضرب البت أم حواجب دى • أدخل أودة البنات ،
أسأل عليك ، تقوللى ، قدام عشرين بنت : صاحبتك جالها جواب أزرق
• • وخرجت ملبوخه ؟ • !

وأشاحت ليلي بوجهها ، وتنهدت ، وكأنها قد تلقت صفة على وجهها
• • ولمحت سناء تعبر الحديقة وهى تسير فى اتجاههما ، وقالت :

— ما فيش داعى تهولى المسألة يا عديله •

— لو كنت شفت الضحك والغمز ، كنت عرفت انى ما بهولش •

وقالت سناء وقد انضمت اليهما دون أن تشعر بها عديلة :

— مالكم مبلمين ليه • • ؟

ولم يرد عليها أحد • وأعادت السؤال :

— والنبي مبلمين ليه • • ؟

وقالت ليلي فى صوت ضعيف ، وقد تهدل كتفاها :

— جالى جواب • •

كما لو كانت قد قالت : « جات لى مصيبة »

وانفجرت سناء ضاحكة • ورمتها عديلة بنظرة قاسية • وقالت
وهى تؤكد خطورة هذا الخطاب بالذات :

— جواب أزرق يا ستى • •

ولمعت عينا سناء وقالت وهى تضحك :

— لا يا شيخه • • !

ومدت يدها الى ليلي تصافحها وهي تقول :

.. طيب ايدك على كده بناء ..

وبقيت يدها معلقة في الهواء ، نظرت اليها عديلة شزرا ولكزتها ليلي
في جنبها محذرة ..

وقالت سناء :

- ايه الحكايه ؟ ما تفهموني ، كل المحزنه دي ، على جواب أزرق ؟!

وقالت ليلي موجهة الكلام الى عديلة :

- على فكره ، كل الجوابات الى بتيجي من المانيا زرقه ، مش ده بس

وتهلل وجه سناء ، وأحاطت ليلي بذراعيها ، وقالت :

- من حسين ؟ .. من حسين يا ليلي .. ؟

وبدت في عينيها فرحة حقيقية ، وكأنها هي التي تلقت خطابا
من حبيبها ..

- بيقول ايه ؟ .. بيقول ايه يا ليلي .. ؟

وتطلعت عديلة الى ليلي ، تنتظر اجابتها على سؤال سناء ، وقد أنساها
الفضول مؤقتا ، الفضيحة التي تصورتها .

واحمر وجه ليلي .. لا ، لن تطلع عديلة على خطاب حسين ، ولا سناء
ولا أى مخلوق . ان ما في الخطاب سر بينها وبين حسين ، سر لا يعرفه
غيرها وغيره ، ولن يعرفه غيرهما أحد . لو قرأت سناء الخطاب أو عديلة
لحجلت منهما ، لشعرت كما لو كانت قد وقفت أمامهما عارية .

وأطبقت ليلي شفتيها ، وأدركت عديلة أنها لن تتكلم ، وقالت :

- حايقول ايه يعنى ؟ الكلام اياه المحفوظ ، با احبك وبا اموت فيك
ولا ليش غيرك . وتلاقيه ما بيفوقش من البنات الالمان .

وابيضت شفتا ليلي .

وقالت سناء :

- يا شيخه حرام عليك ، هي الدنيا يعنى خلاص ، مافيهاش اخلاص

وضحكت عديلة فى سخرية :

- فيها يا ست سناء ، فى الروايات الى بتقريبها • تقدرى تقولليلي لما سى حسين بيحب ليلي ، ما طلبهاش من أهلها ليه •• ؟

وقالت ليلي فى صوت مكبوت :

- كفايه يا جماعه ، أنا مش عايزه السيره دى خالص •

ولكن المعركة كانت قد تطورت بين سناء وعديلة الى حد لا يمكن السيطرة عليه •

وقالت سناء :

- يتجوزها ازاي ؟ •• هى شروه ؟! اذا كانت دى واحده كاشه وخايفه • يقول لها : يا احبك • تقول له : ما يا احبكش • يعمل ايه ؟ يشترىها ؟! الراجل منتظر ••

وكادت ليلي تصرخ وهى تقول : « كفاية » • آلمها أن تناقش عديلة وسناء موضوعا خاصا بها هكذا ، وكأنها غير موجودة ، وكأنها غائبة ، وكأنها قطعة من حجر لا قيمة لها •

ولكن عديلة لم تهتم باحتجاج ليلي وردت على سناء فى سخرية لاذعة :

- مسكين حسين ؟ صايم ، مش كده ؟ ومنتظر لما المدفع يضرب •• على العموم الشعر الأصفر والعينين الزرق ما تفرش ••

وقالت ليلي وشفتها ترتجفان :

- على العموم أنا ما يهمنىش ، شعر أصفر ، زفت ، قطران موضوع حسين دا كله ما يهمنىش • ومش عايزه حد يتكلم فيه •

ونظرت سناء الى ليلي نظرة جانبية فيها حسرة ، ثم هزت كتفها فى يأس ، واستأنفت المسير ••

أما عديلة فلم يكن من السهل تشبيط همتها ، كان عقلها يستجمع الخطوط ، ويصل الى قرارات سريعة ، بشأن الخطوات العملية التى ينبغى أن تتخذها ليلي لمواجهة الموقف •

وفى عصر ذلك اليوم زارت عديلة ليلي فى البيت ، وقابلتها ليلي بجفاء ملحوظ ، كانت تدرك أنها ستضيق عليها الحناق ، وتجبرها على اتخاذ خطوة عملية ، وكانت تكره فى هذه المرحلة اتخاذ أى خطوة عملية .

وركزت عديلة نظرها على ليلي ، وقالت :

— حا تعملى ايه ؟

وأشاحت ليلي بوجهها بعيدا ولم تجب

وتكلمت عديلة ، قالت أن واجبها كصديقة ، يحتم عليها أن تنبئه ليلي الى خطورة الموقف . وأن هناك حلا واحدا لا بديل له ، وهذا الحل هو أن تكتب ليلي لحسين خطابا ، ترجوه فيه أن ينقطع عن الكتابة اليها لأن تسليمها لخطاباته يسئ الى سمعتها فى الكلية . وقفزت ليلي واقفة كالملدوغة .

واستأنفت عديلة كلامها بنفس الهدوء . بل ان من المستحسن أن تكتب هي (أى عديلة) الخطاب بخط يدها ، وتمضيه باسم ليلي ، حتى لا يستخدم كسلاح يهدد استقرار ليلي فى المستقبل ، حين تخطب أو تتزوج « ويا ما بيوت خربت بالشكل ده » .

واكتسى وجه ليلي بالرعب والاستنكار ، وقالت فى صوت ضعيف

— مستحيل . . . مستحيل يا عديله . . . انت ما تعرفيش حسين .

وأشاحت عديلة بيدها ، تستبعد كلام ليلي ، وقالت ان كل الرجال سواء ، وأن حسين ليس أفضل ولا أسوأ من غيره ، وان الاحتراس لم يضر أبدا أحدا .

وانهارت ليلي على مقعدها .

واستأنفت عديلة كلامها وهى تتساءل هل هناك حل آخر ؟ . . واستبعدت أن تكون ليلي راغبة فى ايجاد علاقة بينها وبين حسين ، وفى تبادل الخطابات معه بصورة منتظمة ، لأنها ليست من هذا الطراز الرخيص من الفتيات اللاتى يستهنن بالأصول ، فلا يفزن فى النهاية الا باحتقار الرجل . فما الحل اذا ؟ ليس هناك الا الحل الذى تقدمه ، الحل الذى يحسم الموقف حسما سريعا وفعالا . . . واذا لم ترد ليلي على حسين

فسيعتبر هذا تشجيعا له على الكتابة ، وسيكتب بدل المسرة مرات
وتتسع الفضيحة فى الكلية ، يوما بعد يوم ، حتى تصبح سمعة ليلي
مضغة فى الافواه . فهل هى مستعدة للتضحية بسمعته ؟ .. بأعلى
ما تملك كل فتاة ؟ ..

وسكتت عديلة لحظة بعد أن انتهت من عرض الموقف ثم قالت وهى
ترقب ليلي :
- أياه رأيك ؟ ..

واستندت ليلي برأسها على مسند المقعد وأغمضت عينيها ، وقالت :
- ما أقدرش .. ما أقدرش يا عديله .

وقالت عديلة بقسوة :

- ليه ؟ .. بتحبيه ؟ !

وهزت ليلي رأسها فى يأس ، وقالت :

- مش كده ، مش كده ..

- أمال أياه ؟ ..

وفتحت ليلي عينيها ، ومالت بنصفها الأعلى فى اتجاه عديلة ، ثم
قلبت يديها ، وكأنها عجزت عن تفسير الموقف لعديله ، وقالت بصوت
يختلط بنبرة البكاء :

- حا أقول أياه ؟ .. مش حاتفهمى .

وقامت عديلة واقفة ، وقالت :

- أصلى حمارة .. على العموم ، أنا الى على عملته ، وانت حره
فى حياتك ..

وخرجت غاضبة .

* * * *

ولمدة أسبوع ظلت الحيرة تستبد بليلى ، والدموع تسيل من عينيها ،
وهى تفكر ، فى الترام وفى الشارع وفى البيت وفى كل مكان تنفرد

فيه ، والتفكير يسلمها الى مزيد من التفكير ، وهى لا تستطيع أن تنزل على رأى عديلة ..

وكانت ما تزال تفكر وهى تجلس بين عديلة وسناء ، فى محاضرة الدكتور رمزى ، وصوت الأستاذ يصلها من بعيد .. حجج عديلة واضحة ومقنعة ، ولكنها لا تستطيع أن تقذف فى وجه حسين بحبه لها ، لا تستطيع أن تطعنه بسكين ، وقلبه وكيانه متفتح لها ، لا تستطيع أن تضرب اليد التى امتدت اليها ، لا تستطيع أن تقطع خط النور الوحيد الذى يلتصق فى حياتها .

ان هذا يعنى نهايتها ، يعنى ان تبقى دائما فى الدائرة المغلقة فى الحجرة المظلمة ..

الدائرة المغلقة !؟ الحجرة المظلمة !؟ كلام فارغ ، أوهام . الدائرة المغلقة هى التى حبسها فيها عصام ، وسيحبسها فيها حسين يوما ما وهى الابتسامة الساخرة التى تواجهها بها نوال ، حين تصادفها فى الممر ، وهى جفاف عديلة ، والاستنكار المرتسم على وجهها . هذه هى الدائرة المغلقة التى يجب أن تخرج منها .

ولكنها لا تستطيع ، لا تستطيع أن تؤلم حسين .. ويخفق كيان ليل بالحنان ، وهى ترى ملامح حسين القوية تلين فى ابتسامته الجميلة فيصبح وجهه كوجه طفل رضيع .. أبدا لم يعاملها انسان بالركة التى عاملها بها حسين ، ولم يعرفها انسان على حقيقتها ، كما عرفها حسين ، وكان الحجاب قد زال بينهما ، وكأنه يستطيع أن يرى ما بداخل أعماقها .. « صدقيني يا حبيبتي لقد خلقنا لبعضنا » .. لا انها لا تستطيع أن تؤلمه وأن ..

وأفاقت ليلي على سناء تلمس ذراعها ، والدكتور رمزى يردد اسمها « الاتسة ليلي سليمان » ..

وأدركت أنه قد وجه اليها سؤالاً لم تسمعه ، وقفزت واقفة وقالت فى صوت حاولت أن تكسبه هدوءاً :

- أرجو إعادة السؤال -

وأعاد الدكتور رمزى السؤال ، ووقف ينتظر وعيناه بضيقان عليها الحناق ، لتعترف . وقالت ليلي بصوت خافت :

- آسفه .. ما تتبععتش المحاضرة .

وقال الأستاذ :

- طبعاً .. كنت سرحانة ..

وتعالت الضحكات فى الفصل ، ووجه الأستاذ نفس السؤال لطالب فى الجانب الآخر من المدرج .

ومالت نوال على سوزى وقالت شيئاً ، وضحكت سوزى ثم استدارت لتواجه ليلي التى جلست خلفها ، وقالت هامة وهى تبتسم :

- الى واخذ عقلك يتهنى به ..

ولكن ابتسامة سوزى ماتت على شفيتها ، حين نظرت اليها عديلة وقالت فى صوت مكتوم :

- اتعدلى أحسن لك ، وبلاش الكلام الفارغ ده .

واعتدلت سوزى ..

ونظرت ليلي من طرف عينيها الى عديلة ، ولكن عديلة أشاحت بوجهها عنها فى غضب ..

وبعد أيام كانت ليلي تمر بالبهو الخارجى مع عديلة وسناء حين استوقفتهن نوال وقالت فى خبث وسخرية :

- ليلي .. لك جواب فى أودة البنات .

وابتسمت عديلة فى مرارة وانتصار ، وكأنها تقول لليلي : « جالك كلامى » !..

وعندما ذهبت ليلي لتأخذ خطاب حسين ، وجدت الحجرة مليئة بالطالبات، ومشيت الى اللوحة فى اضطراب ومدت الى الخطاب يداً مرتجفة وخيل اليها أن كل العيون مسلطة عليها ، وشعرت بالخطاب يحرق يدها ودسته فى الحقيبة واستدارت وهى تتحاشى أن يلتقى نظرها بأحد .

وفى الطريق الى الباب اصطدمت بالمائدة وفقدت توازنها ، وخرت على الأرض راكعة ، وسمعت ضحكات عالية ، وضحكات مكتومة ، وغشى بصرها وهى تجمع ما تناثر من حقيبتها فتحسست الأرض بيديها كالعمياء

وفى عصر ذلك اليوم ، زارت ليلي عديلة ، دون سابق اتفاق
وجلست فى الصالون تنتظر وقد تصلب جسمها ، وجمد وجهها .
وبعد أن صافحت عديله دست فى يدها ورقة بيضاء مطوية ..

وقالت عديلة :

- أياه دى .. ؟

وأجابت ليلي فى اختصار :

- عنوان حسين ..

وفهمت عديلة أن ليلي قد قبلت الحل الذى عرضته عليها ، وأن هذا
القبول يكلفها ألما نفسيا عميقا ، وبدا الحزن فى عينيها وهى تقول ، وقد
نهدج صوتها :

- أنا با أعمل كده عشان مصلحتك يا ليلي ..

- أنا عارفه ..

- تحبى تكتبيه أنت يا ليلي ؟ فى البيت لوحده ..

وهزت ليلي رأسها بالنفى . فقد حاولت أن تفعل ذلك ولم تستطع .
واقترحت عديلة أن تكتب هى الخطاب ، فى وقت آخر .. فى
غربة ليلي ..

وقالت ليلي بصوت مكتوم :

- دلوقت ..

ولم تفهم عديله اصرار ليلي على مواجهة هذا الموقف المؤلم الا بعد أن
بدأت عملية الكتابة . لم توافق ليلي على النسخة الأولى التى كتبتها
عديلة ، ولا النسخة الثانية .. وقالت :

- حاجة أرق ، حاجة رقيقه يا عديله ..

وأرادت عديلة أن تقول ليلي فى سخرية :

- انت مش حاتتبسطى ، الا اذا كتبت أنا ، جواب غرامى لحسين .

ولكن الكلمات توقفت على شفيتها ، كانت ليلي مشدودة بحيث يكفى
أن يشكها الانسان بطرف ابرة لتنفجر ..

وقالت عديلة :

- رقيقه ازاي ؟ ..

- اشكريه ..

- أنا .. ؟

- أنت مش بتكتبي الجواب بأسمى ، أنا اللي با أشكره .

- على أيه .. ؟

- على كل حاجة ، على كل شيء . اكتبى كده ..

وأملت ليلى عديلة الخطاب . وتحجرت الدموع فى عينيها وهي تقول :

« وأنا أشكرك من كل قلبى على ما فعلته من أجلى ، على كل شيء » .

ولم تعجب هذه الصيغة عديلة ، ولكنها خشيت أن تحتج . أدركت أن أقل معارضة قد تجعل ليلى تعدل عن قرارها ، وتلغى فكرة الخطاب نهائيا ..

وشكرت عديلة حسين .

وخرجت ليلى ، وعندما وصلت الى الشارع تنهدت بارتياح ، وكأنها خرجت لتوها من معركة أنهكت قواها ، وشعرت بشعور من انتظر البلاء حين يحل به البلاء ، ويدرك أن الأسوأ قد حدث .

١٦

تكررت مضايقات الدكتور رمزى ليلي فى الفصل وخارج الفصل الى درجة جعلتها تصيح فى يأس :

- الراجل ده عايز منى ايه ؟ .. عايز منى ايه بس ؟

وفى نهاية كل فصل دراسى ، كانت تتمنى من قلبها لو لم يحضرها فى الفصل الدراسى التالى ، ولكن أمنيتها لم تتحقق قط . حاضرها باستمرار طيلة دراستها الجامعية ، فى مادة أو أخرى ..

كانت تشعر وكأنه يشرب من دمها بالتدريج قطرة قطرة ، وينتظر الوقت الذى يجف فيه دمها ، كل دمها .

بدأ بتركيز اهتمامه عليها في الفصل واختصها بالاسئلة الصعبة
وكان ليس في الفصل غيرها .

يسال السؤال ويقف ينتظر ليسفه اجاباتها ، ينتظر ووجهه الشاحب
الوسيم خال من التعبير ، يكلمها وكأنه لا يكلمها ، ويستمع اليها ، وكأنه
لا يستمع اليها ، موجود في الفصل يربض بوجوده على انفاسها ، وكأنه
غير موجود ، وكأنه يقف وحده في صندوق زجاجي ، يميزه ويفصله
 ويعزله عن بقية الموجودين .

وتجيب هي ويسفه هو اجابتها ، ولم تكن تغضب لانه يسفه اجاباتها
.. فغالبا ما يسفه اجابات بقية الطلبة والطالبات . كانت تغضب لانه
يجد لذة خاصة في تسفيه اجاباتها هي دون اجابات الآخرين .

فعندما يبدأ في تسفيه اجاباتها تلتصع بسمة ساخرة على الشفتين
الرقيقتين الشاحبتين وتومض العينان الباردتان بالانتصار ، وكأنه وجه
لعدوه ضربة قاضية . وينزاح الصندوق الزجاجي ، ويشعر الطلبة ان
الحياة قد دبت في الاستاذ ، ويسرى التيار بينه وبينهم ، وترتفع
الضحكات وتعلو التعليقات ، ويتحول الاله الى انسان ينكت ، على
حسابها طبعا ، ويقول « لا .. لسه بدري عليك ! .. حضرتك
بتتفلسفى ، الفلسفة مش حلة ملوخيه يا آنسه » .. « انت عارفه انت
محتاجه لايه ؟ .. محتاجه لفرامل ، فرامل لخيالك ، الفلسفة مش
خيال .. الفلسفة قواعد صارمه ، وقوانين صارمه » .. « قسم الفلسفة
مش مكانك ، كان حقاك تروحي قسم من اقسام الآداب ، يمكن خيالك
كان ينفعك هناك .. »

وبدا صراع صامت ، أملى على ليلى املاء ، صراع شعرت أنه يهد
كيانها ، ويمتص الدم من عروقها ..

وفي بادىء الأمر لم تفهم ما الذى يريد الدكتور رمزي منها . وبعد
فترة فهمت . فهمت أن مفهومه للحياة يختلف عن مفهومها لها اختلافا
بيننا ، لسبب بسيط ، وهو أن طبيعته تختلف عن طبيعتها اختلافا
بيننا . وأدركت أنه يريد أن يذلها هي بالذات ، وأن يخضعها وأن
يسمعها تردد آراءه .

ولم يكن يعتقد في رأى غير رأيه . ولم يكن يعجب بإجابة ، أو
بالأخرى . يقر إجابة « فالاعجاب وفقا له احساس مسوقى لا يليق .

بالشخص المثقف الذى ينبغى أن يفرض على مشاعره نظاما حديديا ،
لم يكن يقر اجابة الا اذا كانت الاجابة تتمشى مع رأيه الخاص ، الا اذا
ردت اليه بضاعته ٠٠ !

ولم تكن ليلي عنيدة فى هذه المرحلة من مراحل حياتها ، كانت تسلم
بالكثير وتستسلم دون مناقشة ، ولكن شيئا ما جعلها تتحمل التسفيه ،
والتعليقات والنكات ، ولا تستسلم هذه المرة . وكأن خطرا ما ينتظرها
اذا ما استسلمت ٠٠

قالت عديلة :

— ما تقولى الى هو عايزه وتخلصى .

— هو عايزنى أبقى زى البغبغان ٠٠ ؟!

— بغبغان ، بغبغان ، مش أحسن ما هو مستقصدك . حايجرى ايه
يعنى لما تريحيه ٠٠ ؟

ولم تجد ليلي ردا مقنعا . لو قالت لعديلة ان شيئا ما فى أعماقها
يحذرهما من الاستسلام ، ويمنعها من الاستسلام ، لضحكت منها عديلة .
لو قالت لهما ان خطرا ما يهددها من ناحية الدكتور رمزي ، خطرا لا
تستطيع أن تعرف كنهه ، لحسبتها عديلة مجنونة .

ولم تستسلم ليلي . وظل الدكتور رمزي يشرب من دمها . وكلماته
المطرقة فى يد العامل تهدم يوما بعد يوم من مقاومتها ، ووجوده يملؤها
بخوف يشل حواسها ، ويجذبها فى ذات الوقت ، فلا تستطيع أن ترخى
عنه عينيها ٠٠

★ ★ ★ ★

وقفت ليلي تجيب على سؤال وجهه اليها الدكتور رمزي .

وضاقت عينا الدكتور رمزي وهو يخفى ابتسامته . ولم يبد على
وجهه شيء من التعجب ، وكأنه كان يعرف أنها ستستسلم ، وأن المسألة
مسألة وقت ، وصبر ، ومثابرة لا أكثر ولا أقل .

ولكن ليلي بالغت فى اجابتها ، كانت ذكية ، وكانت مهمة بكل ما
يدور حولها ، واستطاعت أن تفهم ما يريد ، وأن ترد له رأيه بكلمات
تكاد تكون كلماته ، وبطريقة حاولت أن تجعلها شبيهة بطريقته .

ولم يغب هذا التطابق على الأستاذ وقال :

- أنت مقتنعة بالكلام الى بتقوليه ؟

وأطبقت ليلي شففتيها في غضب ولم تجب ..
وبدأت عملية أخرى أشبه بعملية النحات وهو يعمل بمعوله في رقة
أحيانا ، وفي عنف أحيانا أخرى ، وفي دراية وتصميم دائما . هنا لمسة
خفيفة ، وهنا انحناء عميقة ، وهنا جزء يجب استئصاله كلية .. وهنا
جزء يصقل ويهذب .

والتمثال تبرز معاله تدريجيا ، ويتشكل ضربة بعد ضربة ، وفقا
لارادة الفنان ..

ولم تدرك ليلي شيئا من هذا ، أدركت فقط أن الدكتور رمزي قد
غير أسلوب معاملته لها ، وأنه أصبح يعتبرها من مدرسته ، ومن بين
أتباعه في الرأي وأنه أصبح أكثر صبرا عليها ، ونحولا لهفواتها . وإن
كان ما زال ينتقدها انتقادا مرا في بعض الأحيان ، فانما يفعل ذلك لكي
تتعلم من أخطائها ..

وبدأت ليلي تنضم الى عديله في الدفاع عن الدكتور رمزي ، عندما
تهاجمه سناء ..

وفي السنة الثانية امتدت سطوة الدكتور رمزي الى ما اعتقدت ليلي
من قبل أنه من خصائص أمورها .

كانت تسلم اليه مرة بحثا في حجرته ومدت يدها بالبحث ووضعت
على المكتب وهمت بالخروج وقال هو :

- ايه ده ؟

وأدركت ليلي أن نظرتة مصوبة الى وجهها والى شففتيها بالذات .

وكانت جميلة قد دعته في الليلة السابقة الى حفل ساهر ، وأصرت
على أن تصبغ لها شففتيها ، وفي الصباح تبقى أثر الروج فأضافت اليه
لمسة خفيفة قبل أن تخرج الى الكلية .

واحمر وجه ليلي وقالت متهربة :

- هو أيه ؟

- الى في شفايفك ؟

وقالت ليلى بصوت خافت وكأنها تجلس على كرسى الاعتراف :

- روج .

وكنتم هو ابتسامته وقال :

- أنا عارف انه روج ، ولكن حاطاه ليه ؟ انت عمرك ما حطيتي روج

قبل كده .

وقالت ليلى مبررة فعلتها :

- كل البنات بيعطوا .

- دا تفكير سوقى . هل معنى ان البلد اجتاحتها موجة فساد ، ان

احنا كلنا نبقى فاسدين ؟ !

وأثارت الاشارة الى الفساد ليلى ، وقالت فى غضب :

- أنا مش فاسده .

وقال هو فى برود دون أن يهتز لغضبها :

- أنا با اقول عكس كده ، با اقول انك أحسن من البنات الى

بيعملوا كده .

وقالت ليلى فى عناد طفولى :

- أنا مش أحسن من حد .

- أنت قطعاً أحسن .

ونظرت اليه ليلى للمرة الأولى منذ أن دخلت الغرفة ، وقالت :

- أحسن ليه ؟

وابتسم فى وجهها ، وفى عينيه نظرتة الباردة الواثقة ، وقال ببساطة :

- لأننى أنا أعتقد كده .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، تتبععتها عيناه فى كل مكان تذهب اليه . كان يظهر فجأة وكأن الأرض انشقت عنه ، وتطوف عيناه بها ،

وتتركزان عليها ، وكأنهما تعانيناهما ، وكأنهما تزنانها ، بلا رغبة
بلا عاطفة ، ببطء وعناية ، كما يعاين الانسان قطعة من النقود في يده
ليتأكد أنها ليست مزيفة .

وكانت ليلى تنتفض تحت نظرة الدكتور رمزي ، ويشل حواسها
خوف غامض ، وتتنهد في ارتياح حين تنزاح عيناه عنها .

ولكنه كان يلى وجوده عليها حتى وهو غير موجود .

فاذا وقفت تضحك هي وعديلة وسناء مع واحد من الطلبة ، شكرت
الله لأن الدكتور رمزي لم يرها . واذا ألقت في محاضرة بحثا حاز اعجاب
أحد الأساتذة ، قمت لو سمعها وهي تلقى البحث حتى يدرك تفوقها
واذا ما انهمكت في القراءة في المكتبة لمدة ساعات تساءلت لم لا يراها
وهي تخلص للعمل هكذا ؟ لم لا يراها الا وهي ضاحكة أو متلطفة
تدردش في أركان الكلية ؟ لم لا يراها الا وهي تفعل ما لا يجب أن تفعله ؟
ولكنها كانت تنسى وجوده أحيانا ، كما نسيته ذلك الصباح .

كانت ليلى تجلس في صالة القراءة بالمكتبة ، حين اقترب منها زميل
لها في السنة الثانية ، وطلب منها اعارته المرجع الذي تقرأ فيه ، حين
تفرغ من قراءته .

ورفعت ليلى رأسها الى زميلها ، وتذكرت حسين فجأة .

ذكرها شيء في العينين السوداوين الكبيرتين بحسين وهو يبتسم
نعم ، عينا حسين تبدو ان هكذا حين يبتسم ، تذوب فيهما الجرأة والقوة
والصلابة ، وتصيحان ناعمتين كهاتين العينين ، حالمتين حنونتين مثلها .

ووعدت ليلى زميلها باعارته المرجع وهي تبتسم ، وجر الزميل المقعد
الذي يجاورها ، وجلس . وقال انه معجب بمناقشاتهما في الفصل ،
واستطرد فذكر أنه يكتب الشعر ، ويود لو قرأت بعض قصائده .
وبدأ يتكلم عن المستقبل ، عن الشعر الذي يريد أن يكتبه ، والتجديد
الذي يريد أن يدخله عليه ، حتى يتجنب الانفصال القائم بين القالب
الشعري والمضمون

وجلست ليلى تنصت اليه وقد ارتخت في جلستها ، وأسدلت

جفنيها على عينيها ، ومالت برأسها الى جانب ، ولعلت على فمها ابتسامة خفيفة ..

تخيلت أنها تستمع الى حسين .. فحسين حين يتكلم عن المستقبل يرن صوته هكذا ، وتتسلل اليه نبرة حاملة ، وحسين حين يتكلم ، تنبض كلماته هكذا ، وكأنها تنبض بحياة خاصة بها ، حياة تسرى الى من يستمع اليه ، وتجعله يحلق معه حيث يحلق عاليا ..

وقال صوت بارد قاس :

- شفتي الكتاب ده ؟ ..

واندفع كتاب على المائدة تجاههما ..

وفتحت ليلى عينيها .. ورأت الدكتور رمزي يواجهها .. ووقف زميلها ، ولم تستطع هي أن تقف ، لم تعد ترى شيئا . أصيبت بدوار أشبه بالدوار الذي يصاب به من يسقط من مكان عال .

وتصفح زميلها الكتاب واستأذن الدكتور رمزي في استعارته . وقال الدكتور أنه وضع نسخة من الكتاب في المكتبة ، وان لم تكن قد قيدت بعد .

واعتذر بأنه لا يستطيع أن يعيره هذه النسخة لأنها نسخته الخاصة ..

- وأنا أحب كتبى تبقى نضيفه ، ما أحبش حد يمسها ، لو حد مس الكتاب ، ما اقدرش أطالع فيه بعد كده ، ما اشعرش أنه كتابى .

وقال الدكتور رمزي هذه الكلمات وهو يركز عينية على ليلى ليؤكد كلماته ، وكأنه يحملها أكثر من معنى .

ولكن ليلى لم تكن فى حالة تسمح لها بفهم ما يدور حولها . شل الخوف حواسها وكأنها ضبطت متلبسة بجريمة خطيرة .

وحاول الدكتور رمزي أن تتقابل عيناه مع عيني ليلى ، وقال موجها الخطاب لها :

- شفتي الكتاب ده يا آنسة ؟ ..

ولم ترفع ليلى عينيها اليه ، مدت يدين مرتجفتين الى الكتاب ومسحبتة فى بطنه الى حيث تجلس ، وركزت عينيها على غلافه الخارجى .

وترك الدكتور رمزي الكتاب راقدا بين يديها ، واتجه الى صفوف الكتب المتراسة في مكتبات الحائط .

واعتذر زميلها وانصرف .

وودت هي لو استطاعت أن تنصرف ، ولكنها لم تستطع ، كان عليها أن تنتظر حتى يسترد الدكتور رمزي كتابه .

وأطال هو وقفته بين الكتب ، واتجه بخطواته البطيئة المتثددة الى حيث يجلس أمين المكتبة .

وخيل لليلي أنه يسير بخطواته البطيئة الرتيبة على أعصابها ، وأنه يطيل وقفته مع الأمين ليطيل من تعذيبها .

وحين عاد اكتشف أنها لم تمس الكتاب ، وقال :

- يعنى ما فتحتيش الكتاب . مكسوفة ولا آيه . . ؟

وفى هذه المرة فهمت ليلي الإشارة المزدوجة ، فهمت المعنى المقصود واحمر وجهها . .

وتغير أسلوب الدكتور رمزي فى معاملة ليلي تغيرا بينا .

كان يشيح ببطء عنها اذا ما قابلها فى الممر ، بلا معاينة . وكأنه قد اكتشف أن قطعة النقود مغشوشة ، ولا تستحق المعاينة . وفى الفصل انقلب عليها ، واشتدت قسوته بشكل واضح أثار تعليقات الطلبة والطالبات .

وقالت سناء :

- الراجل ده حكايته آيه ؟ هو مش حايتلم بقى ؟

وقالت ليلي :

- أنا ما اقدرش أستحمل أكثر من كده ، كفاية بهدله بقى . ثم أنا

نفسى أفهم ، هو عايز منى آيه . . ؟

وتوقفت عذيلة عن المشى ، وقالت وكأن فكرة عبقرية قد طرأت لها

- يكونش بيعحبك يا ليلي . . ؟!

- اتلهمي .. حانخرف بقي .. ؟

وضحكت سناء .

- وحب أيه المنيل ده ؟ دا كره ، مش حب .

وسحرت الفكرة عديلة ، وقالت وهي تقلد أحد أساتذة الفلسفة

- ولم لا ؟ ألم يقل الفيلسوف المشهور « شوبنهاور » أن الحب في أعماقه كره ، والكره في أعماقه حب .. ؟

وانفجرت ليلي وسناء ضاحكتين ..

وقالت سناء وهي تشرق بدموعها :

- على طريقة البرميل الى الواحد يفتح من ناحيته يطلع غسل ومن الناحية الثانية يطلع زفت . مش كده ؟

وقالت ليلي :

- كفايه همزار بقي ، وتعالوا نقعد في حته . نشوف لنا حل في الموضوع ده ..

واتجهت الصديقات الى ركنهن المختار على العشب خلف المكتبة وتربعت عديلة ، وبدت الجدية على وجهها ، وقالت موجّهة الخطاب الى سناء :

- ما هو أنا كمان ما أعطيش عقلي لغيري ، تقدرى تقوليلي ، الراجل ده ملاحقها في كل حته ليه ؟ وغاوى بهدلته ليه ؟

وقالت سناء :

- ليه يا ست الشيخه .. ؟

وكتمت عديلة ابتسامتها وقالت :

- والنبي بيحبها ..

والتفتت الى ليلي وعيناها تلتزمان :

- حقه يا ليلي لو اتجوزك تبقى حته جوازه !؟

وقالت سناء فى حركة مسرحية :

- يا حفيظ ..

وأملت عديلة رأسها الى جانب وقالت لسناء فى حماس ، وكان الدكتور رمزى قد عرض فعلا الزواج على ليلي :

- ايه ؟ ماله ؟ وحش ! أستاذ قد الدنيا وشكل وعربيه وعز واسم .
عريس تتمناه كل بنت فى الكليه .

وقالت ليلي :

- دى مصيبة ايه دى يا اخوانا ؟! احنا فى ايه ولا فى ايه ؟ خلينا فى الموضوع ، أنا ضرورى أشوف لى حل مع الراجل ده .

وقالت سناء فى جدية :

- بسيطه ، ما فيش الا حل واحد ..

ونظرت اليها ليلي متسائلة فى اهتمام .

وقالت سناء :

- اتجوزيه ..

وانفجرت ليلي ضاحكة . ولم يعجب الحال عديلة .

- مالك ؟ ايه الى مسيب مفاصلك كده ؟ بقى الجوازه دى مش ..

وقاطعتها ليلي وهى تشرق بالدموع من أثر ضحكها :

- بس يا عديله ايه الى جاب سيرة الجواز والهباب دلوقت ، احنا فى ايه ولا ايه .. ؟

ولكن عديلة كانت فى واد آخر . كانت الفكرة التى طرأت عليها قد تحولت الى عقيدة ، وأصبحت تدافع عنها كأنها حقيقة واقعة .

- طيب بشرفك يا ستى سناء . مش تتمنيه .. ؟

- فشر ..

- تتجوزى أحسن منه .. ؟

- طبعا ..

وانبعثت صورة محمود أمام ليلي ، وبدأ لها بجانب الدكتور رمزي كالقزم الى جانب العملاق ، ولم ترتج في أعماقها الى هذا التشبيه .
ومالت سناء على عديلة وقالت بصوت هادي :

- عارفه يا عديله ؟ الى تتجوز الدكتور رمزي حاتعيش ازاي ؟ ..
وبدا الاهتمام في عيني ليلي وهي تصغي الى سناء وهي تستأنف كلامها ..

- حاتتخط في تلاجه وينقل عليها ، في علبة سردين وتتختم عليها .
وسرت رجفة الى جسم ليلي ، ووضعت عديلة يدها على خنجرها وقالت في استخفاف :

- عجائب .. آ؟

واستأنفت سناء الكلام :

- وأنا شخصيا مش عايزه أعيش في تلاجه . أنا عايزه أطيرو ..
وقالت عديلة :

- تطيري ؟ .. كده .. ؟!

ومدت ذراعيها وهزتها كالجناحين حولها .

وقالت سناء وهي تكتم بسمتها :

- أيوه ..

- طيب يا بت ، ماهو ده يطيرك . عيبه ايه .. ؟

وقالت سناء في استنكار :

- يطير .. دا يكتم على نفس الواحده لغاية ما يخنقها ..

وقالت عديلة :

- طيب تعرفي تتلهي ، والله دا بكره الكليه كلها حاتجسد ليلي ..

وقالت ليلي لعديلة وهي تضحك :

- تعرفى تتلهى أنت ، عشان نشوف لنا حل فى الموضوع ده .
وقالت سناء :
- أنا عندى اقتراح . عديله تكلمه وهى داخله تاخذ البحث بتاعها
وقالت ليلي :
- تقول له أية . . ؟
- تقول له : ليه الأسيه يا حبة عنيه ؟ اعتقها لوجه الله ولوجه
المحبه .
وانفجرت عديلة ضاحكة ، وهى تتصور نفسها تقف أمام الدكتور
رمزى بوجهه المتجهم ، وتقول هذا الكلام .
وقالت ليلي فى غضب وهى تهم بالوقوف :
- أنا حا اروح . .
وجذبتها سناء من ذراعها .
- خلاص ، أنا حا اتكلم جد . عديله تقول له : ليلي بتعتذر اذا كان
بدر منها أى حاجة غلط ، وبترجو انك تسامحها .
وقالت ليلي :
- معقول . بس بلاش حكاية يسامحها دى . .
وقاطعتها عديلة :
- ومين قال انى حا اكلمه فى الموضوع ده ؟
وانقبض وجه ليلي ، وقالت سناء :
- ولا تزعلي . . أنا عندى اقتراح تانى . .
- أية . . ؟
- عديله تتجوزه . .
وقالت ليلي لسناء فى مرارة :
- انت فايقه النهارده قوى . . !
وقالت عديله وهى تفكر :

- بصراحه ما ينفعش ..

وقالت ليلي :

- هو ايه اللى ما ينفعش .. ؟

- حكاية جوازي بالدكتور رمزى • لانه اما يكسر دماغى من أول أسبوع ، أو أكسر أنا دماغه • أصلنا زى بعض ، راس ورأس •

وضحكت سناء وقالت :

- فوله وانقسمت نصين ..

وقالت عديلة وهى ما تزال تفكر :

- لا .. أنا قطعاً ما انفعهوش ! هو عايز واحده زى ليلي ناعمه ، ورقيقه ، وهاديه ، ونظيفه ..

وأكملت سناء كلام عديلة :

- ومطيعه ، ومغمضه ، ومن الاثيد دى للاثيد دى ، زى الخاتم فى صابحه .. !

وقالت ليلي بغضب :

- هو أنا ما خدش منكم الا التريقه ؟ على العموم دى مشكلتى وأنا اللى حا احلها ..

وقالت سناء :

- حا تقويله ايه يا ليلي .. ؟

- حا أقول اللى أقوله • المهم انى ما تبهدلش فى الفصل بالشكل ده

* * * *

وعندما اتجهت ليلي الى حجرة الدكتور رمزى بحجة استرداد بحثها كانت قد أعدت العدة لكل كلمة ستقولها •

ولكن عندما رفع اليها وجهه الشاحب وهو يجلس الى مكتبه تبخر من عقلها كل شيء أعدته • وتقدمت حتى حاذت المكتب وقالت وقد خالطت نبرتها ثورة على ضعفها :

- البحث من فضلك ..

وفتح درج من أدراج المكتب فى بطنه وهو ينظر اليها ، وأخرج البحث بلا تردد ، وكأنه كان يتوقع قدومها • وقذف به على المكتب أمامها ، وهو ما يزال ينظر اليها • واحمر وجه ليلي وهى تمسك بالبحث فى يدها ، وتهم بالاستدارة خارجة •

وجاءها صوت الدكتور رمزى باردا :

- انتظرى ••

وتسمرت فى مكانها دون أن تنظر اليه •

وقال :

.. افتحى البحث ، وشوفى التقدير •

وكانت الدرجة « جيد جدا » وكانت واثقة أنه يعرف أنها « جيد جدا » ومع ذلك سألها :

- التقدير أيه •• ؟

- « جيد جدا » ••

- كان ممكن تاخدى « ممتاز » • عارفه ما خدتيش ممتاز ليه ؟

ولم تجب ••

وتسرب الغضب الى صوته البارد وهو يقول :

- ما تردى ••

ولم ترد • وانفجر غضبه :

- عشان بتضيعى وقتك ، عشان بتستخدمى المكتبه فى أغراض ما اعملتش المكتبه عشانها •

وانقبضت يدا ليلي على حافة المكتب • وودت لو استطاعت أن تضربه •• ولكن الخوف شلها ، وظلت مكانها لا تتحرك ، ولا تتكلم ، ولا ترفع نظرها الى أعلى • ولفتها موجة كراهية عميقة انقبض لها وجهها •

وقال الدكتور رمزى وقد استعاد صوته هدوءه :

- انت بتكرهينى •• مش كده •• ؟

ولم تتكلم ، رفعت اليه عينيها وركزتهما في عينيهِ .
واختلجت عينا رمزي ، وتطرق إلى قلبه خوف مبهم ، كما لو كان ،
لأول مرة في حياته ، قد نسي أن يعد العدة لشيء . . أو أسقط من
حسابه شيئا ، ما كان ينبغي له أن يسقطه . .

عكست عينا ليلى قوة جبارة ، مزيج من الثورة والعنف والاعتداد
والكراهية ، قوة لم يخيل اليه قط أن من الممكن أن يحتويها كيان
هذه الطفلة الرقيقة الودیعة . .

وأدرك الدكتور رمزي أن اللحظة التي يمر بها لحظة حاسمة ، وأنه
يقف وهذه الفتاة التي تواجهه على مفترق الطريق . وتغلب على دهشته
المفاجئة ، وعادت عيناه تتركزان عليها وهو يعكس فيهما أقوى ما يحتويه
كيانه من قوة ومن سطوة وعنف . ودخلت عيناه مع عينيها في صراع
صامت طويل . وهما الآن تتصديان لها في برود متربص ، وهما
الآن يقتحمانها ويهدانها هدا ، وهما ترقان وهو يخضعها ويروضها
وهما يعمقان بعمق من عمقها ، وكأنه يسلبها منابع القوة قطرة
بعد قطرة .

وشعرت ليلى أن الدم قد هرب من جسمها وأسدلت جفنيها على
عينيها . .

وقال الدكتور رمزي وهو يبتسم ابتسامة خفيفة :

- بتزعلي مني ليه ؟ عشان عايزك تمشي صح ؟! عشان عايزك تبقى
أحسن بنت في الكلية . . ؟

وأبقت ليلى جفنيها مسدلين على عينيها ، ولم تتكلم . وقال هو :

- أنا عايزك تجاوبى على سؤال واحد بس ، الى عملتيه ده . .
صح ولا غلط . . ؟

ولم تجب وأعاد سؤاله بنفس الهدوء وسكت . .

وملأ الانتظار كل لحظة ، كل ذرة من هواء الغرفة ، وكأن العالم
كله قد توقف متربصا ، ينتظر منها أن تتكلم . .

وبالت الدموع بلا صوت من عيني ليلى ، وارتخت قبضتها على
حافة المكتب .

ومد هو يده على المكتب ومس بأصبعه يدها وقال بصوت رقيق :

- ما فيش داعى للعياط .

وفتحت هى عينيها فجأة . وتطلعت اليه فى دهشة وكأنها ترى أمام عينيها ظاهرة طبيعية غريبة . ووجدت يده على المكتب ، ووجهه جامدا خاليا من التعبير ، مغلقا فى وجهها وكأنه لا يراها ، وكأنه لم يمس يدها وكأنه لم يتحدث اليها فى حنان . .

واستدارت ليلى لتخرج ، ومسحت دموعها بكفها فى الطريق . ووضعت يدها على مقبض الباب . وتذكرت فجأة كلمات من خطاب حسين : « انطلقى يا حبيبتي ، افتحى الباب واسعا على مصراعيه واتركيه مفتوحا » .

وقال الدكتور رمزى :

- لحظه واحده من فضلك ، فيه حاجه صغيره عايز أقول لك عليها قبل ما تخرجى .

وواجهته ليلى وهى ما تزال على مقربة من الباب . وقام من مكانه ووقف يطل عليها لحظه ثم قال :

- فيه ناس كثير من اللى بيسموا أنفسهم مثقفين بيستهينوا بالأصول وبالتقاليد بتاعتنا . ولكن ضرورى تعرفى ان الأصول دى ، هى اللى بتربطنا بالارض ، ومن غيرها نبقى زى الشجرة اللى من غير جذور ، شوية هوا تجرفها ، وتوقعها كمان .

ووقفت ليلى متسمة تصغى اليه وهو يتكلم . واستمرت واقفة بعد أن فرغ من كلامه ، تنظر اليه وكأنها مشدودة اليه بخيوط غير مرئية لا تستطيع أن ترخى عينيها عنه ولا تستطيع أن تنصرف .

وهو يقف أمامها طويلا رافع الرأس ، شاحب البياض ، قريبا ، ولكنه بعيد ، تغلف وجهه الوسيم سحابة من غموض ، ينظر اليها وكأنه اله يطل عليها . . اله ؟

نعم اله من آلهة الاغريق ، لا يضعف أبدا ، يقف فى الصواب ، ويؤمن أنه على صواب ويريد لها هى أن تكون فى الصواب ، فى ظله ،

أنه لا يخطيء أبدا ، ولا يضعف أبدا ، ولا يلين أبدا • لو لان !؟ •
لو لان الحجر • • !؟

وصرخ قلبها : « أرجوك ، أرجوك لا تؤذيني ، سأمشى فى ظلك ،
سأتبعك ولكن لا تؤذيني »

وعكست عينها عمق جرحها ، ويأسها ورجائها •

ولان وجه الدكتور رمزى فى ابتسامة ، وقال فى رقة :

- خلاص يا ليلي ، تقدرى تنصرفى •

وأدركت ليلي أنه ناداها باسمها لأول مرة ، لم يقل لها « يا آنسة »
كعادته ، بل ناداها باسمها الخاص ، باسمها الشخصى • •

١٧

ومنذ ذلك اليوم تدخل عامل خاص شخصى فى العلاقة التى تربط
بين ليلي وبين الدكتور رمزى ، كان يبتسم لها ابتسامة خاصة كلما
قابلها فى الممر ، ابتسامة خاصة بها هى ، تميزها عن الآخرين ،
وتجعلها تشعر أنها أفضل منهم •

وفى نهاية العام الدراسى أعارها بعض كتبه الخاصة لتقرأها فى
الاجازة الصيفية ، وفى بداية سنتها الثالثة فى الجامعة حرص على أن
يطلب منها ما كتبه ، وناقشها مناقشة خاصة فى بعض الآراء التى
وردت فى نقدها •

وكان حازما فى معاملته معها داخل الفصل وخارجه ، ولكن شيئا
ما كان يترقرق تحت حزمه ، شيئا يميزها هى به عن الآخرين ،
ويجعلها تشعر أنه طالما يميزها عن الآخرين فهى أفضل منهم •

وكانت ليلي وحيدة وممزقة ومرهقة ، ولمحت جدارا كبيرا امتد لها
ظله ، وجلست فى ظل الجدار ، لا تفكر ، وارتكنت عليه وارتاحت • •
وشعرت أنها بخير طالما ارتكنت على الجدار ، وطالما امتد لها ظله ، وكان
الظل يمدّها بضخامة من ضخامة الجدار ، وبقوة من قوته وبصلابة من
صلابته • •

وقالت عديلة وهى تحاول استفزاز سناء :

- غيرانه ؟؟ !

- يا شيخه بلا قرف ، عاجباك الكتمه السوده الى هى فيها ؟ ..
دا ما اكلموش ، ودا ما أعملوش ، والوقفه دى ما تصحش ، والفستان
أبوكم طويل ، والأصول ، والشجره اللي بجذور ، والحيوان ، والسوبر
مان ؟؟ .. بشرك عاجباك الهفه دى !

- عايزه الحقيقه ؟ .. هى زودتها حبتين ..

وقالت سناء :

- حبتين بس ؟ دى بقت حاجة تطفش .. !

وكانت سناء تعتقد أن ليلي تغيرت تغيرا يدعو الى الأسف . وأنها
أصبحت لا تطاق ولا تحتمل ، فقد ازدادت انطواء على نفسها
واستشixت ، وأصبحت جامدة متحجرة بليدة الحس ، وكأنها فقدت
القدرة على الاحساس بالآخرين ، والتجاوب معهم . كما أصبحت
محدودة الأفق لا ترى أبعد من كفها ، وكأنها قصيرة النظر . وما تراه
يثير الاشمئزاز ، فهى لا ترى إلا أخطاء الناس وهفواتهم . ولا تتكلم إلا
لتصدر أحكاما قاسية تدين بها الناس ، فى ثقة وفى وقاحة ، وكأنها
تمسك بيدها ميزانا لا يتسرب اليه الخلل . ولو صدق الانسان كلامها
لذهب وانتحر ، فالجذور قد تخلصلت ، والانحلال عم كل بيت ، والفساد
اجتاح البلد ولا بد للمثقفين ، أنصاف الآلهة ، من أن يقفوا فى وجه الفساد
.. وطبعا ليس هناك مثقفون ، سوى الدكتور رمزى ، وسواها هى
بالتبعية .. !

وكانت سناء تتساءل فى ألم : ماذا حدث ؟ .. ماذا حدث لهذه
الفتاة التى كانت المحبة تترقرق فى وجهها ، وفى كيانها بأجمعه ؟ ..
ولماذا أصبحت هكذا مليئة بالحقد وبالمرارة وبالجمود وبالتحجر والبرود
من يصدق أنها أخت محمود ، الذى تلمع عيناه بحب الناس وبحب
الحياة .. ؟

وكانت سناء تدرك أنها ستصطدم قريبا بليلى ، فمحمود قد تخرج
وأوشك على أن ينتهى من سنة الامتياز وهما فى انتظار صدور قرار

تعيينه في أحد المستشفيات ، ليعلنا لعائلتيهما قرارهما . وهى ومحمود
لن يتركا أحدا يقف في طريق زواجهما . ولم يتبق الا شهر وتصطدم
بليلى . .

وكانت سناء تخشى هذا الاصطدام أكثر حتى مما تخشى الاصطدام
بأبيها وبأمها ، عز عليها أن تدخل فى صدام مكشوف مع ليلي ، صدام
تفقد فيه الصداقة ، التى كانت يوما أعز شئ فى حياتها . ولكن ماذا
تستطيع أن تفعل ؟ وليلى لن تفهم ، وقد أصبحت بهذا الجمود ، وهذا
البرود والتحجر . .

ولكن حدث فى تلك الفترة ما قرب بين ليلي وسناء وكاد يعيد
علاقتهم الوطيدة الى ما كانت عليه .

★ ★ ★ ★

على السبورة فى مدخل الكلية أعلن فتح باب التطوع للمطالبات فى
الحرس الوطنى ، وبقي الاعلان أسبوعا ثم أزيل ليحل محله دعوة لطالبات
الكلية للاجتماع بمدرج ٧١ مع قائد فرقة الحرس الوطنى .

وفى الموعد المحدد ظل باب المدرج الزجاجى يندفع ثم يرتد ليملأ
المدرج بمئات من الطالبات ، طالبات جئن ليسجلن أسماءهن فى الحرس
الوطنى ، وطالبات جئن مدفوعات بحب الاستطلاع ، وطالبات جئن
ليعرضن على المجموعة مجتمعة آخر مبتكرات الازياء .

وقالت عديلة وهى تجلس بين ليلي وسناء فى انتظار حضور الضابط

- يعنى مش كنت زمانى روحت وغسلت شعرى و . .

ولم تكمل . دخل الضابط المدرج ووقف يواجه ثلثمائة فتاة . .
وساد الصمت لحظة والعيون ترقب الضابط الشاب الذى تسربت حمرة
الحجل الى وجهه حين بدأ يتكلم بصوت خافت .

وعاد الهمس من جديد ، واستكملت الحكايات التى انقطعت . .
ووضعت فتاة ضيقة العينين شبيهة بالصينيات ساقا على ساق وقالت لمن
حولها انها قبلت خطوبة الشاب الذى خطبها لتخلص من الحاحه .
واشتكت فتاة ممثلة لزميلتها من أن شعرها قد جف فجأة وأصبح أشبه
بخيوط المقشعة ، ونصحتها زميلتها يعمل حمام من الزيت والبخار .

وامتدت يد الضابط الى ياقة قميصه فى ارتباك وصاحت شلة فى آخر المدرج فى ايقاع منتظم :

— مش سامعين .. مش سامعين ..

وضرب الضابط بيده على المائدة وصاح فى صرامة :

— سكون ..

وساد الصمت لا يقطعه الا تردد الانفاس فى رتابة .

وأدرك الضابط أنه أمسك بزمام الموقف ، وعلا صوته وهو يتكلم واكتسب عمقا . وتقدم بين الصفوف يتكلم كلاما عاديا بلا فصاحة ولا بلاغة ، كلاما ينبعث من احساس جديد على هؤلاء الفتيات ، احساس بقيمة المرأة وبالمساواة الحقيقية التى تتاح لها لأول مرة اذ يتاح لها حق الدفاع عن الوطن ..

وتحجرت الدموع فى عيون ، وتطلعت عيون فى عجب ودهشة وكأن باب عالم غريب قد تفتح أمامها ..

وارتفعت عيون فى ملل الى ساعة الحائط ..

والسكون سائد لا يقطعه سوى تردد الانفاس فى رتابة ..

ومرت أمام ليلي صور من حياتها ، صورتها وهى طفلة تقفز قفزات رتيبة وترفع يدها اليمنى وتخضعها ، وتقول منغمة ، كما يفعل المتظاهرون — السلاح ، السلاح .. نريد السلاح . وصورتها وهى شابة ترتفع على أكتاف المتظاهرات ، وتهتف بصوت غير صوتها صوت الآلاف ..

وبدت هذه الذكريات ليلي بعيدة باهتة ، وكأنها لم تحدث لها هى ، وكأنها حدثت لانسان آخر .

وأخرجت سناء من حقيبتها قلما ، وكتبت على ورقة :

— سأطوع ..

واستدارت شفتا ليلي لتبتسما ابتسامة ساخرة ، ولكن الابتسامة ماتت على شفتيها ..

مالت سناء على الورقة ، وبشفتين مطبقتين وعينين يتألقان أجبرت تحت الكلمة التى كتبتها خطوطا متتالية ، خطوطا عميقة تمزقت لها الورقة ..

وسرت الرعدة في جسد ليلى وتركزت في رأسها .

وكانت ليلى ما تزال مضطربة وهي تقف أمام الضابط تسجل اسمها
كمتطوعة في الحرس الوطني . وانتظر الضابط منها أن تتكلم ، ولكنها
استمرت ترسم خطوطا بيدها على طرف المائدة .

وقالت أخيرا :

- ليلى سليمان - قالت فلسفه . .

وجرت متوردة الخدين لتلحق بسناء .

* * * *

وفي البداية بدأ الامر كلعبة مسلية ، الطواير والحركات العسكرية ،
والتعبيرات العسكرية ، والشاويش وأوامره ونواهيه ، وهواء الصباح
المبكر يلفح الوجوه ويشير الشعور ، وروح الجماعة من جديد . وكان
الفريق شلة واحدة تدبر مؤامرة ، تماما كما كان الحال في الدراسة
الثانوية .

وتمتعت ليلى بكل لحظة من لحظات التدريب ، وهي تستعيد الاحساس
الذي فقدته في الجامعة ، الاحساس بأنها جزء من كل .

ثم بدأت تشعر بالعزلة حين نبهها الشاويش الى ضرورة رفع رأسها ،
وحاولت أن ترفعها ولم تستطع ، كان كتفها يرتفعان كلما همت برفع
رأسها . وشعرت أنها تحتاج لمجهود لتحقيق الشيء الذي يأتي للأخريات
سهلا طبيعيا ، وكأنهن ولدن برؤوس مرفوعة . .

وفي كل مرة ينبهها الشاويش ، وفي كل مرة تحاول ، وفي كل مرة
تفشل وتهم بالانسحاب ثم تعود من جديد .

وقالت لسناء :

- مش قادره ، مش قادره يا سناء .

- بس عشان اتعودت تمشي ورأسك معنية . .

- وأعمل ايه ؟

- ارفعي رأسك وارخي جسمك ، وقصوني في شرك طول ما انت

ماشيه : أنا جميلة ، أنا ذكية .

وضحكت ليلي .

وقالت سناء :

- أنا مش با أهزر ، ضرورى الواحد يشعر بالكبرياء جوه ، فى نفسه .

وابتسمت ليلي ابتسامة شاحبة .

وحاولت من جديد ونجحت . ولاحظ كل من حولها أن قامتها قد اعتدلت وأن مشيتها قد استقامت .

ولكن ليلي واجهت صعوبة جديدة ، قال الشاويش إنها تمسك بالبندقية كما لو كانت تمسك بالمشقة . وأثار هذا التعليق سيلا من السخرية . ولكن ليلي أوقفت السخرية حين بدأ التصويب ، وأثارت دهشة الجميع بما فيهم الشاويش .

بعد الطلقة الاولى ارتخى جسدها الذى كان متصلبا ، وتركز كيائها فى عينيها ، وببد ثابتة ضغطت على الزناد ، وأصابت الهدف . وانتشت وصوبت وأصابت ، مرة بعد مرة ، ويوما بعد يوم . . .
وعاودها الاحساس الذى تخلى عنها ، الاحساس بأنها قادرة وأنها قوية . . .

ولم تكن كلمات التشجيع والاعجاب هى التى ملأتها بهذا الاحساس وانما كان هو الادراك أنها أرادت ، ونجحت فى تحقيق ارادتها ، وأنها تستطيع دائما أن تريد وأن تنجح فى تحقيق ما تريد .
وعمق من الشعور بالنجاح انعدام الفاصل الزمنى بين الارادة والفعل .

وأوشكت ليلي أن تنتهى من تدريبها العسكرى ، والشعور الجديد يلزمها ، والانتعاش يدب فى جسمها ويتألق فى عينيها .

* * * *

رفعت ليلي الى الدكتور رمزي وجها باسما متوردا وقالت وملابس التدريب تتأرجح فى يدها :

- صباح الخير يا دكتور .

كانت عائدة من ساحة التدريب لتوها ، وصادفت الدكتور رمزي عند الباب الرئيسى للكلية .

وبدت الدهشة على وجه الدكتور رمزي . كانت هذه هي المرة الاولى
التي ترفع ليلى وجهها اليه ، وتركز عينيها في عينيه وتبدوّه بالتحية .

ولمح ملابس التدريب تتأرجح في يدها وقال :

- أنت جايه منين ؟

- من التدريب .

- تدريب ايه ؟

- الحرس الوطني .

وسحب هو نفسا من سيجارته وهو يحدها بنظرة فاحصة ، ثم
قال :

- بلاش كلام فارغ ، التفتي لمذاكرتك أحسن .

ونظرت ليلى اليه وهي تبسم ابتسامة خفيفة ، كابتسامة من
يأخذ طفلا على قدر عقله . .

وأغاضت ابتسامة ليلى الدكتور رمزي وقال :

- أظن حضرتك فاكرك نفسك مهمة أوي ؟ حاتحاربى ، مش كده ؟

واتسعت ابتسامة ليلى

واستطرد الدكتور رمزي :

- امتى حانكبر على الافكار الطفولية دى ؟ امتى حانفهم ان كل انسان
له مجاله ؟

ونظرت اليه ليلى في تساؤل ، واستأنف كلامه :

- المثقفين فئه مختاره، فئه ما تحاربش، كل بلد ينقسم الى قسمين،
قسم يفكر وقسم يحارب . والدفاع عن البلد يجب أن يقتصر على غير
المثقفين .

وشحبت الابتسامة على وجه ليلى ، وارتجفت شفاتها وهي تقول :

- الدفاع عن البلد واجب على كل انسان ، سواء كان مثقف أو غير

مثقف .

ودمدت معتذرة ، واستدارت ، ومضت تهرول وكأن خطرا ما
يلحقها .

★ ★ ★ ★

وبعد أسبوع من هذه المقابلة العابرة، أرسل الدكتور رمزي يستدعى
ليلي الى غرفته .

وعندما مدت يدها تفتح باب الغرفة تخلت عنها الشجاعة والصلابة
التي تواجه بها الآخرين .

كانت ما تزال تعاني كلما واجهت الدكتور رمزي ، نفس الشعور
الذي عانته يوم دخلت حجرته لأول مرة ، مزيجا من الخوف والرهبة
والانجذاب .

كان يقف وقد أعطى ظهره لمكتبه يبحث عن كتاب في مكتبته الخاصة،
واستدار برأسه حين فتحت الباب ، ولمحها ، والتقط في نفس اللحظة
كتابا ، وقال دون أن ينظر اليها :

- اتفضل استريحى .

وجلست هي على طرف المقعد المجاور للمكتب ، وشدت ذيل ثوبها
على ساقها . وتركها تنتظر دقائق ، وهو يتصفح الكتاب ، ثم استدار
وجلس على المكتب ، وقال :

- أنا عايز أقابل والدك ، ممكن تحددى ميعاد وياه ؟

وارتسمت على وجه ليلي الدهشة ، وقالت :

- حضرتك تحب تقابله امتى ؟

وفى بطنه أخرج الدكتور رمزي مذكرته من أحد أدراج المكتب
وفتحها ، وانكب عليها يتصفحها .

وبدأ عقل ليلي يدور فى سرعة ، لماذا يريد مقابلة والدها ؟ انه
لا يعرفه ، وليس بينهما أى صلة . هذه العبارة يقولها الرجل للمرأة
حين

وتطلعت ليلي الى الدكتور رمزي من طرف عينيها ، وبدأ لها بعيدا
معزولا كعادته فى صندوقه الزجاجي

لا ، لا يمكن ، لا يمكن ، لابد أن له مصلحة في وزارة المالية وسمع
أن والدها موظف فيها .

لا ، لا يمكن ، الناس لا تتزوج هكذا . .

ورفع اليها الدكتور رمزي رأسه وقال :

- الاتنين كويس يا ليلي . . ؟

- حاضر يا دكتور .

وقامت واقفة .

وقال وهو يبتسم :

- حا تردى على امتى . . ؟

- بكره ان شاء الله .

ووقفت ليلي لحظة مترددة ، ولكنها لم تجرؤ على سؤاله عن سبب
رغبته في مقابلة والدها .

وعلى غير العادة وقف الدكتور رمزي ، وصافحها قبل أن تنصرف

* * * *

قالت أم ليلي وهي جالسة على مائدة الغداء :

- والنبي ، أنا قلبي حاسس ، انه عايز يتجوزك يا ليلي .

وصرخت فيها ليلي في حدة :

- هو انت ما فيش في عقلك الا الجواز يا ماما ، هي الناس بتتجوز
من الباب للطاق كده .

وركز أبوها عينيه فيها ، وقال في برود :

- يعنى ايه من الباب للطاق ؟

وارتج على ليلي .

والتفت أبوها الى أمها وقال :

- على العموم ، مافيش داعى ، تطلعى فى عقل البنت كلام فارغ زى
ده ، دا راجل له اسمه ومركزه ، ولما حا يتجوز حا يبص لفوق . .

وقالت الأم محتجة :

- يوه ، هي ليلى وحشه ، داسى محمود الاتربى بيقول . . .
واسنطردت تقص حكاية رددتها مائة مرة ، مؤداها أن لو كان فى كلية
الآداب ، ثلاثة مثل ليلى ، لانصلح أمر الكلية . .
وبعد أن قام الأب عن المائدة ، مالت ليلى على أمها ، وقالت فى صوت
مكتوم .

- مافيش داعى تعدى وتحسبى ، لو كان موضوع جواز ، كان على
الأقل لمح لى بكده ، الموضوع مش موضوع جواز ، وأنا با أقول لك أهو

وقامت من على المائدة غاضبة .

* * * *

وكان الموضوع موضوع زواج ، وبعد أن خرج الدكتور رمزى من
البيت ، أحاط أبوها كتفيها بذراعيه وقال وهو يكاد يطير بها من الفرح:
- مبروك يا ليلى ، قرينا الفتحة على بركة الله .

وكان أول خاطر خطر لليلى ، أن أحدا لم يستشرها ، لا أبوها ولا
الدكتور رمزى ، وكأن أحدا غيرها هو الذى سيتزوج . ولكنها نسيت
هذا انخاطر فى غمرة اعتدادها .

وازداد هذا الاعتداد ، حين عرف الخبر فى الكلية، وتمتعت بنظرات
الحسد والفضول ، وهى تشعر طوال الوقت أن الأيدى تشير اليها، وان
من لم يعرفها عرفها ، لأنها أصبحت خطيبة الدكتور رمزى .

واحتضنتها عديلة حين رأتها ، وقالت :

- يا بنت الايه ! أما حنة جوازه ؟ دا أنت هزيت الكليه .
وقبلتها سناء وقالت :

- مبروك .

وقالت عديله لسناء ، بعد أن انصرفت ليلى :

- جالك كلامى ، أنا أفهمها وهى طايره .

وقالت سناء فى حزن وهى ساهمة :

- مين كان يصدق ؟

وقالت عديلة دون أن تفهم مقصد سناء :

- فعلا ، مين كان يصدق ان ليلي تجيب الراحل الجهم ده ، على ملا وشه ؟! لكن صدق اللى قال « تحت السواهى دواهى »

وقالت سناء فى قرف :

- بلا خيبه ، والله هو اللى جابها على ملا وشها ، مش هى .

١٨

بدأ الاصطدام بين الدكتور رمزى وبين أم ليلي مبكرا ، وان لم يكن اصطداما بالمعنى المفهوم ، فلم تكن أم ليلي تجرؤ حتى على الحديث أمام خطيب ابنتها ..

وعندما نوقش موضوع الخطوبة قال الدكتور رمزى رأيه ببساطة واختصار ، فهو يرى أن تكون الخطوبة « على الضيق » وأن يفام الاحتفال (بكتب الكتاب) والزواج ، فى يوم واحد فى الأجازة الصيفية التى تعقب تخرج ليلي .

ووافق أبو ليلي ، وفتحت أمها فمها لتقول شيئا تم أطبقته ولم تتكلم ، ولكنها تكلمت بعد أن خرج رمزى ، وانصب لومها كالعادة على ليلي .

- قاعده ساكتة كده ليه ولا كائن حد داس لك على طرف ؟ هو أنت عازبه ، ولا ايه ؟ على الضيق ! الكلام ده كان يبقى معقول ، لو كان الجواز قريب ، لكن دا لسه سنة ونص ، ويا هنا من يعيش .

- بس ، أنت عايزه أيه يا ماما ؟

- يوه ! عايزه أفرح ، هو أنا ماليش نصيب فى الفرحة ؟

كانت فرحه ، وجدت أخيرا عريسا لابنتها ، عريسا تستطيع أن

تتفاخر به أمام أختها ، فكيف تترك مثل هذه المناسبة تفوت هكذا
« فطيس » ؟

ان حظ أختها كان دائما أحسن من حظها ، تزوجت أختها قاضيا
وتزوجت هي موظفا بسيطا في وزارة المالية . وتزوجت جميلة قبل
ليلي بسنوات ، وأى زواج ؟! زواج ولا كل زواج ، زواج معتبر ، جعلها
تلبس أحسن لبس ، وتختلط بأحسن الناس . فأولاد سامية هانم
ودولت هانم معها باستمرار ، تدخل معهم وتخرج معهم . وصدقني
ابن سامية هانم ، وأخته شوشيت ، عندها باستمرار . وعصام معهم
طبعاً ، وأى نصفة أصابت عصام ؟!

تخرج قبل محمود بسنة ، لأنه عاقل وناصح ولم يضيع سنة
بحالها في الحرب ، والكلام الفارغ . وهو الآن نائب في القصر العيني
ومحمود عاطل بعد أن انتهى من سنة الامتياز ينتظر التعيين ، وقد
يعين أو لا يعين ، وحتى لو عين سيعين حكيم صحة لا نائبا لعصام ،
ولن يعين في القاهرة بل في الاقاليم . وسيعيش بعيدا عنها في الغربية
بينما يعيش عصام في حضان أمه .

وعصام يختلط بأحسن الناس . وقلبها يحدثها أن وراء اختلاط
جميلة بأولاد سامية هانم حكاية . ولا بد أن أختها عينها من شوشيت
لعصام ، وأختها حين تضرب ، تضرب لفوق ، وهي تعرفها جيدا .

وقد طلبت هي من محمود أن يلاطف شوشيت فلم يهتم ، وقال :
انها كالذكر ، لأنه عبيط ولا يفهم ما فيه مصلحته ، ومسيره يقع في
زواج متعوس ، بينما عصام واع وناصح ، ولا بد أنه الآن يلف على
البنت ، والا فما معنى اختلاطهم الزائد ؟ ولماذا يتردد صدقي وشوشيت
على بيت جميلة باستمرار ؟ لا بد أن وراء ذلك سرا ، وإذا تم زواج عصام
بشوشيت يكون حظ أختها من السماء . .

وهي ؟ هي لا يريدون لها أن تفرح ببنتها ، وكأن الفرح ليس
من نصيبها !!

واستمر النكد في البيت أياما حول هذا الموضوع ، وأشتكت أم
ليلي لأختها ولبنت أختها ولعصام وللمحمود ولزوجها ، ورددت الشكوى
حتى ثار والد ليلي غاضبا في وجهها . .

- خلاص ، قلنا كده يعنى كده .

وسالت دموع الأثم دون أن تتكلم .

واستجمعت ليلى شجاعته ، وبدأت تفتح الموضوع فى حذر
للدكتور رمزى ، ولكنه قطع عليها الطريق .

- خلاص يا ليلي ، هو احنا الى حانتجوز ولا هى ، اجنا ما بنحبش
الدوشه والناس الكثير .

واقترحت جميله اقتراحا ارتضته أم ليلي ، وهو أن تقام الخطوبة
على الضيق فى البيت ، ارضاء للدكتور رمزى ، على أن تحتفل هى
بالمناسبة فى حفل تقيمه فى بيتها ، وتدعو له الأقارب والأصدقاء .

وكان على ليلي أن تقنع الدكتور رمزى بهذا الحل .

ولفت ليلي حول الموضوع ، ودارت ، ثم رجعت الدكتور رمزى
أن يقبل هذا الاقتراح ، ونظر اليها مليا وقال :

- المهم عندى رأيك أنت ، أنت مقتنعه برأىي ، ولا ، لا ؟

- طبعا مقتنعه ، بس عشان خاطر ماما .

وعكست عيناها رجاء ملحا ، كالرجاء الذى ينمى فى عيني طفلة ،
وهي تنتظر أن يجيب لها أبوها طلبا .

وقال وهو يبتسم

- طيب يا ليلي .

وأضاف ، وكأنه لام نفسه على التنازل ، فى وقت ينبغى فيه أن
يرسى قواعد العلاقة بينه وبينها .

- بس ضرورى تفهمي ياليلي ، أنى تنازلت ، عشان خاطر والدتك
وانى ما أنتظرش أبدا أنى أضطر للتنازل مره تانيه . وفى المستقبل
ضرورى يكون رأيي ورأيك حاجه واحده .

وقالت انها تفهم موقفه تماما وتقدره ، وتنفس فى ارتياح .

كانت تريد أن تخلص من هذه الشكليات من الخطوبة ، ومن حفلة

جميله ، ومن كل شيء ، وتفرغ اليه ، تنفرد به ، تفتح له قلبها ، ويفتح لها قلبه ، وتشعر به ، ويشعر بها ، ويزول الحاجز الذى يفصل بينهما .
لم تعد العلاقة التى كانت تجمعها بها كأستاذ بطالبتة ترضيها ، كانت تريد أن تشعر أنها خطيبته وحبيبته .

نعم حبيبته . والا فلماذا خطبها ؟ فهى ليست جميلة ولا عنية ، ولا من أسرة ذات مركز اجتماعى خطير ولا شيء ، لا شيء على الإطلاق فما الذى يجعل رجلا مثداً ، يتزوج فتاة مثلها سوى الحب ؟

كانت قد عاشت حتى الآن فى ظل قوته ، وكانت تريد الآن أن تعيش فى ظل دفئه ، كانت تحلم باليوم الذى ينزاح فيه القناع الذى يغلف به عاطفته تجاهها ، وتتفجر فيه هذه العاطفة دافقة رقراقة تلفها وإياه ، وتمسح على رهبته منه ، وعلى شعورها بالخوف فى حضرتها .

كانت تريد أن تشعر أنها ليست مقبولة كإنسانة فحسب . بل محبوبة أيضاً كامرأة ، ومرغوبة .

وكانت هذه الرغبة تؤرقها ، غير أنها انشغلت عنها فى الأيام السابقة لإعلان الخطوبة .

★ ★ ★ ★

كان البيت يشغى بالناس وكانت ليلي تتلفت حولها فتجد وجوها حبيبة الى قلبها ، أمها وخالتها وجميله ومحمود أحياناً .

كانت مدة إقامته فى المستشفى كطالب امتياز قد انتهت ، وأصبح يقيم فى البيت فى انتظار قرار تعيينه . ولكنه كان يقضى معظم وقته فى الخارج . وحين يأتى من الخارج تدب الحياة فى البيت بأجمعه وكأنه قد أتى معه بنسمة منعشة ، وكأنه كان يفيض بسعادته على الآخرين . كان سعيداً للغاية ، لا يكاد يستقر على الأرض من فرط سعادته .

وفى فورة كفورة الفقاقيع على سطح المياه الغازية يقبل ليلي ، ويحتضن أمه ويربت على كتف خالته ، ويطرى ذوق جميله فى اختيار ثوبها . وتزول الفورة وتعمق العينان وترق الشفتان حين ينظر الى سناء نظرة طويلة عميقة تثقلها عاطفته الجياشه . ثم يتخفف من حمله وتعود الفورة من جديد . وتسدل بيناء جفنيها على عينيها وكأنها مخدرة .

وكانت ليلي تتساءل : ألا تخشى سناء أن يلحظها الناس ؟ ثم كيف

تعرف المواعيد التى يبقى فيها محمود فى البيت ؟ لا بد أن محمود يتصل بها فى التليفون ، ولا بد أنهما يتقابلان فى الخارج . ولكن كيف ؟ أن الرقابة على سناء صارمة . فكيف تفلت من هذه الرقابة ؟ ان سناء تلعب بالنار ، والنار مستحرقها وتحرق محمودا .

ولكن من الواضح أنهما يستعذبان هذه النار ، محمود سعيد وكأنه قد ولد من جديد ، قوى وأرجل وأوسم ، وأكثر ثقة فى نفسه ، وفى المستقبل وسناء لا تعيش على الأرض ، انها تطير . وهما قد ازدادا جرأة واعتدادا هذه الأيام وكأنهما متفقان على خطوة ما ، خطوة تتطلب كل جرأتهما . وهذه حقيقة ثابتة لم تغب عن عيني جميلة الفاحصتين . ولم يكن من الممكن أن تفوتهما الآن .



كان التغير الذى طرأ على جميلة فى مدة السنوات الثلاث الأخيرة تغيرا غريبا يصعب تصديقه ، تحولت الفتاة الغريبة الطفلة الى امرأة ناضجة ماهرة عملية محنكة .

امتلاء جسدها ، واستدار ، واستقامت مشيتها ، واستقر الوجه الجميل فوق العنق الطويل الشاهق البياض ، بعد أن كان يدور فى فورة ، أشبه بهورة محمود . وكالت الجداول السوداء الحالكة ، الجبين الأبيض المنبسط فى كبرياء ، شعرة فوق شعرة وكأنها مرسومة بريشة فنان . واحتلت العينين العسليتين اللتين كانتا تترقرقان ، كالنبع الصافى ، نظرة جريئة قاسية باردة . وأصبحت البسمة الحجول بسمه مرسومة مدروسة .

وبدت جميلة أشبه بتمثال مرمرى رائع الجمال وتحت السطح الحامد نار ، والنار المستترة تلهب رغبة الرجال ، والسطح الحامد يستفر رجولتهم ، ويدعوهم الى النضال ، الى امتحان قوتهم ازاء هذه المرأة الجميلة المعتدة بجمالها .

وكانت جميلة تمضى مرتفعة الرأس منتصرة ، تشعر أنها تستطيع أن تجتذب أى رجل ترغب قل رغبة فى اجتذابه ، وكانت تتمتع بكل دقيقة تقضيها فى كل حفلة من الحفلات .

ولكن عندما تعود الى البيت من سهرتها ، تلفها الكآبة ، وهي تمر
بحجرة زوجها المغلقة ، وغطيطه يصل الى مسامعها .

وتتعدد في سريرها وتحلم أنها عادت الى سن السابعة عشرة ، وأنها
صغيرة ولم تتزوج وأنها تحب . تحب من ؟ انسانا آخر غير كل هؤلاء
الذين تقابلهم في الحفلات . هؤلاء يمضون وقتا لطيفا ، كما تمضي
هي هذا الوقت ، لا أكثر ولا أقل . وهي ترغب لا في الغزل ولكن
في حب عميق ، حب صاست أصيل ، يلفها لا في معركة حامية ، ولكن
في استرخاءة حنان

* * * *

وعندما عرفت جميلة أن ليلي على وشك أن تخطب ، احتل القلق
عينها ، وعندما انفردت بها في الغرفة قالت :

— انت بتحبي رمزي يا ليلي ، مش كده ؟

وهزت ليلي رأسها بالايجاب

وانزاح القلق عن وجه جميلة . وارتخت في جلستها ، وضحكت
ضحكة عصبية قصيرة ، وقالت :

— أنا عارفة كده برضه — انت طول عمرك أعقل مني ، انتظرت
لغاية ما جالك الى حبك وتحبيه .

ومالت ليلي على جميلة وأمسكت بيدها .

— وانت كمان مبسوطه في جوازتك . مش كده يا جميلة ؟

وبدت في عيني جميلة نظرة حزينة مالبشت أن اختفت وقامت واقفة
وعندما وصلت الى النافذة اسندارت بجانب من وجهها وقالت وفي
عينها نظرتها الباردة القاسية :

— اسألي ماما تقول لك . تقولك على السعادة الى أنا فيها !

ثم استدارت تواجه ليلي وتقول :

— على العموم احنا فيك دلوقت ، ضروري نفكر ، حانعمل ايه في الحفله

كانت مهتمة بموضوع خطوبة ليلي ، وبالحفلة وبكل التفاصيل .
وكانت تتردد على ليلي في هذه الفترة كل يوم تقريبا ، تدخل البيت برائحتها العبقة وبثيابها الرائعة في بساطة وبذخ وانسجام ، ويتنهد الجميع في ارتياح . وكأنهم يلقون بكل المسئوليات عليها . فهي التي تعرف كل شيء ، وهي التي تقترح ، وهي التي تدبر الأمور في بساطة وفي دراية ، وكأنها ظلت طول حياتها تدبر أمور الخطوبة والزواج .
وفي أول الأمر كانت تأتي مع زوجها ثم أسقطته وأصبحت تأتي وحيدة .

وقالت أمها :

- أmaal فين على بك ؟

وهزت جميلة كتفها وقالت :

- حا أجيبه يعمل أيه ؟ ينام زى ما عمل امبارح ؟!

وكتمت ليلي ضحكتها . تصورت على بك وقد افترش الأريكة فكاد يملؤها ، ومال برأسه على كتفه ، وانفتح فمه وعلا تنفسه ، وهو يغط في نومه ، وسلسلة الساعة الذهبية تتدلى عى كرشه ، ضخمة كبيرة ، وكأنها السلسلة التي يوثق بها المساجين .

وقالت أم جميلة :

- لا ، مالكيش حق يا جميله . مش قرايبه ؟!

وهزت جميلة كتفها في استخفاف ، وقالت لليلي :

- على فكرة عصام بيعتذر لك . وجاى بكره يهنيك .

وكانت ليلي قلقة لأن عصام لم يهنئها . كانت تريد أن تراه وأن تشعر أنه لا يحمل لها أى مرارة وأن يشعره أنها لا تحمل له أى مرارة .

وكانما أرادت أن تصفى كل شيء قبل أن تخطب .

* * * *

وجاء عصام مع صدقى ، وكانا قد أصبحا صديقين متلازمين . وحين رأتها ليلي معا ، ابتسمت .

تذكرت ليلة خطوبة جميلة ، حين أراد عصام أن يخنقها ، لمجرد أن صدقى حادثها .

ولم عصام ابتسامتها وفهم سرها • وحين خلا مكان ، جلس الى جانبها ، وقال وهو يبتسم :

- كنت بتضحكى على ايه ؟

- يعنى بقيتوا اصحاب انت وصدقى !

وضحك عصام وقال :

- فاكده ؟

وقالت ليلي :

- كان لعب عيال • مش كده ؟

ولم يجب عصام •

ولمحت ليلي صدقى يهمس فى اذن جميلة بكلمة ، وجميلة تنفث دخان سيجارتها فى وجهه ، وتضحك ضحكات قصيرة متقطعة •

ورفع عصام وجهه الى ليلي وقال ، وهو يبتسم ابتسامة الخجول :

- عارفه يا ليلي انا ناوى اعمل ايه لما اتجوز ؟

ونظرت اليه ليلي متسائلة ، وقال :

- اول بنت لى ، حا اسميها ليلي ، على اسمك •

وشعرت ليلي بخجل ، شعرت أنها تافهة وحقيرة ، وأن عصام الذى احتقرته يوما ، أفضل وأشجع منها •

عصام لا يريد أن يتنكر لعاطفة أصيلة ، ملأت قلبه يوما • لقد انقضت هذه العاطفة بالنسبة اليه ، ومع ذلك ما زال يذخرها فى قلبه كشيء جميل يعتز به • وهى تتنكر لهذه العاطفة التى ملأتها بالسعادة يوما ، وتسميها فى قسوة وجفاف « لعب عيال » •

تتنكر لنفسها لترضى من ؟ نفسها ؟ رمزى ؟!

ولم تنسق ليلي فى تفكيرها ، قطعت عليها جميلة هذا التفكير حين صفقت بيديها وقالت :

- ياللا ، الرجاله يتفضلوا ، احنا يا ستات عندنا شغل •

ووقف عصام ، وجلس صدقى مكانه لا يتحرك وسيما جذابا أنيقا
جريئا يقتحم بنظرته جميلة ، وهى تجلس الى جانبه .

وتدلل صدقى قبل أن ينصرف ، وقال انه يموت فى شغل الستات،
ولكن عصام سحبه من يده وهو يضحك .

* * * *

وبدأت جميلة تناقش تفاصيل الحفلة التى ستقيمها وانحصر النقاش
فى اختيار الثوب الذى ستحضر به ليلي حفلة الخطوبة . وبدأت ليلي
تناقش نوع القماش ، واعترضت جميلة . قالت ان « الموديل » هو الذى
يحدد نوع القماش . وأعلنت أمام الجميع أن الثوب سيكون هديتها الى
ليلى بمناسبة خطوبتها .

وفى اليوم التالى أخذت جميلة ليلي الى حائكتها وقالت للحائكة :

- أنا عايزه أحسن حاجة عندك يا مدام .

- حاجة سبيسال يا مدام .

قالت الحائكة وهى تشير الى غلاء الموديل الذى ستعرضه عليهما .
وقالت جميلة فى عناد :

- قلت لك أحسن حاجة .

وأرتها « موديل من الشاش » وقالت انه من تصميم كريستيان
ديور . ووقفت ليلي وجميلة مبهورتين أمام الموديل ، وقالت الحائكة
بالفرنسية :

- دا موش موديل ، دا حلم .

ولم تخالف الحقيقة فيما قالت . لم تر ليلي فى حياتها شيئا أجمل
من ذلك ولا حتى فى السينما ، وكادت ترى نفسها وهى ترتدى هذا
الثوب فى شيفون أبيض ، لا بد أنه سيجعلها أجمل مما هى عليه عشرات
المرات ، ولا بد أن رمزى سيراها جميلة اذ ذاك .

وانقبض وجه ليلي وقالت :

- فيه حاجة تانيه من فضلك يا مدام ؟

وقالت جميلة في استغراب :

- انت مجنونة يا ليلي؟! هو فيه أحلى من كده ؟

وقالت ليلي :

- أنا عايزه حاجه مقفوله .

وهزت الحائكة كتفها وقالت في استخفاف :

- كوكتيل مقفول ؟ !

وصمتت ليلي . ورجت جميله الحائكة ، ورفضت الحائكة في عناد
وقالت بالفرنسية في احتقار .

- أنا فنانة مش خياطه . وما أفصلش فستان كوكتيل مقفول .

وجلست جميلة في سيارتها ، وقد تصلب جسمها ، ولمعت الدموع
في عينيها من الغيظ ، ولمست ليلي فخذها برقة وقالت :

- أنا آسفه يا جميله .

ولم ترد جميلة .

ومالت ليلي وقبلتها في خدها ، والتفتت اليها جميله وقالت في
احتداد :

- أنا عايزه أفهم بس ، انت ليه عايزه تكتمى نفسك الكتبه السوده
دى ؟ طول عمرك بتلبسى المفتوح ...

وقالت ليلي :

- أصل ... أصل رمزي ما يحبش الحاجات المفتوحه .

- ما يتفلق يا ستنى . هو الرجاله حاتتدخل فى هدم الستات
كمان ؟ !

- ما أقدرش يا جميلة .

ومالت جميلة على ليلي وقالت في بطله :

- هاودينى يا ليلي ، أنا جربت الدنيا أكثر منك ، الست لما تنفخ
للراجل من أول يوم ، يركبها ويدلدل رجله ...

وشعرت ليلى بوخزة فى قلبها ، وأدركت فجأة أن ذلك الشيء الذى تحذرهما منه جميلة قد حدث بالفعل . حدث أو لم يحدث ، لا بد أن يكون الثوب مقفولا ، ولن يرضى عنه رمزى الا اذا كان مقفولا .

وخاطت لها خالتها ثوب الخطوبة مقفولا .

* * * *

وعندما وقفت ليلى أمام المرأة ، قالت خالتها بعد أن أجرت اللمسات الاخيرة فى الثوب :

- جنان يا حبيبته ، جنان .

وتراجعت الى الوراء ، وضاحت عيناها وهى تفحص الثوب من بعيد ثم ضحكت فجأة وقالت :

- عارفه يا ليلى ؟ فستانك طلع زى ايه ؟

وأدارت ليلى رأسها .

- زى ايه يا خالتي ؟

- زى فستان جواز جميله ، بس ده مقفول والتانى مكشوف . تمام تمام ، نفس الكسم والرسم والقماش .

وغامت عينا ليلى رأت جميلة تقف فى السطح يوم حريق القاهرة مولية ظهرها الى السماء ، مسمرة كالتمثال فى ثوبها الابيض ، وكتل الدخان الكثيفة الكريهة تحيط بها كالاطار .

وتردد فى أذن ليلى صوت حسين وهو يقول :

- دى مش النهايه يا ليلى ، صدقيني ، دى مش النهايه . .

والتفتت ليلى الى خالتها وقالت بصوت ضعيف :

- خلاص يا خالتي ؟!

جلست ليلي في السيارة بين أبيها وخطيبها في الطريق الى بيت جميله . كان أبوها يجلس الى جانبها جامدا متصليا ، ورمزى قد انكمش في جلسته وكأنه يخشى أن يمس جسده جسدها .

وشعرت ليلي برجفة باردة تمسها رغم أن الأمسية كانت من أمسيات شهر يوليو . وحاولت أن تتكلم لتزيل الحرج الذي يسود ثلاثتهم وأدارت رأسها الى رمزى وقالت :

— الفستان كويس ؟

ونظر اليها أبوها في استنكار .

وقال رمزى وهو يكتم ابتسامته ، وكأنه يأخذ طفلة صغيرة على قدر عقلها :

— عال .

ولم ترض الابتسامه ولا التعليق ليلي . ولكنها عزت تحفظ رمزى الى وجود أبيها معهم . وربض الصمت على ثلاثتهم من جديد . وبدأت ليلي تعبث بخاتم الخطوبه وهى تطيل النظر اليه . .

كان رمزى قد جاء بأمه الى بيت ليلي فى اليوم السابق ، وألبسها الخاتم مع دبلة ذهبية .

وأحبت ليلي أمه للوهلة الأولى . شعرت كأن شيئا ما يقربها من هذه المرأة ، ويجذبها اليها ، كما لو كان بينهما شيء مشترك . وظلت تتطلع الى وجهها . كان فى وجهها حلاوة لم تمحها السنون ورقة ووداعة وانكسار ، وفى عينيها حزن دفين ، يغيب فجأة ، حين تتطلع فى اعتداد الى ابنها . . .

ولاحظ رمزى أن ليلي تعبث بالخاتم وقطع الصمت الذى ساد ثلاثتهم وقال :

— والخاتم عجبك ؟

ورفعت اليه ليلي وجهها مبتسمة .

- فى منتهى الجمال •

وقال رمزى :

- الحاجه النمينه دايمًا تبقى جميله •

ولم ترتح ليلى الى هذه الاشارة الى ثمن الخاتم ، وقال أبوها :

- فعلا الغالى تمنه فيه •

وربض الصمت على الثلاثة حتى توقفت العربى أمام بيت جميلة •
وانفتح الباب ولفت ليلى موجة من الدفء

* * * *

اندفع محمود من بين صفوف المنتظرين تجاه ليلى ، كان ينوى أن
يصافحها فقط ، ولكنه عندما اقترب منها ووضع يدها بين يديه ، جذبها
الى صدره واحتضنها •

وتشبثت ليلى به وشعرت أنه قريب منها ، أقرب مما كان طيلة
السنين الماضية •

وعندما انفصل الاخ عن الأخت كانت الدموع تلمع فى عيني ليلى
وكانت أمها تقف بعيدا وشفتاها ترتجفان •

وصرخت جميلة فى حماس وهى تمسك بكتفى ليلى :

- انت جنان يا حبيبتي النهارده ، جنان !

وقالت خالتها :

- يا روحى عليك ، ربنا يحميك ، عروسه ولا كل العرايس •

وصافحها عصام وهو يبتسم ابتسامته الخجول وقال :

- فى الحقيقة ، حاجه تخلى الواحد يقرر انه يتجوز •

وصافحها على بك زوج جميلة ، وقال وكرشه يتهدج :

- ما شاء الله يا ست هانم ، حاجه عظيمه خالص يا ست هانم •

ووقف الدكتور رمزى متباعدة ، ينتظر انتهاء المظاهرة ، ثم تحول
اليه المستقبلون يصافحونه ويهنئونه •

وتقدمت ليلي الى حيث تقف أمها ومالت عليها وقبلتها ولمعت الدموع
فى عينيها من جديد .

وعزفت الموسيقى . وأمسك رمزى بذراع ليلي وسار بها الى داخل
الحديقة .

وشعرت ليلي بشيء من الحرج وهى تمر بين الموائد المتناثرة فى
الحديقة المزدهمة بالناس ثم زال الحرج .

وقف الرجال ليتملوا منها وهى تمر ، وشعرت بعيونهم تطوف
بوجهها فى حنان ، وكأنها تربت على خدها ، وزغردت سيدة وأفسحت
بزغرودها المجال للتعليقات . وارتفع صوت نسائي يقول « يا روحى
عليها زى القمر » وقال صوت رجل « زى الخوخه ، الخوخه الحلوه » .

وشدت ليلي قامتها وارتفع رأسها وتورد خداها ، وتكور فمها
الدقيق ، وترقرقت عيناها بلمعان وهاج ، شعرت أنها جميلة وأنها
محبوبة ومرغوبة ، وانتشت .

وعند ما اقتربت من المائدة الرئيسية خلعت قفازها وهى تحنى
رأسها الى جانب فى دلال ، ومدت يدها تقطع التورته الكبيرة . وابتدأ
حفل الشاي .

وعند ما مرت السكين فى التورته ، تذكرت ليلي فجأة أن رمزى
بجانبها ، وتطلعت اليه وهى تضحك وقدمت له قطعة من التورته وهى
تنظر اليه فى شقاوة . .

الليلة . . الليلة سيقول لها شيئاً جميلاً ، الليلة . شيئاً يهزها
ويلفهما معا ، ويجعلهما يحلقان عاليا بعيدا عن الناس . الليلة هى جميلة
فى ثوبها الابيض وهو جميل فى بذلته الكحلية . والليلة ليلتهما التى
سيتذكرا فيها دائما ، حين ينفردان فى بيتهما ، يحكى لها ، وتحكى له

الليلة سيمد يده الى يدها من تحت المائدة ، ويمسك بها ويهمس
بشيء فى أذنها ، شيء يجرى الدماء ساخنة فى عروقها . الليلة ستطوف
نظرتها بها كأنها تتحسسها ، وكأنها تربت عليها وكأنها تضمها ، ثم
تنزاح عنها فى ألم ، حين يدرك هو أن النظرة لا تكفى ، لا تشبع الرغبة
فى أن يحتويها فى كيانه .

والليلة ستتوقف الكلمات على لسانه قاصرة مبتورة عاجزة عن تحمل
الحب الذى يطويه لها هذا الرجل الكبير فى جوانحه .

* * * *

ومالت ليل برأسها الى جانب ، وقالت فى خفة وهى تحاول أن تصل
برمزي الى اللحظة التى تنتظرها .

- يعنى ما قلتش الفستان عاجبك ولا لا ؟

- ما قلت .

وتكور فم ليل وهى تمضغ قطعة من التورته .

- يعنى عاجبك ؟

وابتسم رمزي وقال :

- أنا عارف أنت عايزانى أقول ايه ؟ لكن أظن الكلام ده اتقال كفايه
الليلة . بعدين تطلع فىها . .

وقالت فى دلال وعيناها تتوهجان :

- عايزاك تقول ايه ؟

وضحك رمزي

- انك حلوه .

واحمر وجه ليل ، وأطرقت فى حياء وقالت فى صوت هامس :

- يعنى أنا حلوه صحيح النهارده ؟

ووجف قلبها ، وهى فى انتظار الاجابة . وقال رمزي :

- ودى عايزه كلام !

ولكن كان فى رده نغمة من الاستخفاف لم ترتج اليها ليل . وانقبضت
يدها على طرف المائدة وكأنها تتشبث بها .

وقالت وهى تهز رأسها كطفلة عنيدة :

- على كل حال ، أنا ضرورى أكون حلوه ، بالنسبة لك انت على

الأقل ، والا ما كنتش خطبتنى .

وقال رمزى :

- أنا على العموم ما باختارش مراتى على أساس سوقى •
- وسقطت الشوكة من يد ليلي فى الطبق •

وأضاف رمزى :

- المظهر الخارجى ما يهمنىش فى كثير ، الى يهمنى الاستقامه •
- ولم تعاود ليلي الاكل • أبعدت الطبق عنها ، وانقبض وجهها وعيناها تطوفان بالحديقة •

ولاحظت ليلي أن جميلة قد نظمت كل شىء بنفس الطريقة التى نظم بها ليلة الاحتفال بزواجها • الموائد متناثرة فى الحديقة حول الممر ، والانوار الملونة تتلألأ بين الاشجار ، والاوركسترا فى نفس المكان عند مدخل الحديقة ، ونفس الوجوه تتطلع اليها ، والمائدة الرئيسية بالقرب من مدخل البيت ••• مع فارق واحد ••• أنها هى تجلس حول المائدة الرئيسية بدلا من جميلة ، ورمزى يجلس مكان على بك •

* * * *

مالت جميلة على ليلي ورمزى وقالت :

• ايه رأيكم ؟ كل حاجه كويسه ؟

وأشارت ليلي الى البذخ الذى تبدى فى كل شىء ، وقالت فى صوت ضعيف :

• كل ده عشانى ؟ عشانى أنا يا جميلة ؟

• وكأنها تستكشر على نفسها هذا الحفل الباذخ •

• وضحكت جميلة وقالت :

• يا سلام يا ستى ، هو احنا عندنا كام ليلي ؟!

واعتدلت فى وقفاتها ، وقالت وهى تضحك فى استفزاز :

• وعشان كمان الدكتور رمزى ، على الله يكون مبسوط • احنا عارفين ، انه ما يحبش الحفلات ، والكلام الفارغ ده ، ولكن حانعمل ايه بقى ؟ ضرورى ياخذنا على قد عقلنا ••

ولم تفت نبرة السخرية على الدكتور رمزي ، ونظر الى جميلة في غضب • وصعدت جميله لنظرته ، وهي تكتم ابتسامتها •

وذاب غضبه في ابتسامة وقال :

- على العموم يا ستي ، احنا متشكرين •

وهمت جميله بالانصراف ، ثم توقفت ، وكأنها تذكرت شيئاً ، وقالت ليلي وهي تشير بيدها الى الحديقة :

- خدت بالك يا ليلي ؟ أنا عملت كل حاجة زي يوم جوازي تمام •

وتلفتت ليلي حولها ساهمة •

وقالت جميلة وهي تستدير لتصرف :

- تمام يا ليلي ، تمام •

وبدت نظرة حزينة في عيني ليلي وهي تقول :

- فعلا زي يوم جوازك تمام •

ولكن جميلة لم تسمعها ، كانت قد أولتهم ظهرها وهي تتجه الى موائد المدعوين •

وتركز نظر رمزي على ظهر جميله ، وهي تسير في ثوبها الضيق • كانت في ثوب أسود حالك السواد يضم في عنف جسدها الفائر ، يكشف عن جانب من الظهر ، وينفرج ليبرز دقة الخصر ، ثم ينحبس عند الردفين ، وكأنه انحبس منها فجأة في هذا الموضع وهي تلبس ، وسدلت بقيته في صعوبة على ساقيهما البيضاوين المثلثتين في امتشاق وانسجام •

وارتفعت عينا الدكتور رمزي من أسفل الى أعلى ، حيث ينفرج الثوب الأسود عن كتفين مستديرتين كالتفاحتين ، ويمتد ليكشف عن عنق طويل من مرمر •

وغرق رمزي في السواد من جديد ، سواد شعرها الحالك القصير المقصوص في استدارة ••

وراقبت ليلى جميلة وهى تقترب من المائدة التى يجلس عليها صدقى
وعصام وشوشيت . .

كان صدقى يجلس مسترخيا فى مقعده وهو يلعب بسلسلة ذهبية
فى يده ، ولكن وجهه لم يكن مسترخيا كجسده ، كان يتحفز لجميله وهى
تقترب الى حيث يجلس .

وعصام لم يشعر باقتراب جميله ، كان منصرفا الى شوشيت أخت
صدقى ، ينظر اليها نظرتة الحبول ويبتسم فى وجهها ابتسامته غير
المكتملة ، ويحاول ، بلا فائدة ، أن يصل اليها . وهى تجلس غائبة عنه
غارقة فى دخان سيجارتها ، نحيلة رهيفة ليس فى وجهها جمال سوى
جمال عينيها الكبيرتين الحالمتين اللتين تنظران بعيدا ، الى حيث يتطاير
الدخان .

وعصام يحاول ، المسكين يحاول أن يقوم بالدور الذى أسند اليه
دور المغازل ، وهى قريبة منه وبعيدة ، كما لو كانت محبوسة فى دخان
سيجارتها . .

وجميله تميل على صدقى ، وتقدم له قطعة من الجاتو ، وصدقى
يعتدل فى جلسته ، ويهمس فى أذنها بشيء ، وتهز جميله رأسها
بالنفى .

جميله تقول لا ، وتتجه الى المائدة التى يجلس عليها زوجها بكرشه
المنتفخ ثم تطوف ببقية الموائد .

وانتقلت ليلى بنظرتها الى المائدة التى تجلس عليها أمها . . . أمها
قلقة ، تجلس وقد تهدل كتفها ، وترفع عينيها فى حذر وفى خوف
وكأنها تريد أن تنظر الى شيء ، وتخشى أن تتحقق مخاوفها . ولكن مم
تخاف أمها ؟ أتخاف ألا تكون هى سعيدة ؟ لا انها لا تنظر فى اتجاهها .
انها تنظر فى اتجاه اليمين ، فى اتجاه محمود وسناء . .

سناء تجلس مع محمود وحدهما ، ياللجراة ! سناء وقد تورد وجهها
تهمس فى أذن محمود بشيء ، وعينا محمود تلمعان كقصين من الفيروز
ومالت ليلى الى الأمام ولم تستطع أن ترخى عينيها عن سناء ومحمود
وكأنها مربوطة اليهما بخيوط سحرية .

ولمس رمزى ذراع ليلي ورأت صدقى يقف خلفها يهنئها .
وقال رمزى وهو يرقب صدقى يتخذ الاتجاه المضاد ، ويعبر الباب
متجها الى داخل الفيلا .

- أخو جميله ؟

وضحكت ليلي فى سخرية ، وكأنها قد وجدت منفذا لغيظها .
- صدقى ، أخو جميله ، ؟! طبعا لا ، الى ما فيه شبه بينهم !
- فى المظهر الخارجى جايز ، ولكن نفس الشخصيه .
- أبدا ما فيش نسبة ، جميله بنت طيبه وبسيطه ، وصدقى ..
وقاطعها رمزى :

- يعنى عايزه تقولى ، ان جميله شخصيتها زى شخصيتك مثلا ؟
- تقريبا ، احنا متربيين سوا فى بيت واحد .
وهز رمزى رأسه ، وهو ما يزال يحد النظر الى جميله :
- لاء هي حاجه تانيه خالص - وعمرك ما حاتبقى زيها .
ونظرت اليه ليلي فى دهشة ، وضحكت فى ارتباك .
وقال رمزى :

- بتضحكى على ايه ؟

- أصل أنت قلت الجمله دى بطريقه غريبه ، زى ما تكون زعلان
أنى مش زى جميله .

ونظر رمزى الى ليلي طويلا ، وهو يسحب نفسا من سيجارته ، وقال :
- لو كنت زيها ، ما كنتش اتجوزتك .

- ليه ؟ جميله مالها ؟

- أنا ماقلتش حاجه ، جايز هي أحسن بنت . بس مش الطرار الى
ينفعنى ، قصدى كزوجه .

- قصدك الطريقه الى بتلبس وبتزوق بها ؟

- لاء حاجه أعمق من كده ، شخصيتها ، شخصيتها ماتتمشاش مع
شخصيتي .

وترددت ليلي لحظه ، ثم قذفت بالسؤال الذى يعذبها .

- وانت عايز تتجوزنى ، عشان شخصيتى بتتمشى مع شخصيتك؟
ونظرت اليه ، تنتظر أن يلين وجهه ، أن يخبرها أنه يحبها ، وأنه أحبها
دائما .

وقال رمزى فى بساطة ، ودون أن تختلج عضلة واحدة من
عضلات وجهه :

- طبعا ، عشان مطيعه وهاديه ، وبتسمى الكلام .
وتشبثت ليلى ببقية من أمل ، وقالت :
- بس ؟!

- ونوقف تنفسها ، وهى تنتظر الجواب . وقال رمزى :
- أmaal يعنى عشان ايه ؟

* * * *

وخفضت ليلى رأسها ، وانحنت ترقب المائدة بعينين زائغتين، وفى
قدح نصف ممتلىء من الشاي ، لمحت ذبابة غارقة تحاول فى يأس
واستماتة أن تخلص نفسها .

وبحركة لا ارادية ارتفع رأس ليلى ، وتركز كيائها بأجمعه فى مراقبة
محمود وسناء . وتسلسل الى قلبها ألم مفاجئ ، وكأن يدا تعتصره، وكلما
ازداد الألم ازدادت انكبابا على مراقبة سناء ومحمود ، وكأنها تستعذب
الألم وتسعى الى مزيد منه . وعيناها مفتوحتان ورأسها يدور بين سناء
ومحمود ، وكيائها تستوعبه المراقبة . . . محمود قد رقت شفتاه حتى
كادتا تختفيان ، وسناء احمر وجهها ، وأشاحت برأسها فى دلال ، محمود
يميل عبر المائدة ويهمس بشئ ، وسناء تكز على شفتها حتى لا تنفجر
ضاحكة . نظرة محمود تتحسس سناء وكأنها يد انسان أعمى ، وسناء
تسدل جفنيها على عينيها ، وتتحسس بيدها يد محمود من تحت المائدة .
محمود يضع كلتا يديه على المائدة وهو يضحك فى شقاوة ، سناء تنظر
اليه فى دهشة وهى لا تدرك مرماه ، محمود يقول لها شيئا ، ويشير
اليها بيده . عينا سناء تتوهجان وشفثاها الرقيقتان تنطبقان فى تحفز .

سناء تضع يدها على المائدة ومحمود يمسك بيدها بين يديه أمام
الناس ، أمام كل الناس ، فى النور ، ليعرف من لا يعرف أن سناء تحب
محمود وأن محمود يحب سناء .

ومس رمزي ذراع ليلى وقال :

- جرى ايه ؟ با اقولك سرحانه فى ايه ؟

ونظرت اليه ليلى نظرة غريبة وكأنها أفاقت لتوها من حلم • وكأنها نسيت أنه موجود الى جوارها • ولكنه موجود ، موجود فى كل ذرة من الهواء ، موجود وكأنه وحده هو الموجود •

وسرت رجفة باردة فى جسم ليلى • • فى تلاجة ، وينقفل عليها • سناء قالت « الى تتجوزه تتحط فى تلاجه وينقفل عليها » •

ومالت ليلى على رمزي وهى تضحك وكأنها ستحكى له حكاية تستخف بها ، حكاية مضحكة لا يصدقها عقل •

- تصور ؟! سناء ومحمود يضحوا بعض • تصور ؟!

وانكفأ رمزي يراقب سناء ومحمود ، وقالت ليلى فى صوت حاد متقطع وكأنها فقدت القدرة على التنفس الطويل :

- لعب عيال ! مش كده ، لعب ، لعب عيال ، عيال •

وانتابت صوتها فى المقطع الأخير بحة أشبه ببحة البكاء • ولم يعرها رمزي أى اهتمام ، كان اهتمامه منصبا على مراقبة سناء ومحمود وكأنه يجد فى هذه المراقبة لذة •

كان من الواضح أن سناء ومحمود قد قررا أن يتحديا كل الموجودين ، وأن يعلننا عزمهما على الزواج بطريقة لا تحتمل الشك •

واعتدل رمزي فى جلسته وقال فى استنكار :

- فيه خطوبه رسمى ؟!

وضحكت ليلى ضحكات قصيرة محمومة وكأنه ألقى بنكتة • ومالت عايه وكأنها ستفضى له بسر غريب • وقالت هامسة وقد اتسعت عيناها :

- فيه حب • تصور ؟!

وضحكت ضحكة أشبه ما تكون بالنشيج •

واعتدلت فى جلستها • وعادت من جديد تراقب سناء ومحمود وكأنها مشدودة اليهما بخيوط سحرية • ولكنها لم تستطع أن تركز ، كان صوت رمزي يصل اليها من بعيد وكأنه يتكلم من داخل حجرة زجاجية مقفلة • •

- مافيش حاجة اسمها حب • دى الكلمة الى الانسان المتحضر ييقنع بها الغريرة • واللى انت شايفاه قدامك ، اندفاع ، زى اندفاع الحيوان وراء غريزته •

ولكن من حسن الحظ أن الصوت قد توقف • وأنها تستطيع الآن أن تركز ، أن ترقب ، والألم يعصر قلبها ، سناء وقد تورد وجهها وهى تهمس فى اذن محمود بشيء يجعل عينيه تلمعان كقصين من الفيروز •

★ ★ ★ ★

كادت ليلي تقفز واقفة ، عندما شعرت بيدين تستقران على كتفها • وتنبهت حواسها وهى ترى جميلة تقف خلفها مستندة الى المقعد • وقالت جميلة :

- جرى ايه يا ستي ليلي ، هو انت حاتقعدى كاشه كده ؟! مش تيجى تحيى ضيوفك •

واستدارت جميلة تواجه رمزي ومالت برأسها الى جانب • وترقرقت عيناها وتثنى صوتها وهى تقول فى دلال واستفزاز :

- هو الدكتور رمزي من الرجاله الى بيخوفوا ولا أيه ؟

ووجف قلب ليلي والكلمات تخرج من شفتي جميلة • خشيت أن يرد عليها رمزي ردا وقحا أو جامدا بعد كل هذا الذى فعلته من أجلها • ولدهشتها رأت وجه رمزي يحمر ، ولكن ارتباكها لم يدم الا لحظة نفث فيها دخان سيجارته ثم ارتخى فى جلسته • ولمعت عيناها بنظرة جريئة متحدية ودبت الحياة فى وجهه وهو يميل تجاه جميلة ويبتسم ويقول :

- وأنت ، مابتخافيش ؟!

وهزت جميلة رأسها بالنفى •

وضحكت ضحكات قصيرة متقطعة اهتز لها جسدها • وطافت عينا الدكتور رمزي بالجسم الفائر الناضج تزنه فى لهفة وفى ظمأ • وكأنه يدير بين يديه كوبا من الماء المثلج بعد طول ظمأ • ثم استند بظهره الى مسند مقعده وضافت عيناها واهتزت ساقاه هزات رتيبة وهو يقول :

- أبدا ؟! أبدا ؟!

وخرجت كلماته سميكة وكأن شيئا ما يثقلها •

ومالت جميله بنصفها الأعلى الى الأمام ، وأسندت يديها الى فخذيها
وقالت وقد توهج وجهها :

- أنا ما أخافش • أنا أخوف بس يا دكتور رمزي •

ورأت ليلي عيني رمزي تستقران في نهم على الخط الذي يفصل بين
نهدى جميله ، وشفتاه تتكوران في ابتسامة كريهة أشبه بتكشيرة حيوان
مفترس •

ووصلت الى آذانها أصوات الموسيقى ، وهي تتوالى في ضربات
سريعة متلاحقة مجنونة •

وقال رمزي وهو يمسح بلسانه شفتيه وكأنه يتلمظ :

- بيتهياً لك •

وكانه يقول :

- استنى على ، الزمن بينى وبينك طويل ...

ورأت جميله نظرة رمزي ترتجف على نهدىها ولحظت أنه لا يستطيع
بحال أن يستقر في جلسته ، وانتشيت •

واعتدلت قامتها وضحكت في انتصار وهي تقول :

- على العموم ، كفايه عليك ليلي تخوفها •

واستدارت ومضت • نسيت ما جاءت من أجله ومضت وردفاها
يهتزان أكثر مما يهتزان عادة حين تمشي ، وكأنهما انفصلا عن جسدها ،
وكانما أصبح لهما كيان منفصل ، كيان رجراج جياش فوار لا يمكن
التحكم فيه •

وتوقفت جميلة أمام باب الفيلا مترددة •

وتحركت شفتا ليلي وهي تنادىها ، ولكن لم يخرج من حلقها
صوت ، وكأنها فقدت القدرة على النطق •

ولم يدم تردد جميله طويلا ، سارت الى الفيلا وردفاها يرتجفان ،
وعبرت الباب ، واختفت في المبنى •

ولمحت ليلي الذبابة وقد طفت على قدح الشاي ، ماتت وطففت على
السطح • وجعلت ترقبها وهي لا تفكر في شيء ولا تشعر بشيء وفي عقلها
خواء وفي كيانها خواء •

وارتفعت ضجة من المدعوين كالعاصفة المكبوتة واندفعت الى الحلقة راقصة متشحة بوشاح أحمر طويل وازدادت ضربات الموسيقى جنونا وعنفا وتتالى التصفيق متتابعاً متلاحقاً وعلت الصرخات المجنونة ونشرت الراقصة وشاحها الاحمر ، وبدأت تدور حول نفسها دورات سريعة .

وفقدت الأشياء توازنها ، وبدأت الموائد تهتز أمام عيني ليلى والناس والأشجار ، وبدأ الجدار من خلفها يتمايل ويهدد بالانهيار ... ورفعت ليلى يديها الى رأسها وكأنها تحجب عنها لظمة متوقعة . وقال رمزى وهو يهز كتفها :

- مالك ؟ مالك يا ليلى ؟

واستقامت الأشياء أمام عيني ليلى وبدأت تستعيد حواسها . وشلها خوف قاتل حين تعرفت على صوت رمزى وهو يقول :

- انت ضرورى تعبت من الدوشة ، فى الواقع حاجة تدوش ..

وانقبض وجه ليلى وهى تحاول أن تزيع عن خدها ذبابة حطت عليه . ولكنها لم تجرؤ على تحريك ذراعها ، بقى مدلى الى جانبها كطن من الحديد الى أن أمسك محمود بيدها .

* * * *

تشبثت ليلى بيد محمود فى جنون ، وأطبقت عليها بكل قوتها ، وكاد محمود يصرخ وهو يقول :

- آيه يا ليلى ؟ فيه آيه ؟

- خدنى ، جوه .

وقال رمزى :

- ليه ؟

وقالت ليلى فى صوت ضعيف وكأنها تعتذر :

- شويه ، شويه .

وظايت تردد هذه الكلمات فى سرها ومحمود يسحبها الى داخل الفيلا . ولحقت بهما سناء فى البهو ، ووجهها يتوهج ، وأمسكت بوسط ليلي وهى تقول :

- هنيئى يا ليلي ، هنيئى . دى اللحظة الى كنت طول عمرى با استئناها .

وحركت ليلي شفثيها وهى تحاول أن تبتسم ولكن جاءت حركتها أشبه بالحركة التى تسبق البكاء . . ورأت صورة حسين وهو يلمس ذراعها ويقول :

- أنا مستنيك يا حبيبتي طول عمرى مستنيك .

واندفعت تجرى على السلام وكأن انسانا يطاردها . وهمت سناء باللاحاق بها ولكن محمود قال لها وهو يمسك بيدها :

- سبيها يا سناء ، أصلا متضايقه شويه .

* * * *

وفتحت ليلي أول باب صادفها فى الدور الثانى وانهارت على أول مقعد قابلا ، وهى تلهث . ووجدت نفسها فى دورة المياه الملاحقة بغرفة نوم جميله . وجلست وصدرها يتهدج وهى تحاول أن تستجمع أفكارها .

ولكن صوتا ما كان يصم أذنيها ويفتت أعصابها ويحول بينها وبين التركيز . وتلفتت ليلي حولها وأدركت أن الصوت صوت ماء مكتوم ينتفض فى الماسورة . وحاولت أن تنصرف الى التفكير من جديد ولكن الماء المكتوم كان يتحسرج بشكل كريبه ، يتحسرج كحشرة مريض يحتضر . وتحاملت ليلي على نفسها وسارت الى الحوض ومالت على الصنبور وفتحته . وانفجر الماء المكتوم وهو يغلى فى حشرة ضخمة . . حشرة كريبه مخيفه ، ثم سكن وهو ينساب فى هدوء . .

وشعرت ليلي بهدوء يتسالى الى جسدها المنهك . ورفعت قامتها وصفا عقلها وأدركت فجأة الموقف كاملا بكل تفاصيله . وكان الغشاء قد انزاح فجأة عن عقلها وعن عينيها . وهمست فى يأس : أعمل إيه ؟ أعمل إيه يارب ؟!

ووصلتها أنغام الموسيقى من الحديقة ممترجة بأريج الياسمين .
ولحت وجهها فى المرأة ، وجه ميت . ومسحت بيدها على وجهها . .
أمامها العمر كله لتفكر ، أما الآن فيجب أن تخفى ذلك الوجه الميت
عن الناس وأن تنزل لتواجه رمزي ولتواجه الناس ، لتواجه المصير الذى
اختارته لنفسها . الأمر بسيط ، بسيط للغاية . . مزيد من البودرة
ومن الأحمر ثم لا يعرف أحد ، لا يدرك أحد أن تحت المساحيق وجه
ميت .

وسارت ليلي الى باب دورة المياه المؤدى الى مخدع جميلة ، وشعرت
يقدميها تضعفان تحت ثقل جسمها ، وكأنها مريضة منذ شهور . ودفعت
الباب ودخلت الى الحجرة . .

* * * *

كانت جميلة ممتدة على الشيزلونج وجفناها مسدلان على عينيها
وكانها نائمة . وعلى الأرض يركع صدقى ، ظهره الى ليلي ونصفه الأعلى
ممتد فوق جسد جميله ، ووجهه مدفون بين نهديها ، وكأنه نائم بدوره .
ورأت جميله ليلي أولا حين ارتد باب الحمام الى مكانه محدثا أزيزا . رأتها
واتقدت عيناها كراهية وغضبا . وربتت على كتف صدقى ليقوم ولكن
ذراعيه التفتا حولها فى تشبث . وامتدت كراهيتها اليه ، مدت يديها
وانتزعت ذراعيه فى عنف عن كتفها وهى تصرخ فى صوت مكتوم :

- قوم .

واستدار صدقى وهو ما زال فى جلسته وبدأ عليه الارتباك حين
رأى ليلي ، ثم قام ، وشبه ابتسامة تحوم حول شفثيه وكأنه قد وجد
شيئا مسليا يدعو الى الابتسام ، ولكنه لا يبتسم تأدبا ومجسرة
للاخرين .

وسارت جميله الى مائدة الزينة وهى تعطى ظهرها ليلي ووقف
صدقى فى وسط الحجرة وهو يسوى شعره بيده .

وقالت جميلة بنفس الصوت المكتوم دون أن تستدير :

- أخرج .

وهز صدقى كتفه وسار الى باب حجرة النوم ، وأدار المفتاح فى

الباب وخرج . كان باب الحجره موصدا ، ولم يخطر ببال جميله أن أحدا سیدخل حجرتها عن طريق دورة المياه .

وفتحت جميله صندوقا خشبيا موضوعا على مائدة الزينة . وأخذت منه سيجارة وأشعلتها بيد مرتجفة وسحبت منها نفسا ، واستدارت تواجه ليلي :

- اتفضلي ، اشمي ، حاضريني عن الفضيلة ، عن الخيانة والانحطاط .

ولم تتكلم ليلي ، نظرت الى جميله وكأنها لا تراها ، وكأنها تنظر خلالها . وبدأت جميله تتمشى في الحجره كالنمر الحبيس ، تخطو عدة خطوات قصار ثم تستدير وتخطو نفس الخطوات لتستدير من جديد :
وتوقفت فجأة وقالت :

- ما تتكلمي ، ما بتنطقيش ليه ؟ ولا ما يصحش ؟ ما يلقش انك تكلمي واحده زيبي ؟!

وربعت يديها على صدرها :

- معلوم ! واحده زيك محترمة ، مرات الأستاذ . . الأستاذ المحترم الى . .

ولم تستطع جميله أن تكمل . انفجرت تضحك ضحكات خالية من المرح ، ضحكات عصبية قصيرة متلاحقة متتالية كادت تحول بينها وبين التنفس . وانطوى الجزء الأعلى من جسمها الى الأمام وهي تسند يدها الى بطنها تهديء من ضحكاتها ، واستطالت الضحكات وأصبحت أكثر حدة وكأنها أنات ثم هدأت .

واعتدلت جميلة وهي تقول في فرح وحشي :

- الأستاذ بتاعك الى زى الكلب ، ريقه يجرى على كل عظمه . .

وشدت قامتها وهي تتقدم من ليلي وأشارت بيدها وهي تقول :

- عارفه صدقي الى خرج ده ، أشرف منه ، على الأقل مش عامل اله ، على الأقل ما بيخبيش حقيقته .

ورفعت جميلة السيجارة الى فمها وأخذت نفسا عميقا ، وأخذت
تتطلع الى حلقات الدخان وهي تلتف بعضها فوق البعض ، ثم قالت
بصوت عميق هامس :

- تفهمى ايه انت فى الدنيا ؟! تفهمى ايه ؟! تفهمى ايه الى تقاسيه
الست لما تعيش مع راجل بتكرهه ؟ علموك دى فى الكتب ؟ فهموك دى ؟!
وانهار صوت جميلة وهي تنطق الجملتين الاخيرتين وامتلأت عيناها
بالدموع وازداد صوتها ارتجافا وهي تسنطرد :

- تعرفى ايه الى تحس بيه الست لما تشعر انها بقت زى الخرقه
القديمة ؟ نشفت .. جسمها نشف وقلبها نشف . لائن ما حدش
بيبص لها وعنيه بتلمع ، ما حدش بيقول لها : أحبك ؟ ..

وتوقفت جميلة لحظة عن الكلام ثم دوى صوتها مرتجفا متحشرجا
يائسا ..

- أعمل ايه ؟ .. قوليلي أعمل ايه .. ؟!

وتشنج وجه ليلي وهي تحاول أن تتكلم ، ولكن فمها استدار دون
أن يخرج منه صوتا .

وقالت جميلة وهي تبتسم فى مرارة :

- الطلاق ؟ .. مش كده ؟ .. بسيطه !

وأشارت بيد ترتجف الى السرير وهي تقول :

- على السرير الى قدامك ده نمت ثلاث أيام بين الموت والحياة ..

بلعت أنبوبة الاسبرين ، وأمى قالت مش عايزه فضايح . كانت فاهمه
أيه معنى انى استنى مع راجل ما بيحبنيش وما با أحبوش ، ومع
كده صممت ..

وسكتت جميلة ثم بدأت تضحك ضحكاتها الهستيريه المتلاحقه

- أمى .. أمى أنا .. مش عايزه فضايح ، أمى ، أمى مش عايزه
فضايح !!

وسكتت عن الضحك فجأة وضافت عيناها وقالت :

- وأنت ؟ وانت يا ست يا محترمه ، يا بتاعة المبادئ ، لو كنت مطرحى تعملى أيه ؟ حا تعملى أيه ؟

وبدأ صوت جميلة وهى تسأل هذا السؤال مرتفعا مليئا بالتحدى ثم انخفض ، واختفت نبرة التحدى وكأنها تسأل ليلي ، سوألا مجرد سؤال :

- حا تعملى ايه . . ؟

وكانها أدركت بحاستها أن ليلي تقف نفس الموقف الذى تقفه وأن لا بد لها أن تنتهى الى نفس النهاية . .

واهتز كيان ليلي بصرخة مدوية ، وتقدمت الى جميلة وهى لا ترى شيئا ، تتحسس طريقها كالعمياء ، وعند قدميها سقطت مغميا عليها .

* * * *

. . وبعد فترة عبرت ليلي وجميلة باب الفيلا الى الحديقة وعادت ليلي الى مكانها وانخرطت جميلة وسط المدعوين . ولم يلحظ أحد شيئا كانت جميلة قد أخفت وجهها خلف المساحيق وكذلك فعلت ليلي

ولكن لو دقق الانسان لوجد شيئا لم تستطع المساحيق أن تخفيه النظرة الحزينة المستسلمة فى عيني جميلة والنظرة الحائرة القلقة التى تبحث عن مخرج فى عيني ليلي ولكن لم يدقق أحد ، لم يهتم أحد الاهتمام الذى يدفع الى التدقيق .

* * * *

وبعد أيام تلقت ليلي خطابا من حسين يقول فيه :

عزيزتى ليلي . .

تلقيت خطابا من محمود يخبرنى فيه أن خطبتك قد أعلنت لأحد أساتذتك . . وبالإمسي كتبت لك خطابا هجونا ثم مزقته . أتصدقين أنى ما زلت أحبك ؟! . .

واليوم أشعر أنى فى حالة أفضل تمكنتى من التفكير السليم ولذلك أكتب اليك لأهنئك . وبالرغم من كل شىء فأنا سعيد من أجلك أنت يا عزيزتى ، سعيد لأنك استطعت أخيرا أن تدفعى الباب وأن

تنطلقى • لقد استطاع هو أن يفعل ما فشلت أنا فيه ، استطاع أن يحررك من قيودك وأن يعيد اليك ثقتك بنفسك وبالناس • • أليس كذلك ؟ • • ولا بد أنك تمضين الآن فى الطريق المفتوح باللمعة فى عينيك وبالأشراق فى وجهك ، الأشراق التى كادت تجعلنى أصرخ فى المصعد •

لا تقلقى بشأنى ، فأنا بخير ، لم أنهر حين أرسلت الى خطابك الجاف ، ولم أنهر حين سمعت خبر خطوبتك • • فأنا أعمل وأحيا من أجل حب أكبر من حبنى لك ، حبنى لمصر ولشعب مصر • وما دام ذلك الحب يعمر قلبى فلن انهار ولن أكف عن العمل • ومنشأ الصعوبة أن حبنى لوطنى كان قد اختلط بحبنى لك ، حتى أصبحت أنت رمزا لكل ما أحبه فى الوطن • وعلى الآن أن أحاول أن أنتزعك من فكرى ومن خيالى ومن دمي

لا تتألى من أجلى ولا تلومى نفسك فأنت لم تشجعينى بل بالعكس فعلت كل ما يمكن أن تفعله إنسانة رقيقة حساسة مثلك لتثبيط همتى • • ولكن ماذا أفعل ؟ ماذا أفعل فى الفكرة المجنونة التى سيطرت على فكرة أنك لى وأنى لك مهما طال الزمن ؟ ! • • ان الخطأ الوحيد الذى ارتكبته هو أنك جعلتنى أراك ، وأنت جميلة وأنت رقيقة وأنت • • وأنت • • أنت •

فاذا أردت أن تكفرى عن خطئك ، دعينى أراك مرة واحدة حين أعود الى الوطن وأملأ عينى منك مرة أخيرة وأنت تمضين فى الطريق المفتوح والأشراق فى وجهك واللمعة فى عينيك • •

حسين عامر

٢٠

عين محمود طبيبا فى المستشفى الاميرى ببور سعيد ، وبعد أسابيع من استلامه العمل جاء فى زيارة الى القاهرة ، وكان يجلس على مائدة الغذاء يوم الجمعة مع أسرته حين رفع رأسه عن الطبق وقال :

- على فكرة • • أنا حا اتجوز • •

ووجف قلب ليلي وهى ترقب وجه أبيها والانفعالات تتوالى عليه • • بدا وجهه أول الأمر جامدا و كأنه لم يفهم كلام محمود ثم انهار ، تدلى

طرفا فمه وغزا عينيه حزن عميق وأطبق جفنيه على عينيه وامتدت يده
الى الفوطة يخفى وجهه خلفها وهو يتظاهر بمسح فمه • وحين رمى
بالفوطة جانبا كان وجهه قد ارتد جامدا كما كان وان عراه بعض
الاحتقان ••

وترك الأب ثواني من الصمت تربض على الموجودين قبل أن يقول
فى هدوء مصطنع :

- بتقول ايه •• ؟

• ونظرت ليلي الى أخيها وشفتاها ترتجفان ، تنتظر منه أن يتكلم وكأن
مصيها معلق على الكلمات التي ستخرج من شفتيه • وتكلم محمود :

- با أقول حا اتجوز ••

وارتخت ليلي فى جلستها والتمعت عينها بالدموع ، انتشت •
وكانها هى التى واجهت أباه بهذه الجسارة وبهذه البساطة •• ان الامر
بسيط للغاية ، ما عليها الا أن تهز كتفها كما هزها محمود وتسلط
عينها فى عيني أبيها وتقول •• ماذا تقول ؟

ودوى صوت أبيها مرسلا الرجفة الى جسدها :

- حضرتك موزب كل شىء وجاى تقول لى ؟ وعلى ايه ؟ على ايه
تتعب نفسك ؟! ما هو أنا طرطور •• مش كده •• ؟!

- أرجوك يا بابا ، أرجوك تفهمنى

- أنا لا أبوك ولا أعرفك أنا برىء منك •

وأطبق محمود عينيه يا ئسا ، وهو يدق بيده اليسرى على المائدة

وقال أبوه ونغمة العتاب تتسلل الى صوته :

- طول عمرى با اربيك ، وأصرف عليك دم قلبى علشان لما تكبر
تقف على رجلك ، وتساعد أمك وأختك الى على وش جواز • وتوما
بقيت بنى آدم عايز ترفسنا ، عايز تتجوز •

واحمر وجه الأب حين أدرك أن الضعف قد تسلل الى صوته وانقلبت
نبرة العتاب الى نبرة سخرية :

— بدل ما تساعدنى دلوقت عايزنى أساعدك عشان تتجوز ، مش كده ٠٠ ؟

وواجه محمود أباه فى اعتزاز :

— أنا مش عايز مساعده من حد •

وثار الأب لهذه الجملة كما لم يثر من قبل • وكأن استغناء ابنه عن مساعدته أمر لا يطاق ولا يحتمل • واتسم كلامه من ذلك الحين بسخرية مرة :

— وحاتتجوز ميني يا حضرة الدكتور ٠٠ ؟

وتجاهل محمود سخرية أبيه وقال وهو يحاول أن يصل الى قلبه

— يا بابا البنت الى حا اتجوزها ممتازة وطيبه ، ومتعلمه وبنت عيله حتى اسأل ليلي عنها •

وانكمشت ليلي فى مقعدها حين تركزت عليها نظرة أبيها قاسية متسائلة ، وكأنه يحملها مسئو لية هذه المصيبة التى نزلت بهم • وضربت الأم كفا بكف وقالت :

— صاحبته يا سيدى ٠٠ أمال ؟ الست ليلي جلابة الهنا ، طول عمرى أقول الاختلاط ما يجيبش الا المصايب وآدى آخرتها •

وانزاحت نظرة الأب عن ليلي واستقرت باردة على محمود :

— والعيلة دى حاتأخذك على ايه ؟ ٠٠ حاتدفع مهر كام وشبكة كام؟

وقال محمود بصوت مكتوم :

— أنا حا اتجوز البنت مش حا اتجوز العيله ٠٠

واسترخى الأب فى جلسته وقال :

— بقى كده ؟ هى بقى من اياهم ؟! من الى ماشيين على حل شعرهم!

وغطى محمود وجهه بكفيه وهو يحاول أن يسيطر على نفسه • لقد توقع كل ذلك وأكثر ، ويجب أن يحول بين سيل الكلمات الجارحة التى تتكون فى عقله وبين الانطلاق •

ودوى صوت الأب :

- والله والله لو كانت دى بنتى لكنت قتلتها ، قتلتها قتل .

واستقرت نظرتة على ليلي حامية مهددة . وسرت الرجفة فى جسدها
تحت وقع نظرتة . . هل خمن شيئا ؟ مستحيل . كيف يستطيع أن
يخمن ؟ احساسه الأبوى ؟ احساسه الأبوى حقا « أى احساس ؟ ان
حائطا ضخما وقف دائما بينه وبينها وكأنهما لا يتكلمان نفس اللغة
وكانهما . .

وأزاح محمود يديه عن وجهه ، قال بصوت مؤدب يعلن به انتهاء
المناقشة :

- أنا آسف يا بابا ، ولكن يظهر حضرتك مش حاتقدر تفهمنى .

ولكن محمود لم يستطع أن يقلت بهذه البساطة . تعمد الأب أن
يمد فى المناقشة :

- مين يقدر يفهمك ؟ مين يقدر يفهم ان انسان مفلس زيك ، متخرج
أول امبارح ، عايز يتجوز ويفتح بيت ويربى عيال ويحمل مسئوليات .

وارتخت ليلي فى جلستها . . لا لم يخمن ، لا هو يستطيع أن
يخمن ما يدور فى فكرها ولا أى انسان ؟ ولا هى حتى تستطيع أن تصف
شعور الاشمئزاز الذى سيطر عليها فى كلمات تبدو للناس مقبولة
ومعقولة . ماذا تقول ؟

ان القناع قد سقط وتحت القناع طين . أن نظرة رمزى زحفت
كالشعبان على صدر . . .

وقالت الأم بصوت مرتجف :

- يا بنى كل حاجة لها أصولها واللى يمشى على الأصول ما يتعبش .

وأغمضت ليلي عينيها . . ماذا تقول ؟ لو قالت لأمها عن الطريقة
التي زحفت بها نظرة رمزى على نهدي جميلة لضحكت أمها وقالت
ببساطة :

- كل الرجالة كده . أمال انت فاكره ايه ؟

ماذا تقول ؟ ومن يستطيع أن يفهمها حين تقول ان نظرة رمزي التي زحفت كالشعبان كشفت لها عن فسادها وعن كل الفساد ، فسادها هي التي ارتضت هذه الزيجة ، وفساد جميلة وفساد عصام الذي ارتضى أن يلعب دور البهلوان ، وفساد صدقي الذي يبحث لنفسه كل يوم عن فريسة ليثبت لنفسه أنه رجل ، وليثبت للعالم الخارجي أنه بطل مغوار . وفساد أم جميلة . وفساد أمها هي التي قبلت أن تعيش على الخوف خوفا من كلام الناس ، وفساد أبيها الذي يؤمن دائما أنه على صواب . . وفساد كل أصولهم ، كل أصولهم . .

وقال محمود :

— يا ماما الأصول اتغيرت ، الزمن بيتغير والأفكار بتتغير ، حاولوا انكم تفهموا .

وكان من المستحيل أن يفهما ، واعتصم الأب بغرفته بعد أن هدد بقطع كل علاقة بينه وبين محمود . ولجأت الأم الى الدموع .

وسافر محمود الى بور سعيد وفي يوم الخميس التالى حضر الى القاهرة ولم يزر عائلته ، ولكنه زارها يوم الخميس الذى يليه . ووجد الدكتور رمزي فى انتظاره .

كانت الأم قد طلبت منه أن يتدخل ليعيد محمود الى صوابه . وانفرد رمزي بمحمود فى حجرة الاستقبال والأب ما زال يعتصم فى حجرته والأم مع ابنتها فى الصالة ينتظران .

* * * *

وراحت ليلي تذرع الصالة جيئة وذهابا وعيناها تتطلعان فى قلق الى الباب المغلق، وخوف غامض يعصر قلبها ، خوف من أن يستسلم أخوها لقوة هذا الرجل الذى انفرد به . واستولت عليها رغبة جامحة فى أن تسمع كل كلمة يقولها أخوها ، وكأن مصيرها هي معلق على هذه الكلمات . وانحرفت الى باب غرفة محمود ، وقالت أمها وهي تستوقفها:

— رايحه فين ؟

— حا اجيب كتاب من مكتبة محمود .

ودخلت الغرفة وتسلمت الى الباب الزجاجى الذى يفصل غرفة محمود عن غرفة الاستقبال ، و التصقت بالحائط تتبين الحديث الدائرين الرجلين . واعتراها خجل طارىء من تلصصها ، زال حين تبينت نبرات صوت رمزى . لم تسمعه قط يتكلم بهذه الطريقة ، صوته مرتخ معسول منخفض ، صوت صديق يحكى لصديقه ، ولا بد أن ملامحه مرتخية الآن والصندوق الزجاجى الذى يغلف وجهه قد زال . كم وجها لهذا الرجل ؟! معها هى اله ، ومع جميلة طفل يسيل لعابه ، ومع محمود صديق قديم يحكى ..

- أنا حا احكيلك حكاية يا محمود ما قلتهاش لحد قبل كده ، ولكن انت أخويا الصغير ، ومش ممكن أبخل عليك بتجربة من تجاربى .. لما كنت طالب فى الجامعة حببت بنت ساكنه فى الدور الى تحتى ، وبقيت أقعد بالليل فى الضلعة أسمع أم كلثوم وأعيط ، وأسهر للصبح وأنا با اكتب قصيده شعر لحبيبتي ، وأنزل ألتقيها مستنيانى على السلم بمريلة المدرسه ، أعطيها القصيده وكل حته فى جسمى بترتعش . وفاتت الايام وابتديت أخرج معاها وحبى لها بيزيد يوم عن يوم ، والدنيا جميله فى عينى . ونويت انى أتجوزها بمجرد ما أخرج ، ماكانش ممكن أتصور نفسى عايش يوم واحد من غيرها ..

واتسعت حدقتا ليلي فى دهشة وابتلعت ريقها .

واستأنف رمزى كلامه ..

- وفى ليله كان أهلها مسافرين وفتحت لى الباب ...

وقمت من على الكنبه ، وبصيت لها وهى لسه متمدده ، وعرفت فجأة أن حبى لها خلص . خلص فى اللحظة دى . وتانى ليله لقيت الباب مردود قفلته بايدي ، و نزلت سكرت ، وجيت وش الصبح لميت عفشى وعزلت من الحته كلها ..

وكتمت ليلي صرخه كادت تنطلق من فمها ، وشعرت برغبة فى أن تهرب من الغرفة ، ومن البيت بأكمله . ولكنها بقيت مسمره فى مكانها مشدوده الى الباب الزجاجى المغلق ، وكأنها مشدوده الى هوة بقوة لا تملك لها دفعا ..

واستمر رمزى يتكلم :

- ومن يومها عرفت ان مافيش حاجة اسمها حب . فيه اشتها ،
والاشتها بينتهى لما الانسان ياخذ الى عايزه . والاشتها حاجة
والجواز حاجة تانيه . .

وترددت فى رأس ليلي فكرة واحدة ، فكرة ثابتة تنخر فيه كالمسمار
والبنت ؟ البنت ؟ ايه اللي حصل للبنت ؟

وقال محمود فى برود :

- أنا مش فاهم انت بتحكى الحكايه دى ليه . . . ؟

وغطت ليلي وجهها بيديها . . لم يردد محمود تساؤلها ، لم يخطر
مصير البنت ببال أحد ، حتى محمود ، وكأن بين هذين الرجلين سابق
اتفاق على ان البنت التى تخرق الأصول لا تستحق مجرد التفكير . .

وقال رمزى فى تردد وهو يحمل كلامه أكثر من معنى .

- يعنى ضرورى الجواز يا محمود؟ مافيش طريقه تانيه ؟ مش يمكن
تكون نزوه وتفوت وتدفع تمنها غالى . .

وكزت ليلي على شفتها السفلى بأسنانها . . السافل . . السافل ،
وتمنت أن يصفعه محمود ، لا أقل من أن يصفعه محمود ردا على
اقتراحه المسموم . .

ولكن محمود لم يصفعه ، فاته المعنى المقصود ، وقال فى جمود :

- أنا مش عيل يا دكتور رمزى ، أنا عندى قدره على الاختيار وعلى
الثبات على اختياري . .

وقال رمزى :

واضح ان مناقشتنا انتهت ، بس قبل ما اقوم من هنا عايز
أحكىلك حكاية افكرتها دلوقت وانت بتتكلم

وقال محمود فى تأدب :

- تفضل .

ولكن كان من الواضح أنه لم يعد يهتم أدنى اهتمام بما يقوله
رمزى ، على العكس من ليلي ، تنبعت حواسها كالفأر الذى تطبق عليه

المصيدة ، وتصلب جسمها وجمد وجهها، وكأنها هي وحدها مع رمزي .
وهو يتكلم وهي تنفعل بكل كلمة ، وتثير في خيالها كل كلمة حشدا
من الصور والعبارات ، من الماضي ومن المستقبل ، ومن هنا وهناك .
صور وعبارات تتزاحم وتتراكم وتختلط حتى تصبح بلا معنى . وحزن
موجع يربض على صدرها وكأن كلمات رمزي أصابع تطبق في بطنها على
عنقها لحظة بعد لحظة .

- الحكاية دي عن زميل لي اتجوز من خمس سنين ، كان متحمس
كده زيك ، واتجوز على حب واحد زي متحمسه وثايره ، وتحدوا كل
العقبات اللى قابلتهم ، وكل المجتمع من حوالهم ، واتجوزوا ، وعاشوا
فى شقه مافيهاش الا طرابيزه وسرير مله، وطبعا الحب والقيم الجديده!
وتحققت كل نظرياتهم ، كل نظرياتك . الزوج والزوجه حاجه واحده،
مافيش بينهم أسرار وعلاقتهم قائمه على المحبه وعلى الصدق والصراحه .

- على الخوف مع رمزي حيا أعيش . . على الخوف . ويوم بعد يوم
دمى حائشف من الخوف ، الخوف اللى راح والخوف اللى جاى . .

- وحتى نظرياتك عن الجنس تحققت ، الجنس والزواج حاجه
واحد ، والجسد والروح حاجه واحد . وكل مايطول بهم الزمن يحبها
اكثر ويدرك اكثر أنها جزء منه ، وانه جزء منها ، وأنهم حاجه واحد .
والفرحه كانت بتلمع فى عنين صاحبي وهو قاعد وسطنا ، وبمناسبه
ومن غير مناسبه يجيب سيرة مراته « مراتى قالت كده ، مراتى رأيها
كده » .

كان سعيد والناس عرفوا انه سعيد ، وقالوا « الغربال الجديد له
شده » . ولكن سنه قاتت وهو عنيه لسه بتلمع ، ولسه بيقول مراتى .

الناس ابتدوا يشعروا بحاجه غريبه ، حاجه غير متمشيه مع
قواعد المجتمع اللى هم عايشين فيه ، حاجه مضحكه وابتدوا يكتموا
ابتساماتهم قدامه ويضحكوا عليه من وراءه . . .

- فضايح ! مش عايزه فضايح ! أمى مش عايزه فضايح . . .

- وصاحبنا ولا هو هنا ، أخذ مراته وسافر أوروبا ، كان عايز
يقتسم معاها كل تجربه مرت عليه قبل كده ، وبعد ما رجع ، كنت أنا

وهو ينتعشى فى مطعم ومعانا بعض الأصدقاء ، وبعد ما شبعنا ابتدئنا نتكلم ، طبعاً عن الستات ، واحد يحكى والباقي يسمع ، والحكاية الى بيحكىها ، كان يمكن تحصل لهم أو يمكن لسه حا تحصل لهم ، أو حصلت لهم فعلاً حكاية مشابهه ...

- فى المطبخ ... الضلمه ... الكنبه *

- وحكاية تيجر حكاية ، والمتحدث بيتغير ، والكل منسجم زى ما نكون أعضاء فى جمعية متفاهمين على أدق أسرارها ، أو تروس فى ساعه ماشيه على نمط واحد ، فى اتجاه واحد ما بيتغيرش ، اتجاه واحد مفهوم. وواضح ومنطقي ومتسلسل ...

- واللى يعرف الأصول ما يتعبش ...

- وجه الدور على صاحبنا ، وابتدت عنيه تنعم ، وملامحه تنعم وهو بيحكى عن تجربته انفعّل بها فى غايه من غابات انجلترا الجميله . مع مراته !! وبعد ثلاث سنين من جوازهم * وبلمنا ...

- فضايح ! مش عايزه فضايح ! أمى مش عايزه فضايح ...

- كلنا بلمنا * فيه حاجه وقفت فى تروس الساعه ، حاجه عطلت ، حاجه قلبت الاتجاه العام المنطقي المفهوم * وواحد منا لخص الموقف وقال « بعد ثلاث سنين من الجواز ؟ مستحيل !! » والتانى فضّل يضحك لغاية الدموع ما نزلت من عنيه . وكملنا كلامنا وشعر صاحبنا انه غريب ، انه معزول عن دايرتنا وقام .

- « لا تنجسى فى الدائرة الضيقة يا حبيبتي ، انها ستضيق عليك حتى تخنقك » ...

- ومن يومها صاحبنا بطل يتكلم عن مراته ، وابتدأ يشعر بالخرج فى مجلسنا ، وفى كل المجالس * ابتدأ يشعر انه غير متجانس ، وانه معزول . عن الدايره الكبيره ، وابتدأ يحترق ...

- خلاص يا ليلي انا لقيت حل • لقيت حل يا حبيبتي • • « البت الخدامة ؟ أصلها واخذه على عصام ، صاحبتة يا ستي ! »

- وبعد مدة لما ابتدا يتكلم عن مراته تانى ، لقي الى يسمع له والى يجد كلامه مفهوم • كان بيتكلم عن الزوجات ومتاعب الزوجات • وهى الست عايزه آيه أكثر من بيت وأولاد وزوج يقوم بواجباته الزوجية ؟! الست عايزه آيه ؟!

- تموت زى صفا او • • • تعمل زى جميله

- ومن كام يوم لقيت صاحبنا متصدر مجلس ، وبيتكلم بثقه ، وعنيه بتلمع ، والكل بيسمع له • شديت كرسى وقعدت • • • كان بيحكى على آخر مغامرة من مغامراته •

ووقفت ليلي فى وسط الحجرة ترتجف بعجزها وبكراهيته وبثورتها ، وقال رمزى وقد تسلل الى صوته الحزن :

- ما فيش مخرج • صدقنى يا محمود ما فيش مخرج •

ولم تستطع ليلي أن تكتم صرختها هذه المرة ، وكالمجنونة دفعت باب الحجرة وخرجت مندفة

وأكمل رمزى حديثه بعد أن تغلب على نبرة الحزن التى تسيلت الى صوته :

- كلنا تروس فى عجله كبيره ، والعجله بتمشى ، واللى يحاول يعطلها بيتحطم ، والشاطر الى يفهم الموقف واللى يستفيد منه •

وبدت فى عينى محمود نظرة حزينة كالنظرة التى تبدو فى عيون الناس وهم يرقبون غروب الشمس ، ولكنه ما لبث أن ابتسم وقال وهو يقف :

- أوكد لك يا دكتور رمزى انى مش حا انهزم زى صاحبك •

وكالمجنونة اقتحمت ليلي غرفة نوم أبيها وهى تصيح فى صوت متحشرج :

- بابا ..

وهب الأب من سريره مذعورا والكلمات ترتجف على شفثيه :

- فيه ايه ؟ فيه ايه ؟

وشل القلق قواه ، ووقف يرتجف وهو ينظر الى سحنتها المنقلبة
والى عينيها اللتين تتأججان فى وجهها • وقف ينتظر منها أن تتكلم ، أن
تخبره أن كارثة ما قد حلت بهم ..

وأشارت ليلي بيدها اشارة هستيرية تستبعد بها هذا الاحتمال
وقالت :

- مافيش • مافيش حاجه •

وغشى على الأب لحظة ، والدم يعود الى الجريان فى عروقه بعد أن
توقف • وعندما بدأت رؤيته الى الأشياء تستقيم قال :

- ولما مافيش حاجه ، ازاي تتهجمى على بالشكل ده ؟ ازاي تدخل
على من غير استئذان ؟

وقذفت ليلي بالجملة التى تكونت فى عقلها دفعة واحدة وكأنها تخشى
ألا تخرج أبدا ان لم تقذف بها هكذا :

- عايزه أكلمك فى موضوع جوازي •

وسمعت ليلي كلماتها وهى تتكلم كلمة ، كلمة ، وكأن انسانا آخر
هو الذى تكلم ..

وعصر الخوف قلب الأب • وأدرك أنه على شفا كارثة أفدح من كل
الكوارث التى مرت به ، وأن عليه أن يستجمع كل قواه ليواجهها •
وضاقت عيناه الرماديتان ولمعتا بلمعان رهيب وهو يرقب ابنته ويقول

- عايزه ايه ؟

ولم يكن فى صوته غضب ولا رائحة الغضب • كان صوتا ثلجيا
معدنيا وكأنه يصدر من آلة مشروخة :

- عايزه ...

ولم تستطع ليلي أن تكمل ، كان يقترب منها بخطوات قصيرة

آليه ، وبوجه جامد وبجسم متصلب ، وكأنه آله مسلطة عليها ، آله تقترب منها فى بطء لتسحقها :

- عايزه أيه أنت كمان ؟

وعكس صوته يأسا أعمق من يأسها • يأسا تخطى مرحلة الغضب ، يأس رجل فقد كل شيء ولم يعد له ما يفقده ، رجل لا يتورع عن شيء • • وفى عينيه رأت ليلي نظرة قاتلة ، قاتلة بلا غضب ، قاتلة وباردة • وقالت بصوت مخنوق وهى تمد يدها الى رقبتها وكأنها تحميها منه :

- ولا حاجة • • ولا حاجة • •

وأرادت أن تتراجع الى الوراء بظهرها • ولم تستطع أن تتحرك • شلها الخوف واستمرت تتمتم :

- ولا حاجة ولا حاجة يا بابا يا بابا •

وعند ذلك النداء انحسرت النظرة القاتلة عن وجهها • واستدار الأب وهو يهز رأسه وكأنه يفيق من كابوس مرعب •

وتراجعت ليلي بظهرها الى الباب وهى تمسح وجهها بيديها وتتمتم بصوت مرتجف • • ولا حاجة ولا حاجة • •

وقال رمزى وهو يسد الباب مخاطبا الأب :

- ما فيش فايده •

وارتجفت ليلي من قمة رأسها الى أطراف أصابعها • واستندت الى مقعد بجوارها حتى لا تنهار على الأرض • واستدار الأب يواجه رمزى وعلى شفته ابتسامة واهنه وقال بصوت متداع :

- أنا كنت عارف ، كنت عارف ان مافيش فايده ، ربنا يعوضنا

فيه خير •

واحتدت عينا الاب وهو يسلط نظرتة على ليلي ويقول :

- ربنا كريم ، ربنا عوضنا فعلا ، خسرنا عيل وكسبنا راجل • •

واستقرت نظرتة على رمزى • •

- كسبناك يا بنى •

وفى تلك الليلة تمنى ليلى وهى نائمة على السرير أن تموت . .
 تمنى أن تغمض عينيها وتنام ويصبح الصبح ولا تفتحهما ، تمر ، تهرب
 فى سلام بلا مشاكل ولا عنف ولا شجار . .

ولكن الناس لا يموتون هكذا ، لا يغمضون عيونهم ويموتون ، لابد
 من شيء يسبب الموت . المرض ؟ التيفود مثلا ؟ نعم ، التيفود مرض
 سهل ، مرض لطيف يخدر الانسان . تنام على السرير وتغيب عن الوعي
 يوما بعد يوم وكأنها تنزلق فى هدوء وفى سكون . وحول سريرها
 وجوه تحجرت فيها الدموع تتشبث بها كأنها سدود تحول بينها وبين
 الانزلاق ، بينها وبين الأحلام . ثم تنأى الوجوه وتلفها سحابة تتكاثف
 حيناً بعد حين وتزول السدود . .

وانزلقت ليلى الى النوم، الى الأحلام، وفى أول الليل نامت نوما هادئا
 مليئا بالأحلام الهادئة . وهى الآن ممددة على ظهر باخرة فى وسط
 البحر لا تدرى الى أين هى ذاهبة ومن أين هى آتية . لا تدرى من هى ،
 لا ماضى لها ، ولا مستقبل . لا تدرى شيئا سوى أنها مستلقية على ظهرها،
 وسكينة حلوة فى قلبها ، وبحر أزرق كاللانهائية يحيطها ، وأشعة
 الشمس تتراقص على سطح المياه الزرقاء فتلتصع كفصوص من الماس
 وتراقص على جسدها المدد فتدغدغه وتسلمه الى خدر لذيذ .

وهى الآن تدفع بابا أمامها وتدخل حديقة ، حديقة لم تر مثلها
 طوال حياتها ، حديقة بيضاء ، الزهور فيها بيضاء ، والأشجار متوجة
 بالبياض ، بحر ممتد من الزهور البيضاء، زهور غريبة طويلة طول قامة
 الانسان ، طويلة وبيضاء وشامخة وجميلة . والزهرة تميل على الزهرة
 فى حنو ورقة تربت عليها وتكاد تهمس ، وكأنها انسان .

وليلى تمر بين الزهور والزهور تتمايل عليها وتربت على خدها
 وتسكرها بعيرها ، فتجرى وهى تضحك ضحكات قصيرة متقطعة ،
 وتصل الى نهاية الحديقة منتشية مليئة بسعادة فوارة لا تكاد تتحملها .
 وتجلس على مقعد تحيطه شجرة ياسمين تتساقط زهورها على رأسها
 وتمد يدها لتلمسه فاذا بالياسمين قد انتظم فى تاج يحلى شعرها .
 وترتخي ليلى فى جلستها وهى ترقب بحر الزهور .

وتنفرج الزهور عن طفل يجرى فى اتجاهها - طفلها - وتحتضن ليلي ابنها فى شغف ، وتجلسه فى حجرها ، وتهدا الفورة فى جسمها وتستحيل الى سكينه حلوة . وفى عبادة صامته تتحسس ذراع طفلها ذراعه البيضاء بياضا شفافا وكأن النور يتسلل منها . وتود لو استطاعت أن تجلس انعم هكذا تنظر فى عبادة صامته الى ابنها وهو فى حجرها . ولكن الطفل لا يريد أن يستقر ، يريد أن يلعب وأن يجرى وأن ينطلق ، أن يستكشف الدنيا الجميلة من حوله . وتقبله فى فمه الرقيق اللين قبله أخيرة وتطلقه .

ويقف الابن تجاهها ، ويحدث شئ عجيب ، شئ عجيب يحدث أمام عينيها ، يكبر ابنها وينمو ويطول ويتحول الى رجل . رجل أسمر طويل يشع منه النور كما كان كان يشع من جسد ابنها .

من هو ؟ من هو هذا الرجل الذى يطالعها بابتسامة لا تقاوم ؟ أنها قطعا تعرفه ، ولكن من هو ؟ انها تعرفهما . تعرف هاتين العينين السوداوين ، تعرفهما وهما مفعمتان بالقوة والصلابة والاعتداد . وتعرفهما حين تذوب فيهما الجراءة والصلابة والاعتداد وتصبحان ناعمتين هكذا حانيتين هكذا . لمن ؟ لو عرفت ! من يكون هذا الرجل الذى يطالعها بابتسامة لا تقاوم .

وتكد ليلي عقلها وهى تتعرف عليه وكأن حياتها كلها تتوقف على هذه المعرفة . ويصل الى مسمعها صوت كالهزيم ، هزيم العاصفة . وتسرى رجفة الى يديها ، وترى الظلام قد ساد الحديقة ، وابنها وقد اختفى ، ابتلعه الظلام ، ولم يعد يبدو منه الا شعاع من نور يلعب فى الأفق البعيد .

وتجلس ليلي على المقعد يعذبها شعور مبهم بالاثم ، شعور لا يلبث أن يتجمع ويتبلور ويطفو على السطح . لو عرفت ذلك الرجل لما ضاع ابنها ، ولما هبت العاصفة ، ولما ساد الظلام .

واشتدت الريح هبة بعد هبة ، وكأنها سوط مسيط على الحديقة ، على الزهور البيضاء الجميلة . ولكن الزهور البيضاء تمايلت تفسح له الطريق وتعود أطول مما كانت وأجمل وأكثر اعتدادا ، حتى الظلمة لم تستطع أن تغرقها ، شقتها الاغصان المتوجة بالبياض وكأنها تباشير الصبح تبدد الظلام . واندحرت العاصفة وساد السكون .

ثم اندفع الباب ودخل الحديقة جمع كبير من الرجال والنساء يتقدمهم رجل فى بذلة سوداء • وفى خطوات بطيئة متزنة تقدموا ، رؤوسهم مرفوعة وأجسادهم متحفزة وكأنهم جاءوا فى مهمة •

وتسللت ليلي هاربة واختفت خلف امتداد شجرة الياسمين بحيث تراهم ولا يرونها •

ومن بعيد رأت الرجل ذا البذلة السوداء يشير للجمع الذى يتبعه اشارات متعددة دون أن ينطق • ورأت الجمع يتفرق بنفس الخطوات المتزنة الثابتة لينتظم على شكل حلقة تحيط بالورود البيضاء • وفى وسط الزهور وقف الرجل ذو البذلة السوداء وأشار بيده إشارة البدء • وفجأة أومضت فى الظلمة مناجل جديدة لامعة تهتز فى الأيدي • من أين جاءوا بها ؟ لم يكن فى أيديهم شئ •

وبدأ الرجال والنساء يجتثون الزهور الجميلة فى نظام وروية وبالتدريج ، وضربة بعد ضربة ، وصفا بعد صف تهاوى السيقان الشامخة على الأرض هامة • والرجال والنساء يتقدمون صفا بعد صف وضربة بعد ضربة ، يتقدمون بوجوه جادة وعيون حزينة ، وكأنهم يؤدون مهمة ثقيلة على أنفسهم ولكن لا بد لهم من أن يؤدوها •

والرجل ذو البذلة السوداء يشير اليهم كلما تباطأوا ، ويبتسم ابتسامة كريمة شبيهة بتكشيرة الحيوان المفترس كلما سقط صف من الزهور ، وكأنه لا يستريح الا اذا سقطت كل الأزهار الشامخة تحت قدميه جثة هامة •

وناح طائر من بعيد ، واعتدلت امرأة والمنجل يلعب فى يدها اليمنى ومسحت بيدها اليسرى دمة انفرطت من عينها • وانحنى تجتث الزهور من جديد ••

وكتمت ليلي صرخة كادت أن تفلت منها •• هذه المرأة انها تعرفها • انها تعرفها •• أم صفاء ، دولت هانم ، أم صفاء •••

وانزاح الغشاء عن عيني ليلي ، وهى الآن ترى كل الوجوه بوضوح ، وجوه رجال ونساء ، وجوه الرجال نظيفة محلوقة ووجوه النساء لامعة من أثر المساحيق • وبين الوجوه الكثيرة المتشابهة تستطيع الآن أن تتبين وجوها تعرفها •• فهذا هو أبوها وهذه هى خالتها أم جميلة ، وهذا الرجل الذى يلبس البذلة السوداء والذى يوليها ظهره •• لا بد أنه

هو ، لا بد •• واستدار رمزي بوجهه في اتجاه ليلي وكأنه يؤكد لها أنه هو ••

وأطبقت ليلي فمها حتى لا تصرخ وازدادت تشبثا بشجرة الياسمين التي تختفي خلفها •

وعندما اندحر بحر الزهر الأبيض كالبساط على الأرض نحي الرجال والنساء مناجلهم جانبا • وبدأ الرجال يرصون الطوب على شكل حلقة واسعة • وانحنى النساء على الزهور يجمعنها حزما ، واحتضنت كل امرأة حزمة في صدرها كما تحتضن وليدها وسارت بها الى الحلقة التي بناها الرجال • وفي حنو أنزلت كل واحدة حرمتها وسجتها على الأرض وتراجعت •

وأشعل الرجل ذو البذلة السوداء النار في حزم الزهور ، ووقف الرجال والنساء جنبا الى جنب في حلقة واسعة متراسة يرقبون الزهور وهي تحترق •

وفي وهج النار بدت وجوههم متشنجة بالألم والعرق يلتصق فوق جباههم وكأن جزءا منهم يحترق في النار • ولكن أحدا منهم لم يتحرك متمموا بالدعوات وبقوا متسمرين في أماكنهم يتساند بعضهم على بعض • وبدأت الأغصان تجف وتتكسر وتحدث صوتا أشبه بصوت النواح •

ومن المؤخرة شقت الصفوف امرأة مسدلة الشعر ، واندفعت تريد أن تلقى بنفسها في النار •

وعلت غمغمة غضب من الجميع • وأعاد بعض الرجال المرأة الى الحلقة ، وساد الاطمئنان للجميع من جديد • وكأن من الضروري لسلامتهم ألا يتحرك أحد ، وأن يقفوا هكذا ، مثبتين بالأرض ، جنبا الى جنب يتساند بعضهم الى بعض •

وتحولت الزهور الى رماد وتأججت النار مزغردة ثم بدأت تخبو ، ولم تعد تظهر الا في جهات متفرقة ضعيفة مائلة الى الزوال • ولكن الدخان كان يجثم في كتل ضخمة بشعة كريهة على وجه السماء وعلى وجه الأرض وعلى الصدر يكاد يسحقه •

واستيقظت ليلي مذعورة وهي تعاني شعورا بالاختناق •

ومضى الزمن ، الزمن الذى ما يزال يوما بعد يوم يكسر من حدة الأحداث ويمط فى خيوطها ويكرر ، حتى تصبح ككل شيء متشابه مكرراً . جزءا لا يتجزأ من الحياة اليومية ، جزءا يحاول الانسان أن يتقبله بدلا من أن يدفعه .

ولم تنتحر ليلي كما أرادت ، ولم تهرب كما انتوت ، ولم تنفجر رغما عنها فى وجه رمزي كما خشيت . ولم تعد حتى تبكى فى فراشها كل ليلة ، ولم تعد تتصور معارك وهمية مع أمها وأبيها ورمزي فى أحلام اليقظة .

تبلدت حواسها وكأنها تحت تأثير مخدر دائم ولم تعد تنفعل بشيء ، حتى رمزي لم يعد يثير فى نفسها هذه الكراهية العنيفة المتأججة . انكسرت مع الأيام حدة كراهيتها له ، وأصبحت تحتمله بنفس الطريقة التى تحتمل بها أوامر أبيها وتأنيب أمها .

ولم يبق لها شيء سوى مرارة دائمة فى حلقها ، مرارة تصبح عليها وتمسى عليها ، وانسحابية فى الصدر تغشاها كلما انفردت بنفسها فى مكان ضيق ، انسحابية كالانسحابية التى يشعر بها الانسان عندما يكتشف فجأة أنه فقد - بلا رجعة - شيئا ثمينا لا يعوض . وكانت ليلي تنبه لهذه اللحظات حين تجد نفسها تتمتم بلا وعى .

— قوينى يا رب . . قوينى

من أين يأتى هذا النداء ؟ من أى أعماق يطفو فجأة هكذا ؟ دائما نفس النداء . ولم تطلب العون من الله ؟ ليقويها على احتمال مصيرها ؟ أم ليقويها على تغييره .

ولم تكن ليلي تتوقف لتسأل نفسها هذه الأسئلة أو لتفكر . كان من الأساسى لها فى هذه الفترة ألا تتوقف وألا تفكر . وبلا وعى راحت تحتمى من الألم وكأنها تخشى أن تمس جرحا غائرا فينفجر منه القيح محدثا ألما لا تقوى طاقتها البشرية على احتماله . وبلا وعى نظمت حياتها بحيث لا تتوقف ولا تفكر .

كانت تذهب الى الكلية وتعود محملة بكتب استعارتها من المكتبة وأغلبها مجموعات قصص قصيرة ، لا لأنها تفضل القصة القصيرة على غيرها من ألوان الأدب ، بل لأن القصص القصيرة تتطلب في القراءة تركيزاً أقل مما تتطلبه الرواية مثلاً . وما أن تنتهى من الاستذكار حتى تفتح الكتاب وتقرأ .

وكأى مدمن للقراءة تظل تقرأ وهى لا تستمد أى لذة ولا تنفعل أقل انفعال بالعمل الفنى ومع ذلك تقرأ ، صفحة بعد صفحة ، وقصة بعد قصة . وتنسى القصة حين تبدأ التالية ، ولا تتذكر أحداثها مهما كنت ذهنها الا اذا أعادت تقليب الصفحات . وكالآلة تقرأ وعينها مكدودتان ورأسها يدور وشيء ما يثقل صدرها وهى تقرأ فى سرعة وفى نهم وبأنفاس متقطعة وكأن انساناً ما يقودها بسوط .

ويسقط الكتاب من يدها وتطفىء النور وتنام وتستيقظ كالمخدرة لتواجه الحياة من جديد .

ويوما بعد يوم يتكاثر الأثاث فى البيت ، أثاث بيتها . .

ويوما بعد يوم تلف وتدور فى المحلات خلف جميله وأمها ، ولا تتدخل الا للحد من اسرافهما . كانت تشعر بشعور من الاثم وكأنها تسرق كل قرش يدفعه أبوها فى تأثيث البيت الجديد .
وتقف جميلة مبهورة أمام ببلعة من السلع وتقول :

- ايه رأيك يا ليلي ؟

وتهز ليلي كتفها بلا مبالاة وتقول :

- أى حاجة . .

وتحتد جميله :

ب هو انت مالتيش رأى فى حاجة أبدا . .

فى الماضى كان لها رأيها ، كانت عندها فكرة واضحة عن البيت الذى تريده لنفسها ، وكانت حتى تستطيع أن تراه بعينيها . بيت حجراته قليلة ولكنها واسعة ، وحجرة الجلوس مفروشة ببساط لا سجادة ، بساط من اللون الرمادى يمتد من الحائط للحائط . ومقاعد وأرائك

مريجة مكسية ووسائد متناثرة على الأرائك ، وسائد زاهية ومتعددة الألوان وأثاث متناثر فى الأركان يترك راحة يتنفس فيها الانسان .
أما الآن فكل شيء يستوى لديها . .

كل شيء يستوى لديها الآن ، سواء اشتغلت عقب تخرجها بالصحافة كما أرادت دائما أو اشتغلت بالتدريس كما يريد رمزى .
لم يعد اشتغالها بالصحافة يبدو أمرا هاما كما كان يبدو من قبل .

لقد أرادت دائما أن تتخذ من الكتابة مهنة ، وأن تعبر عن نفسها وعن الناس من حولها . وكتبت فعلا وقيل لها انها تستطيع أن تكتب . وحتى وهى تتكلم كان الناس يلاحظون قدرتها على التعبير عن أدق أفكارها . وكان زميل لها يتحمس كلما سمعها تتكلم ويقول « ضرورى تكتبى ، أنت خلقت عشان تبقى كاتبة » . وكانت تكتب ، وتحلم باليوم الذى تصبح فيه كاتبة .

ولكن كل ذلك كان زمان . وما من شيء يهمها الآن . ثم أنها لا تستطيع أن تكتب الآن ، بل أنها لا تستطيع حتى أن تتكلم بوضوح .
فالكلمات تتوقف على شفتيها وتلعثم ولا تستطيع أن تكمل جملتها .
وأحيانا ترد على الأسئلة التى توجه اليها بردود غريبة لا تنبئ الى غرابتها الا عندما ترى الدهشة فى عيون من حولها . ثم أن مهنة التدريس مهنة سهلة لا تتطلب تفكيرا عميقا ولا قدرة خاصة . تحضر المدرسة الدرس وتلقيه وتنتهى مهمتها وكل شيء يستوى لديها .

يستوى لديها أن تتزوج بعد استلامها لعملها كمدرسة فى سبتمبر ١٩٥٦ كما يريد رمزى أو فى يولييه بعد تخرجها مباشرة كما يريد أبوها .
ان أباهما يستعجل زواجها برمزى . منذ ذلك اليوم وهو يستعجله ، منذ ذلك اليوم وهو يعيش فى قلق . .

* * * *

وبعد زواج محمود بأيام لمح الأب لرمزى برغبته فى عقد القران وتجاهل رمزى تلميحه . وعاد الأب وصرح برغبته ، وقال رمزى أنه يفضل أن يكون عقد القران والزفاف فى يوم واحد ، وأن التفكير فى تحديد ذلك اليوم قبل تخرج ليلي سابق لأوانه .

وسكت الأب على مضض وراح يوجه الى ليلى بين الحين والحين نظرات فاحصة كأنه يقيس مدى قوتها • وترتد نظراته عنها راضية • ولكنه لم ينس أبدا اليوم الذى دخلت عليه فيه - كالمجنونة - صارخة وكمن القلق فى نفسه •

ولكن هذا القلق كان يطفو على السطح حين يجىء محمود من بور سعيد لزيارتهم زيارته القصيرة المتقطعة •

كان شيئا ما قد تقطع بين هذين الرجلين • شيئا كان رقراقا وجميلا ومؤثرا ، ذلك الشيء النادر الذى كان يجعل الكلمات على شفتى الابن تشير الدموع فى عيني الأب ، والذى كان يجعل الابن يفهم فى لمحة ، ودون حاجة الى كلام ، كلمات الأب •

تقطع ذلك الشيء وأصبحا الآن رجلين غريبين مؤدبين • يسأل الأب عن صحة ابنه وعن عمله ويجيب محمود فى أدب • ثم لا يجد الأب ما يقوله لابنه ولا يجد الابن ما يقوله لأبيه • وتتقطع أسباب الحديث بينهما كما تنقطع بين الاعراب ، ويحاول الأب جاهدا أن يمد حباله ويفعل محمود نفس الشيء •

وفى عقل الأب طوال الوقت نفس الشيء ، الشيء الذى لا يتناوله الحديث ، والذى لا يمكن أن يكون أصيلا نابعا من القلب دون أن يتناوله •

كان الأب قد حرم على من فى البيت طرق موضوع زواج محمود بسناء وكأن هذا الزواج لم يكن •

وفى عقل الأب وفى عقل الابن طوال الوقت نفس الشيء ، الشيء الذى لا يتناوله الحديث ، والذى لا يمكن أن يكون أصيلا نابعا من القلب دون أن يتناوله •

وكان هذا الاحساس يؤلم محمودا • فقد أحب أباه ربما أكثر مما أحب أى انسان آخر •

وفى يوم زواجه عندما ناداه أبوه الى حجرتة ساعة عقد القران ودس فى جيبه مئتي جنيه بكى كالطفل وهو يهم باحتضانه • ولكن

أباه أبعد عنه في برود . طعنه وقلبه وكيانه بأجمعه متفتح له وكان أحوج في هذه اللحظة الى حب أبيه منه الى نقوده ورفض أبوه أن يهبه الحب رغم أن الحب لا يكلفه شيئاً ورغم أن المال قد كلفه الكثير ، علم الله كم كلفه !

وفي اليوم الذي كان عليه فيه أن يسافر الى بور سعيد مع زوجته، في الوقت الذي عليه فيه أن يبدأ حياة جديدة وقف أمام حجرة أبيه يقرع الباب ليودعه . ولكن أباه ترك الباب مقفولا يفصل بينهما وما زال الى الآن مقفولا .

وفي كل مرة كان يسأله :

— عايز فلوس يا بنى ؟!

وفي كل مرة كان يجيب :

— متشكر يا بابا

وبوده دائما أن يقول :

— مش عايز حاجه الا أنك ترجع تحبنى زى ما كنت بتحبنى

ولكن مثل هذه الكلمات لا تقال . ثم ان الحب لا يستجدى . وهو اما موجود أو غير موجود . حب أمه له مثلا لم يتغير أبدا ، هي دائما كما هي بوجهها الصبوح وبحبها الكبير الذي تخجل من ابدائه ويلمساتها الخجلة وبعينيها الصغيرتين اللتين يتغلب عليهما القلق والحنان . وأخته أخته ليلي تحبه ، بل أن حبها له قد تضاعف في الأيام الأخيرة . ولكنها قد تغيرت ، تغيرت وكأن ماء الحياة قد جف منها .

هل حدث تطور في علاقتها برمزي ؟ أن سناء تقول أنها تحبه وأنها تقدره ، وأن ربنا فوق وهو تحت بالنسبة اليها . ولكن لماذا تتجنب الحديث عنه هكذا ؟ ولماذا تغيرت ؟ هل اكتشفت أن رمزي لا يحبها ؟ هل اكتشفت أنه غير قادر على الحب ؟ منذ ذلك الحديث مع رمزي وهو غير مطمئن . وقد أراد أن يتدخل ولكن سناء منعتة . قالت ان أى تحطيم لرمزي هو تحطيم مباشر ليلي لأنها تؤمن به ايمانا راسخا . ولكن ماذا حدث ؟ هل تزعزع ايمانها ؟ هل تحطم الاله أمام عينيها ؟! هل عرفت فيه الانسان الذي يخفى احتقاره لنفسه تحت مظهر من

القوة ، والذي يبرر ضعفه بنظريات عقيمه ؟ الانسان الذى ينمو على حساب الآخرين - كالنباتات المتسلقة ، والذي لا يشعر بالثقة الا اذا سحق كل ارادة تنصدى لارادته . الانسان الانتهازى الذى يكرس ذكائه و آدمية من حوله من الناس ليحقق أغراضه الشخصية والنفعية . هل زالت الغمامة ورأته على حقيقته ؟

ولكن لماذا هى راضخة ؟ لماذا هى مستسلمة لا تتكلم . . ؟ لقد حاول جاهدا أن يجعلها تتحدث عن نفسها وعن زواجها المقبل وحياتها المستقبلية ولكنها كانت تهرب منه دائما ، وتجعله هو يتكلم عن نفسه وعن سناء . وحين يفعل تحيره بتصرفاتها . تمسك بيده بين يديها وتشرق دموعها وابتسامتها فى نفس الوقت . وتنظر اليه فى عبادة صامتة وكأنه بطل من أبطال الأساطير . وفى مرة شحبت ابتسامتها فجأة وارتسم الخوف فى عينيها ومالت عليه هامسة وهى تقول :

- حاسب على سناء يا محمود ، حاسب على سناء .

وسألها فى حيرة :

- خايفه من أيه ؟ خايفه من أيه بس يا ليلي ؟

واعتدلت فى جلستها وقالت فى مرارة وهى تنظر بعيدا :

- مش كفايه انك تبنى حاجه جميله يا محمود . المهم انك تحافظ على جمالها .

ومالت عليه وهى تقول فى كلمات متقطعة :

- دايم يا محمود ، دايم .

وهى تكاد تختنق بعاطفتها ، وكأن حياتها تتوقف على سعادته هو وسناء ، وكأن سعادتها هى لا تهمها شخصيا ولا تهم أحدا .

وهى تعزو هذا التغير الذى طرأ على صحتها لآلام فى معدتها :

- ما بااهضمش يا محمود ما بااهضمش .

- يعنى أيه ما بهضميش ؟

- تو ما آكل أحس بنار فى صدرى وصداع فى راسى .

— أصناف معينه الى تتعبك ؟ البيض مثلا واللبن ..

١. — كل حاجه ، حتى العيش الحاف •

وفحصها أكثر من مرة ولم يستطع أن يرجع الآلام التي تشعر بها الى سبب عضوى واحد ، المرارة سليمة والكبد غير متضخم وليس هناك تقلصات فى القولون تدل على وجود مصران مزمن وليس هناك .. ومع ذلك فهي تتأوه متوجعة كلما مس جدار بطنها مساً سطحياً •

ونزع محمود السماعة من على أذنيه • وقال وهو يحد النظر الى ليلي :

— الأعصاب يا ليلي ، أعصاب المعدة تعبانة •

وأفصحت نظراته عن عشرات من الأسئلة •

وارتجفت شفتا ليلي ثم أشاحت بوجهها بعيداً عنه • وجلست فى السرير وقالت متضاحكة وهي تعدل ثيابها :

— الأعصاب ؟! هو الدكاتره ما عدش حيلتهم الا حكاية الأعصاب ولا دى الكلمة اللي بتقولها يا محمود لما ما تعرفوش تشخصوا المرض • ولكنه لم يضحك • انتوى ألا يتركها تفلت منه هذه المرة •

— مالك يا ليلي ؟ فيه ايه ؟ قوليلي ، أنا أخوك •

وأغمضت ليلي عينيها وتقلص وجهها وكأنما تلقت صفة •

ودخلت أمها الحجرة •

وألقى محمود السماعة فى الحقيبة فى غضب .. ان أمه تدخل دائماً فى اللحظة غير المناسبة ، وكأنها مكلفة بذلك .. ربما كان أبوه يخشى من انفراده بليلى ..

وقالت الأم :

— ايه يا بنى ، لقيت ايه ؟

وقال محمود وهو ما زال غاضباً :

— الأعصاب يا ستنى ، أعصابها تلفانه خالص ؟!

وقالت الأم غير مصدقه :

- أعصاب ١٩ أعصاب ايه يابنى ١٩

واستبعد الأب هذا الاحتمال فى استخفاف حين قال :

- كلام فارغ •

* * * *

ولكن قلق الأب تزايد • وصمم على مفاتحة رمزى فى موضوع تحديد موعد للزواج ، ان ليلى مقبلة على امتحاناتها النهائية ولم يعد هناك أى داع للتسويق •

وجلس الأب ينصت الى رمزى وينتظر ثغرة يتسلل منها الى الموضوع •

ولم يكن من السهل ايجاد هذه الثغرة •

كان لرمزى قدرة على تركيز الحديث حول نفسه ، حول المؤامرات التى دبرت ضده وأحبطها ، والخطط التى رسمها ونجحت ، والكتب التى كتبها والتى ينتوى كتابتها ، والانتصارات التى أحرزها ، والانتصارات التى سيحرزها •

وكان لرمزى أيضا القدرة على احاطة حديثه بأهمية تبلغ مسنوى القداسة وكأن مصير العالم كله يتوقف على النقطة التالية من الحديث ، على الخطوة التالية التى سيتخذها ليسحق أعداءه سحقا نهائيا ••

وكان من المستحيل والأمر كذلك أن يقاطعه الأب • لو فعل لكان هذا قطعا أمرا خارجا على حدود اللياقة • واستطرد رمزى فى كلامه والأب يتململ ، وتوقف رمزى ليستجمع أفكاره ، ولم يطق الأب صبرا ، اندفع يتكلم ••

لا ، لا داعى للاستعجال ، كل شىء يجب أن تعد له عدته ويجب أن يحسب حسابه بمنتهى الدقة • اختيار المسكن مثلا عملية هامة ، عملية يجب أن تتم على أسس سليمة ولا يمكن أن تتم قبل أن تلتحق ليلى بعملها الجديد • فالمسكن يجب أن يكون أقرب ما يمكن الى مكان عملها حتى تستطيع أن ترعى شئون البيت • والنظام أساس الحياة الزوجية ، وهو لا يتساهل أبدا فى موضوع النظام هذا ، فهو يريد

لبيته أن يسير كالآلة ، كل شيء فى مكانه وكل شيء بميعاد • فكيف يتأتى لليل أن تقوم بكل هذه المهام ومقر عملها بعيد عن البيت ؟!

لا • الزواج فى يوليه أمر سابق لأوانه • والمسألة ليست سلق بيض • المسألة يجب أن تكون مدروسة من كل النواحي •

وماذا يقترح ؟! انه يقترح أن تتم كل الاستعدادات اللازمة ويترك تحديد موعد الزواج لحين تعيين ليل •

ولكن الأب لم يرضخ هذه المرة • فهو يرغب فى تحديد موعد ولو بعد شهر • المهم هو تحديد الموعد ، فهو لم يعد يطيق هذا الموقف المعلق •

وتحدد أول أكتوبر سنة ١٩٥٦ موعدا لزواج ليل برمزي •

ولم يسترح الأب الى هذا التأجيل الذى ليس له ما يبرره • ان التأجيل يعنى الانتظار ثلاثة شهور وأكثر • ومن يدري ماذا يحدث فى ثلاثة شهور ؟ ان ليل فتاة طيبة ولكنها تحت تأثير سىء ، تأثير محمود والمرأة الأخرى •

ولو علم الأب أن ليل تقابل سناء يوميا وتقضى معها أطول ما يمكن من وقت لتزايد قلفه •

٢٣

كانت سناء قد استقرت فى القاهرة لتأدية امتحاناتها النهائية • وبعد كل امتحان كانت تتجه هى وليل الى ركنهما القديم خلف المكتبة • وعلى العشب تحت ظل الشجرة الكبيرة تجلسان • وفجأة يعود كل شيء كما كان زمان - رائعا • وتعود ليل فتاة لاهية تضحك من أعماقها حتى تنفرط الدموع من عينيها

وتقول سناء فجأة :

- وازى رمزي ؟

وتقول ليل وهى ما تزال تضحك :

- سحق نص العالم ولسه قدامه النص التانى .
وسرح نظر سناء بعيدا ، وراحت تقتلع العشب من الأرض حزمة
بعد حزمة . ثم قالت دون أن تنظر الى ليلي :
- ما تسيبيه يا ليلي .
وتنهدت ليلي وقالت فى هدوء :
- كل واحد بياخد نصيبه يا سناء
واعتدلت سناء تواجهها :
- ما فيش حاجة اسمها نصيب . احنا الى بنصنع نصيبنا . .
وقالت ليلي
- وأنا اللي صنعت نصيبى بأيدى .
- مفهوم . ولكن دا مايبررش أنك تنتحري .
ومالت عليها ليلي وقالت بصوت هامس وكأنها تفضى لها بسر :
- صدقيني يا سناء . أنا ما استاهلش أحسن من كده .
- أنت غلطانه ، أنت بنت . .
ومدت ليلي يدها تسد فم سناء وهى تقول بصوت فاصل :
- ما تتعبيش نفسك يا سناء . أنا عارفه نفسى كويس . .
وأزاحت سناء يد ليلي عن فمها فى رقة . وأمسكت بها بين يديها
وقالت :
- ومحمود ؟ محمود ما يقدرش يساعذك يا ليلي ؟
وانتزعت ليلي يدها من بين يدي سناء . وقالت وهى تضحك ضحكة
مرة :
- محمود ؟! يقدر يحيى الموتى وهى رميم .
وأمسكت سناء بركبتى ليلي وكادت تصرخ وهى تقول :
- ليه ؟ ليه يا ليلي ؟ ليه بتكرهى نفسك بالشكل ده ؟

- لأن دى هى الحقيقة •

وسارت سناء وليلى فى اتجاه باب الجامعة الخارجى وقد علا وجهيهما الوجوم • وعندما مرتا بحذاء الموائد المتناثرة فى الحديقة توقفت سناء فجأة واستدارت تواجه ليلي • ونعم صوتها ولعت عيناها وهى تقول منغمة :

- عارفه يا ليلي ؟ عارفه مين زارنا فى بور سعيد ؟

وسرت رجفة فى قلب ليلي ثم تركزت فى رأسها ، وكأن سلكا كهربائيا مكشوفاً قد مسها • وقالت بصوت هامس :

- مين ؟

ولم تكن فى حاجة الى أن تسأل • فقد عرفت ، عرفه دمها الذى تدفق الى قلبها ثم تركز فى رأسها •

وقالت سناء فى انتصار :

- حسين ••

ودون حاجة الى اتفاق سابق انحرفت الصديقتان الى مائدة من الموائد المتناثرة وجلستا حولها •

وطلبت سناء زجاجتين من الكوكا كولا ، وانتقلت من موضوع حسين الى موضوعات أخرى وكأنها تعتمد تعذيب ليلي • ويد ليلي ترتجف على الكوب وعشرات من الأسئلة تتوارد على ذهنها ، ولكنها لا تسأل وتنتظر واجفة القلب أن تعود سناء الى موضوع حسين ••

وعادت سناء الى موضوع حسين ، وأجابت عن كل الأسئلة التى أرادت أن تسألها ليلي ولم تسألها ، كل الأسئلة الا سؤال واحد ، أهم من كل الأسئلة •

نعم • عاد حسين من ألمانيا منذ شهرين وهو رائع كعادته • تغير قليلا ، ازداد رجولة وجاذبية ، واكتسب شيئاً من الصعب تحديده شيئاً يتبدى فى مشيته وفى صوته وفى عينيه ، فرحة جديدة ، كما لو كان قد مر بمحنة ثم اكتشف أنه أقوى مما كان يتوقع • والواقع أنه لطيف وقد قضى معهما يومين فى بور سعيد كانا من أسعد الأيام بالنسبة

لمحمود • محمود يحبه بصورة مذهلة الى درجة جعلت سناء تغير • ولحسين
تأثير عجيب على محمود ولكن سناء لا تعترض على هذا التأثير بل بالعكس
ترحب به • فحسين يجعل محمودا يشعر أن الدنيا بخير ، وأن الناس
طيبون • وأن كل شيء سهل وأن الأحلام ممكن أن تتحول الى حقائق •

وقد التحق بالجيش ، ويعمل حاليا بالمصانع الحربية • وما زال
يحلم - طبعا كعادته • لقد قضى ثلاث ساعات يرسم رسومات ويشرحها
لمحمود ومحمود مبهور ، وهي تكاد تصرخ من الضيق •

- وعارفه كان يرسم ايه ؟ السد العالي يا ستي •

وضحكت سناء

- والطريقة التي كان بيتكلم بها عن السد العالي ؟! تقوليش بيتكلم
عن حبيبته ••

وابتسمت ليلى ابتسامة خفيفة ••

والتفتت سناء الى ليلى وقالت فى شقاوة :

- تصدقي يا ليلى ؟!

وتوقف تنفس ليلى • وأكملت سناء كلامها :

- تصدقي ان حسين لسه بيحبك ؟!

وطفرت الدموع الى عيني ليلى واحمر وجهها • ومالت على المائدة
وأرادت أن تقول :

- مش معقول •

ووجدت نفسها تقول :

- وعرفت ازاي ؟!

وانفجرت سناء ضاحكة •

وبدا الدهول على وجه ليلى • ذهلت مما أصابها • لقد مضى عليها
زمن طويل ولا شيء يحركها ولا شيء يهزها ، وها هي ترتجف الآن
وكأنها فتاة مراهقة ، كل شيء بأعماقها يرتجف • وسناء تضحك منها

وقالت ليلي في غضب، وغضبها موجه الى نفسها أكثر مما هو موجه الى سناء .

- بتضحكى على أية ؟

ومضت سناء تضحك ، ثم اعتدلت وهي تكتم ضحكتها ، ومدت يديها الى الأمام في حركة مسرحية ، وقالت وهي تقلد ليلي ، في صوت مسرحي مؤثر :

- يقدر يحيى الموتى وهي رميم ؟!

ولم تستطع ليلي أن تكتم ضحكتها .

- انت مصيبه .

وقالت سناء :

- والله ما مصيبه غيرك . مستموته كده على الفاضى . أنت ؟! أنت ميتة ؟! دا أنت فيك حياة تكفى عشرة . .

وعادت تضحك من جديد . .

وساد الصمت الصديقتين لحظة بدت فيها سناء واجمة وكأنها تفكر . ثم مالت بنصفها الأعلى على المائدة وواجهت ليلي بوجه هادىء وهي تقول :

- روحى يا ليلي اتجوزى رمزى زى ما أنت عايزه . بس واجهى الحقيقة الاول ، الحقيقة الى انت طول عمرك بتهربى منها . .

وتوقفت سناء عن الكلام ، رأت يد ليلي تزحف نحوها عبر المائدة، تزحف مرتجفة وكأنها حيوان جريح . وفى عيني ليلي رأت نظرة مبتهلة نظرة تتوسل اليها ألا تتكلم ، ألا تواجهها بالحقيقة العارية .

وكان الحقيقة لن تصبح حقيقة الا اذا تكلمت ! الا اذا تشكلت فى كلمات حية نابضة .

وترددت سناء لحظة ، ثم قذفت بكلماتها فى عنف ، كمن يوجه صفة لشخص أصيب بالاعماء ليفيق :

- الحقيقة يا ليلي انك بتحبى حسين ، طول عمرك بتحبيه ، وطول عمرك حاتحبيه .

وشعرت ليلي بدوار وكان شيئاً ما ينزف بداخلها • وغطت وجهها
بيديها • ودون أن تنظر الى سناء ، ودون أن تنطق بكلمة ، سحبت حقيبتها
من فوق المائدة وانصرفت • ونادتها سناء ولم تتوقف • سارت بخطى
واسعة وكان انسانا يطاردها ، وألقت بنفسها في أول أتوبيس توقف
أمام باب الجامعة دون أن تهتم بمعرفة وجهته •

وجلست منكشمة مطرقة تحتضن حقيبتها •••

وكلمات حسين تتردد في أذنيها •• في يوم الصبح حاتصحى
وتكتشفى انك بتحبينى •

وتتقاطع الكلمات وتتشابك وتتراكم ، دائما نفس الكلمات ••
الصبح ، حاتصحى ، الصبح •

ولكن الصبح قد تأخر ، تأخر بحيث كان من الأفضل ألا تصحو
أبدا ، وألا يأتى الصبح أبدا •

وكل شيء واضح الآن ، واضح وحاد وعنيف ولا شيء يستوى
لديها • حبها لحسين حاد وعنيف وكرهها لرمزى حاد وعنيف • وكرهها
لعجزها ولضعفها أحد وأعنف •

والحقائق حقائق ، وعارية • ويلي تواجهها بعينين مفتوحتين ولا
تملك من أمر نفسها شيئاً •

٢٤

جلست ليلي الى مكتبها وأسندت رأسها الى كفيها ، وعيناها تلمعان
وهما يتطلعان بعيدا ، وفي صدرها ذلك الشعور العجيب المتوهج الذى
ظنت ، من طيلة غيبته ، أنه لن يعود أبدا • ولكنه عاد ، دافقا متوهجا
وثابا لا تكاد ضلوعها تحتويه •

وكانت قد فرغت لتوها من ذرع الحجرة عشرات المرات جيئة وذهابا
والشعور المتوهج ما يزال يتأجج وما يزال يتطلب منها أن تبكى ، أن
تضحك ، أن تصرخ ، أن تقفز ، أن تقبل أحدا ، أن تتكلم مع أحد من
الناس ، مع الكثير من الناس •

وسمعت ليلي همهمة ، اشتدت حتى أصبحت كهدير البحر ، وجرت الى النافذة وفتحتها على مصراعيها ، وودت لو استطاعت أن تندفع مع موجة من هذه الموجات الآدمية التي تمر مهللة منتصرة في الطريق الواسع العريض .

وعادت تذرع الغرفة من جديد وهي لا تعرف ماذا تفعل بهذه القورة التي تتأجج في صدرها .

وانحرفت الى المكتب وسحبت ورقة وقلما ، وبدون أن تفكر سطرت الكلمات التالية الى أخيها :

« عزيزي محمود

« منذ زمن طويل ، طويل جدا ، لم أشعر بما شعرت به الليلة وأنا أستمع الى خطاب جمال عبد الناصر .

شعرت أني قوية وأنني قادرة على كل شيء ، كل شيء ، . أتفهمني؟! والشعور بالكبرياء الذي نسانى عاد الى من جديد ، والانتماء يامحمود . لم أعد وحيدة . .

شعرت تلك اللحظة أني كنت هناك ، مع الآلاف التي تهل في الأسكندرية ، ومعك ومع سناء ومع . . .

حتى أبي لم يعد غريبا . لقد كاد يحتضنني ونحن نستمع الى الخطاب . تصور؟! وكلنا - حتى أبي - كلنا أممنا القناة .

والشعور بالكبرياء الذي نسيني عاد الى ، والشعور بالعجب لأن القوة ما زالت تنتفض في أعماقي حية . . وان كانت حبيسة . «

وتوقفت ليلي لحظة وقد غشت الدموع عينيها ، ثم واصلت الكتابة

« أهذه هي المعجزة التي وعدتني بها ؟ . . المعجزة التي ستهزنا وتجعلنا ننفذ أكفاننا وننبعث أحرارا أقوىاء من جديد ؟ . . قل لي انها المعجزة . . أرجوك يا محمود قل لي انها المعجزة . . «

* * * *

لا ليست هذه هي المعجزة . . قال محمود : « ان المعجزة ستحدث حين نستطيع أن نحمل القناة وأن نحمل جميع مكاسبنا الوطنية ، حين نتخلي عن سلبيتنا ، ونصمد جميعا حتى الموت للاستعمار »

وقال رمزي ان هذا مستحيل ، فتأميم القنساء ألب علينا جميع القوى الاستعمارية ونحن أضعف من أن نواجهها . وميزان القوى ليس في صالحنا . وكنا نستطيع أن ننتظر ، أن نتدبر الأمور ولا نتعجل ، والشجاعة والحماسة لا يفصلهما الا خط رفيع .

وقالت ليلى اننا لا نقف وحدنا بل يقف الى جانبنا كل الأحرار في العالم وميزان القوى ...

وقاطعها رمزي في عنف .

كان قد مضى عليها وقت طويل لم تفتح فيها برأى معارض لرأيه وها هي ذى الآن تتكلم بثقة وبوقاحة كما لو كانت تفهم من أمور الدنيا أكثر مما يفهم ..

وكزت ليلى بأسنانها على شفتها السفلى وسكتت ، ورمزي يتبادل الحديث مع أبيها . ثم انتهزت فترة السكون الذي ساد لحظة ومالت في اتجاه رمزي وقالت :

— الانسان لو كان عاش طول عمره خائف يحسب حساب كل خطوه ما كانش بنى حضارة ولا اخترع حاجة ، ولا انتزع حريره . ما كانش حقق أى حاجة جميله .

وانقبض وجه رمزي لحظة ثم عاد الى جموده ، وقال فى سخرية بعد أن ارتخى فى جلسته :

— ولما أنت فصيح كده ، ما نجحتيش بتفوق ليه .. ؟!

وأخذت ليلى على غرة واحمر وجهها غضبا . لم تتوقع أن يلجأ رمزي الى هذه الطريقة الحسياسة ليهرب من المناقشة . ولكنه لجأ اليها لينتصر .. ما من طريق لا يلجأ اليه لينتصر ! حتى فى المناقشة ..

انه مغتاظ ، لا لائتها نجحت بدرجة مقبول ، بل لأن سناء نجحت بدرجة جيد جدا ، سناء التى قنباً بفشلها وأقسم أغلظ الايمان على أنها لن تفلح ..

ونظر رمزي الى ليلى فى غيظ .. لقد منحها كل شىء يمكن أن يمنحه رجل لامرأة . منحها ارضه ومركزه وماله ، وأضفى عليها الاحترام ، وبعد أن كانت فكرة أصبح الكل يحترمها على أساس أنها

زوجته المقبلة • وأعطاهما الحياة المنتظمة المطمئنة الخالية من القلق ،
وكتبه ونصائحه وتوجيهاته ، وكل شيء ، كل شيء يمكن أن يمنحه
رجل لامرأة وأستاذ لطالبة ، ومع ذلك تركت فتاة قدرة كسناء تتفوق
عليها •• !

وقال رمزي في حقد :

- أنا مش فاهم أيه اللي كان ناقصك ؟ كل التسهيلات كانت عندك
•• كل التسهيلات ••

ومالت ليلي في اتجاهه ووجهها يتورد وعيناها ترقصان ، وكأنها على
وشك القفز من ارتفاع الى الماء ، والمغامرة تسحرها وتخيفها في نفس
الآن :
الأوان :

- تحب تعرف ، أيه اللي كان ناقصني ؟

ولكن الأب تدخل في الحديث وأفسد على ليلي نشوتها المفاجئة •
أراد أن يعرف أثر تقدير النجاح في التعيين ، وهل سيترتب عليه
صعوبة في إيجاد مكان لليلي في مدارس القاهرة الثانوية ؟
نعم ، الصعوبة موجودة ، بل ان أمر تعيين ليلي في القاهرة يكاد
يكون مستحيلا لولا أن لرمزي - والحمد لله - نفوذا في وزارة التربية
والتعليم • فهو يعرف جميع وكلاء الوزارة معرفة شخصية ، وهم جميعا
يتمنون أن تسنح لهم الفرصة لتقديم خدمة اليه • وهو يستطيع أن
يقابل الوزير في أى وقت من الأوقات •

وهو حقا لا يحب أن يستخدم نفوذه ، فقد شق طريقه دائما بذراعه
وأمل نفسه على الآخرين بتفوقه ، ولكن ما باليد حيلة ••

* * * *

أخذ رمزي ليلي لمقابلة المفتشة العامة للمواد الاجتماعية ، ووجدت
ليلى نفسها في غرفة فسيحة يتوسطها مكتب كبير ، تجلس خلفه امرأة
في الخمسين من عمرها يكشف شعرها الفضي المشدود الى الخلف عن
جبين شامخ تشوب نضاعة بياضه تجاعيد الشيخوخة •

وجلست ليلي على طرف الأريكة بينما ارتخى رمزي في جلسته
ووضع ساقا على ساق وهو يبين الغرض من الزيارة •

واستمعت المفتشة الى الكلام دون أن تنظر الى رمزى ، وعلى وجهها
الوسيم ارتسمت ابتسامة خفيفة وكأنها تفكر فى شيء آخر ، شيء لا
علاقة له بالموضوع الذى يثيره ذلك الرجل الذى جلس وقد وضع ساقا
على ساق وكأنه فى بيته .

ودون أن تنطق بكلمة نظرت الى ليلي ومدت يدها بورقة مطوية .
وقفزت ليلي من مكانها مضطربة وسارت فى اتجاه المفتشة وحين حاذتها
توقفت ..

وابتسمت المفتشة فى وجه ليلي وكأنها تعرفت عليها لتوها ، وقالت
بصوت ناعم والحنان يترقرق فى عينيها .

- اكتبى الطلب دا يا ليلي ..

وأشارت بيدها الى مائدة فى الطرف الآخر من الحجرة وهى ماتزال
تبتسم ..

وبيد ثابتة أخذت ليلي الطلب ، وكأن ابتسامة المرأة الهادئة الواثقة
المطمئنة قد أضفت عليها هى الهدوء والثقة والاطمئنان . وبخطوات
ثابتة سارت الى المائدة وجلست تكتب البيانات المطلوبة بعيدا عن رمزى

الاسم ، العنوان ، الشهادة ، تقدير النجاح ، الوظيفة المطلوب
التعيين فيها - مكان التعيين ..

ورمى لا يكف عن الكلام .. القاهرة ، لابد أن تعين ليلي فى القاهرة
.. لا ، انه لا يكتفى بمجرد المحاولة . يجب أن يأخذ وعدا صريحا من
المفتشة ، والا سيضطر الى استخدام نفوذه ، ان وكلاء الوزارة يتمنون
خدمته ، والوزير شخصا لا يتأخر عنه فى طلب مثل هذا و ..

وتوقفت ليلي عند مكان التعيين ، الاختيار الاول ، والاختيار
الثانى . ورمى يتكلم ...

القاهرة ، لابد من القاهرة ، ان القاهرة هى مكان عمله وبالتالي لابد
أن تكون مكان عمل زوجته المقبلة ، يجب أن تعده المفتشة بتعيين ليلي
فى القاهرة ، لا مفر من القاهرة ..

والمفتشة تبتسم ابتسامتها الخفيفة وتنظر الى لا شيء .. وكأنها

تفكر فى شىء آخر لا علاقة له بهذا الرجل الذى يهدد ويتوعد ، شىء جميل ..

وانحنى ليلى على الطلب وتحت مكان الاختيار الأول كتبت بورسعيد وتحت مكان الاختيار الثانى كتبت بور سعيد . وطبقت الورقة وقفزت واقفة . وفى نفس اللحظة قام رمزى واقفا . وتقدمت ليلى بخطوات واسعة الى مكتب المفتشة وقابلها رمزى فى منتصف الطريق أمام المكتب .

واجتاحت رجفة الخوف جسد ليلى ، وكادت تستسلم ولكنها رأت الابتسامة الواثقة المطمئنة وشعرت وكأن الابتسامة تلفها . وتجاهلت يد رمزى الممتدة اليها واستدارت وأعطت الطلب للمفتشة وتنهدت فى ارتياح ..

وقال رمزى للمفتشة فى ضيق مكتوم :

- تسمى أشوف الطلب مستوفى ولا لا ؟ ..

ووجف قلب ليلى من جديد وأغمضت عينيها .. وحين فتحتهما كانت المفتشة تبتسم بسمتها الخفيفة وهى تنظر الى بعيد ، وتدق المكتب والطلب تحت يدها ، دقات رتيبة ..

والتفتت المفتشة الى ليلى وقالت بصوت هادئ :

- الطلب مستوفى يا ليلى ؟ ..

ولم تستطع ليلى أن تجيب ، أشارت برأسها بالايجاب دون أن تنطق بكلمة ...

وفتحت المفتشة درج مكتبها وألقت بالطلب فيه ، ثم ردت الدرج الى مكانه فى هدوء ، وقامت واقفة وهى تقول :

- خلاص يا ليلى .. ان شاء الله حانحاول نجيب رغبتك ، مع السلامة ، مع السلامة يا دكتور ..

وعندما وصلت ليلى الى الباب استدارت وهى تبتسم .. وسبحت عيناها فى الدموع حين التقيتا للمرة الاخيرة بعيني المفتشة .

ولكن رمزى كان ناقما على المفتشة ، لم يغب عنه تجاهلها المتعمد له . وتحول عدم رضائه الى ثورة عندما تلقت ليلي خطاب التعيين من وزارة التربية والتعليم .

ووضع رمزى الخطاب فى جيبه ، وهدأ من روع الأّب الثائر ووعد بوضع الأمور فى نصابها :

- فى أربعة وعشرين ساعة ، حاتكون ليلي متعينة فى القاهرة وحضرة المفتشة اياها حاجيلها الأمر من فوق . أصل فيه ناس كده زى الكلاب ، ضرورى يجيلهم الأمر من فوق .

وصرخ الأّب عقب خروج رمزى الى الوزارة :

- بور سعيد؟! .. مستحيل .. بور سعيد بالذات مستحيل :

ثم ضاقت عيناه وهو يرقب ليلي :

- أنت ، أنت الى طلبت بور سعيد .

وقلبت ليلي يديها فى براءة :

- أنا طلبت مصر . حتى حضرتك اسأل رمزى لما يرجع . ولم يرجع رمزى فى الظهر كما وعد ، ولكنه جاء بعد العصر . وقال أنه سوى المسألة ، وأنه أخذ وعدا صريحا من وكيل الوزارة بنقل ليلي الى القاهرة بعد استلامها للعمل فى بور سعيد بأسبوعين . وأن المسألة مسألة شكلية ، ولا بأس فى بعض الأحيان من الخضوع للشكليات ..

ولكن الأّب أظهر استياءه من هذه التسوية ، وقال انه يفضل أن ترفض ابنته التعيين على أن تسافر وحيدة الى بور سعيد .

- ثم مين أدرانا انها حاتتنقل صحيح بعد أسبوعين؟!

واحتد رمزى وهو يصف للأّب مدى نفوذه فى وزارة التربية والتعليم ، وكيف ثار وكيل الوزارة حين علم بخطأ المفتشة وكيف وعد بتلقينها درسا لن تنساه ، وكيف أن نقل ليلي من بور سعيد بعد أسبوعين من تسلمها العمل أمر مضمون مائة فى المائة ..

وهذا رمزى وهو يشرح للأّب كيف أن رفض ليلي للتعين يعنى انتظارها للدفعة التى تلى دفعتها ، أى ضياع سنة بأكملها ، وكيف أن

التسوية التي ارتضاها لا تتعارض مطلقا مع خطتهم ، فليلي ستتسلم عملها في أول سبتمبر ، وستكون في القاهرة في نصف سبتمبر ، أي قبل الموعد المحدد للزواج بأسبوعين .

وأشار رمزي الى أن اقامة ليلي في بور سعيد ميسرة ، فمن حسن الحظ أن المدرسة الثانوية تضم قسما داخليا مخصصا لاقامة المدرسات المغتربات ، وأن المسألة والأمر كذلك ، تدعو الى الاطمئنان من كل الوجوه ..

وبعد أن انتهى رمزي من عرض الموضوع قال للأب :

- أياه رأيك .. ؟

- حافكر ..

وترك الأب الموقف معلقا .. وأول سبتمبر يقترب والأب ما يزال يفكر ..

وعندما نادى ليلي وانفرد بها في غرفته عرفت أنه سيفتح الموضوع وتأهبت بكل حواسها لملاقاته ..

وقال الأب :

- أنت عايزه الشغلانه دي .. ؟

وارادت ليلي أن تصرخ من أعماقها وتقول :

- أيوه ، أرجوك ، أرجوك يا بابا ..

ولكنها تماكنت نفسها وقالت وهي تهز كتفها وكأن الأمر لا يعنيها في شيء :

- زي ما حضرتك عايز ..

وقال وهو يدير ظهره لها :

- والناس الى هناك دول حافخلطى بيهم .. ؟

ولم تدر ليلي كيف ينبغي أن تجيب على هذا السؤال ، وقالت في بلاهة :

— زى ما حضرتك عايز ..

واستدار يواجهها وقد شحب لونه وقال فى هدوء قاتل :

— انت عارفه أنا عايز أيه ؟ عارفه كويس أوى ..

ولم تتكلم ليلي . وبدأ أبوها يذرع الحجرة ثم توقف وقال :

— السكن فى المدرسه ، محمود يزورك معلش ، التانيه لا
زيارات عندهم فى البيت مافيش ، خروج من المدرسه مافيش .

وركز الأب عينيه فى عيني ليلي وقال فى حدة :

— فاهمه .. ؟

— حاضر ..

وضاقت عينا الأب الرماديتان وارتجفت شفتاه وهو يقول متوعدا :

— عارفه حا يحصل ايه لو بلغنى انك دخلت بيتهم ، أو اختلطت
بيهم .. ؟

وأغمضت ليلي عينيها وهزت رأسها علامة الفهم دون أن تتكلم ..

وقال الأب :

— خلاص ..

ووقفت ليلي مسمرة فى مكانها . وقال الأب فى ضيق :

— خلاص ، انتهينا ، روحى حضرى نفسك ..

وخرجت ليلي من الغرفة وهى لا تكاد تصدق أن أباه قد سمح لها

بالسفر الى يور سعيد ..

* * * *

وأعدت ليلي حقائبها وهى ترتجف رجفة المبالغتة كلما سمعت
خطوات أبيها تدب فى الصالة .. تملكها الخوف من أن يحدث شئ فى
آخر لحظة يحول بينها وبين السفر ..

ولم يزايلها هذا الخوف حتى وهى تقف فى نافذة القطار ورمى

يقف على الرصيف • واختلست ليلى نظرات سريعة الى ساعة يدها
الساعة لا تتحرك وكأنها قد فسدت ••

وبوجه متوتر راحت تتطلع حولها وكأنها تبحث عن شيء ضاع منها
•• وتنهدت حين وقعت عينها على ساعة المحطة •• الحمد لله ••
الساعة الثانية عشرة •

الساعة الثانية عشرة والجرس لا يدق والقطار لا يتحرك ••
وقال رمزي :

- ما تخافيش يا ليلي ، كلها أسبوعين وحاترجعى على طول •
والجرس يدق والقطار لا يتحرك ، ربما أصابه عطب ، ولن يتحرك
•• لن يتحرك أبدا ••

وتحرك القطار ، وتهلل وجه ليلي ، وصاحت فى نشوة دون أن
تنظر الى أحد ، أو توجه الخطاب الى أحد ، صاحت وكأنها تتغنى بأغنية :
- أنا مش خايفه ، مش خايفه ••

وجلست وهى ما زالت تدعهم :

- أنا مش خايفه ، مش خايفه ••

ثم هبت واقفة وكأنها نسيت شيئاً وأقفلت النافذة وغاب عنها
رمزي والرصيف بأكمله ، وتقدم القطار فى ببطء ثم انطلق ••

ولم يكن أمر نقل ليلي من بور سعيد بالسهولة التى تصورها رمزي،
وبدلاً من الأسبوعين بقيت ليلي فى بور سعيد شهوراً •

وفى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ بدأ الهجوم الاسرائيلى على صحراء
سيناء ، وفى ٣١ أكتوبر اشتركت بريطانيا وفرنسا فى العدوان على
مصر ، وبدأت العمليات الحربية ضد المواقع المصرية •

وتدفق شلال هادر ، واعترضت المستنقعات مجرى للشلال فى الطريق ، تريد أن تمتصه وأن تفنيه فيها ، وأن تحيله بركودها الى ركود والشلال عات جبار جياش عميق .

والمستنقعات عتيقة ترسبت على مر السنين ، تجثم على أرض مصر فى اطمئنان وهدوء وصفحتها تلتهم تحت أشعة الشمس . . .
وتحت الصفحة الالامعة طين .

واكتسح الشلال المستنقعات فى الطريق ، وأفنى ماءها فى مائه ، وأحال ركودها الى فورة فتية وثابة مائجة فوارة .
وفى أغوار الشلال ذاب الطين .

وتقدم الشلال عاتيا جبارا جياشا عميقا الى آخر الطريق . وفى آخر الطريق سد ، سد من صخور .
وتحت أقدام الشلال انهار السد ، وتفتت الصخور .

ظل جرس التليفون يدق فى شقة محمود طيلة الصباح ، ولا أحد يجيب النداء .

كانت ليلي فى المدرسة ، وسناء فى مركز تمرىض ، ومحمود فى مركز تدريب عسكري .

وعندما عادت ليلي الى الشقة عقب اعلان تعطيل الدراسة كان جرس التليفون ما زال يدق .

وارتجفت يد ليلي بالمفتاح وهى تفتح الباب ، وصل الى سمعها رنين الجرس متصلا لا متقطعا ، وأدركت أن الاتصال من أبيها أو من رمزي .

ووضعت ليلي حقيبة ملابسها بالقرب من الباب ، واتجهت الى التليفون بخطى بطيئة ، ووضعت يدها على السماعة ، وهمت برفعها .
وسمعت نفسها تقول :

— حاضر يا بابا ، زى ما أنت عايز يا بابا .

وانحرفت عن التليفون ، واندفعت الى الحجرة التى خصصتها سناء لها ، وأغلقت الباب خلفها ، وجلست على طرف السرير ، ورنين التليفون يخترق الباب المغلق . . .

* * *

لا ، انها لا تريد أن تسمع الصوت يأمرها أن تعود ، ويجرها جرا الى القاهرة من جديد ، أنها لا تريد أن تترك حياتها لرمزى ولأبيهـا يكيفانها كما يشاءان ، وكأنها قطعة من الحجارة يقذف بها الانسان بطرف حذائه أينما أراد ، وكيفما شاء . انها لا تريد أن تعود الى القاهرة ، ولن تعود الى القاهرة . يجب أن تواجه أباهـا وأن تواجه رمزى ، يجب أن تقول . لا .

وقامت ليلى واقفة لترد على التليفون ، وسارت الى باب الحجرة المغلق ، ووضعت يدها على مقبض الباب ، وسرت زجفة باردة فى جسمها رأت أباهـا يقترب منها فى خطوات قصيرة آلية ، بوجه جامد وبجسم متصلب وكأنه آلة مسلطة عليها ، آلة تقترب منها فى ببطء لتسحقها ، ورأت رمزى يهز وجهه الجامد المغلق ويقول :

— ما فيش فائدة .

والتليفون يرن ، ولا يكف عن الرنين . حتى صوت الانذار بالغارة أخف وطأة من ذلك الرنين ، انه لا يستمر هكذا ثقيلـا ملحا خانقا بلا نهاية ، انه يستمر لحظات قصيرة ثم يأتى الرد حاسما عارما .

ويهتز البيت والقلب ، والمدافع المصرية المضادة للطائرات تنطلق من كل جانب ، وكأن الأرض تفجرت حمما .

ويتطلع الانسان من النافذة الى الافق البعيد ، وهو يتنقل ببصره فى السماء ، ومع كل طلقة يكتم أنفاسه وينتظر .

ويتفجر الدم فى عروقه وهو يسمع الناس يهللون ، ويلمح طائرة تتحول الى شعلة من نار وهى تهوى الى الأرض أو الى البحر .

ويكتم أنفاسه لينتظر من جديد . . .

والتليفون يرن ولا يكف عن الرنين ، والرنين يتضخم لحظة بعد لحظة . .

وتشبشت ليلى بمقبض الباب ، وجسمها يرتجف بعجزها ،
وبكراهيته وبشورتها •

والرنين يلهب أعصابها وينخر فى رأسها ، يحفر فيه ثقباً يتسع
لحظة بعد لحظة ، ثقباً يكاد يودى بها الى الجنون •

وانفجرت ليلى صارخة ، ودفعت الباب أمامها وخرجت من البيت
لاهة وكان خطراً يداهما •

وعندما وصلت الى الشارع ، ولم يعد الرنين يتردد فى مسمعها
تنهدت فى ارتياح وهى تغطى وجهها بيديها •

وعاد محمود الى البيت متأخراً تلك الليلة ، وكانت سناء فى المطبخ،
تظهر بعض السباحتى للعشاء ، وكانت ليلى تنتظره فى الصالة •

وجلس محمود يخلع حذاءه العسكرى وهو يتوجع من طيلة وقوفه
على قدميه •

وقالت ليلى :

— ايه الاخبار ؟ • •

وتأملت الفرحة فى عينى محمود ، وفتح فمه ليتكلم ، ولم يتكلم ،
قلب يديه وهو يعلن عن عجزه عن التعبير عما يعتل فى نفسه من مشاعر
ثم تنهد فى ارتياح وهو يقول :

— الدنيا بخير يا ليلى •

وارتخى محمود فى جلسته وهو يحكى لليلى :

— ولد عنده ١٢ سنة ، جه فى مركز التدريب وعازب يدرّب ، قلت
له : أنت صغير ، بص لى وقال : أنا كبرت اليومين الى فاتوا •

ودق محمود بيده على مسند المقعد وهو يستطرد فى كلامه :

— وأدركت انه مش هو بس الى كبر ، كلنا كبرنا اليومين الى
فاتوا ، كلنا من غير استثناء •

وغلى الماء فى الوعاء وأسقطت سناء السباحتى ، وضاعفت الشعلة
تحت الوعاء •

والتفتت ليلي بحركة لا ارادية الى التليفون ، وغزاها شعور من
الحجل لأنها لم تواجه أباهما ولم تواجه رمزي .

واستأنف محمود كلامه :

- البلد بقت معسكر كبير ، معسكر بيغلي ، والقطر بيوصل كل
ساعة ، وبيوصل مليون متطوعين .

وتهلل وجه ليلي . .

وانحنى محمود ، وأمسك بحدائه ، وقام واقفا وهو يقول :

- عارفه مين وصل النهارده . . ؟

واحمر وجه ليلي وقالت :

- حسين . . ؟

- أبدا ، حسين في سينا .

- أمال مين . . ؟

- خمني . .

وضحكت ليلي وهي تخفي اضطرابها ، وقال محمود في انتصار :

- عصام . . ؟

- مش معقول . . !

- هو آيه الى مش معقول . . ؟

وقالت ليلي :

- وخالتي ؟ خالتي ازاي تسببه . . ؟!

وقلب محمود يديه ، وبهما فردتا الحذاء ، ومط وجهه وهو يظهر
تعجبه بطريقة مسرحية مبالغ فيها .

وانفجرت ليلي ضاحكة . .

وهز محمود رأسه هزة خفيفة ، وكأن شيئا قد حدث ، شيئا
عجيبا لا يستطيع تصديقه ولا تفسيره

وسار من جديد فى اتجاه حجرتة ، وعندما وصل الى الباب استدار
يوأجه ليلي وهو يقول فى صوت ناعم :

- مش قلت لك يا ليلي ؟ اننا كبرنا ..

وكاد محمود يهمس وهو يقول :

- دى المعجزة يا ليلي ، المعجزة ..

ودقت صفارة الانذار من جديد ..

ويوما بعد يوم تضاءلت الفترة بين الانذار والانذار حتى انعدمت ،
وتوقفت صفارات الانذار ، وتحولت الغارات الى غارة متصلة .

والمدافع المضادة للطائرات تتفجر تكاد تنصهر ، وخلف المدافع
احتشد الناس يهللون *

وصرخ رجل عجوز أبيض الشعر يقف بين الجموع خلف بطارية
الجمرك :

- شد حيلك يا محمد *

وسقطت طائرة محترقة تهوى الى البحر *

وانخفضت طائرة فجأة حتى كادت تلمس رؤوس الواقفين ، ووجهت
نيران مدفعها الرشاش الى المدفعجى *

وطوى محمد نصفه الأعلى على بطنه متأوها *

وقفز جندي من خلف محمد ، يريد أن يحتل مكانه *

واعتدل محمد فى جلسته ، وببيدين غارقتين فى الدم أطلق مدفعه
على الطائرة قبل أن تختفى *

وزحف الى الخلف مخليا مكانه لزميله ، وتمدد على ظهره وعيناه
عالقتان بالطائرة المحترقة *

وحين وصلت الطائرة الى البحر ، ابتسم محمد ابتسامة واهنة ،
وأغلق عينيه ..

وبعد خمسة أيام سكنت المدافع •
وبدأت الطائرات تدك المدينة ، والناس يدفنون موتاهم ، ويضمّدون جرحاهم وينتظرون •
وحين نزل جنود المظلات فى الجميل وفى الرسوة وفى بور فؤاد ، وجدوا الناس ينتظرون ••
وأصبح من الواضح أن المعركة قد بدأت ، وأنها قد اتخذت طابعا جديدا ، يتحتم معه ترحيل من تبقى فى بور سعيد من نساء وعجائز وأطفال ••
وكانت كل الطرق المؤدية الى خارج بور سعيد مقفولة ، فيما عدا طريق واحد •

٢٦

الساعة الحادية عشرة صباحا واليوم يوم ٥ نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، والغيوم تلبد السماء ، غيوم كثيفة غبراء ، والشمس تتسبّل من بين الغيوم تشق لنفسها ثغرات زرق يخالطها البياض •
والغيوم تلف بحيرة المنزلة بوشاح أغبر رمادى ، وعلى سطح البحيرة ترتجف ظلال سوداء ، ظلال مراكب صغيرة وكبيرة ، مراكب مليئة فوق طاقتها وأخرى لم تمتلئ بعد ، وظلال ناس يعبرون المرسى الى المراكب وهم محملون بامتعتهم ، وظلال ناس ترتّم على الشط وتدفن وجوهها فى الماء تروى عطشا لا يرتوى ، وظلال ناس على الشاطئ ينتظرون •
وعلى سطح البحيرة انطبع ظل فتاة طويلة ممشوقة وهى تعبر المرسى بخطوات متثاقلة ، تتقدم الى البحيرة ويدها تلتفان فى حنان حول لفة سويت فى عناية • وتوقفت الفتاة بغتة ثم استدارت وعادت تجرى الى البر وهى تصيح :
- عادل ، عادل •

وصاحت أم الفتاة تناديهما من المركب :

- فايزه ، فايزه •

ولكن فايزه لم تستجب لنداء أمها ، شقت لنفسها بصعوبة طريقه
وسط مئات من الأطفال والنساء والعجائز الذين يصطفون على الشاطئ •
وكادت تصطدم بطفل يفتح عينيه على اتساعهما وكأنهما تحرقانه •

ونظر اليها الطفل نظرة واعية مستنكرة وكأنه يقول :

- مستعجله على أيه ؟ فيه أيه الواحد يستعجل عليه ؟

وكانه شيخ هرم وكأنه كبر فجأة ولم يعد طفلا ، كبر من الهول
الذي رآه ، خلال خمسة أيام بلياليها •

ورببت فايزه على كتف الطفل في ارتباك ومضت تجرى تشق
طريقها بين الجموع وهي تصيح لاهثة :

- عادل ، عادل

واستدار شاب في ثياب المقاومة الشعبية ، كان قد أعطى طهره
للمسافرين ، وعاد وهو يجرى في اتجاه فايزه •

ووضع يديه على كتفيها ووقف تجاهها ينظر في عينيها دون أن
يتكلم ، واستجمعت هي أنفاسها ثم أخذت تلوك فمها بلسانها وهي
عاجزة عن التعبير عما في نفسها • وكزت بأسنانها على شفتها السفلى
وقالت بصوت هامس :

- أنت حاتيجى ، مش كده يا عادل ؟ حاتيجى •

وعكست عيناها أعماقا من الحزن ، وكأن حزن هؤلاء النساء اللاتي
يعبرن المرسى الى البحيرة وقد تركن على البر أبناء وأزواجا ، وجثث
أبناء وأزواج قد تجمع في عيني هذه الفتاة التي لم تتجاوز السابعة
عشرة من عمرها •

وابتسم عادل :

- مش أنا الى حاجى ، أنت الى حاتيجى يا فايزه ، احنا حانتجوز
هنا فى بور سعيد ، بلدنا •

وتطلعت فايزة اليه فى خوف • والتقت عيناها بعينيه فى نظرة

طويلة ثم أشرق وجهها المليح بابتسامة حلوة استقرت لها نغازتان
فى خديها ، ولعلت عيناها بأمل حلو ، وكأن يدا مسحت الرؤيا المخيفة
التي عاشتها خمسة أيام . وكأنها لم تعد ترى الا نفسها وعادل يمرحان
كالأطفال على شاطئ بور سعيد الذهبى ، وهى تجرى وعادل يلحق بها
وبقبل مؤخرة عنقها ، والشمس تدغدع جسمها وتراقص كقطع الماس
على صفحة البحر الزرقاء . .

البحر ؟! الشاطئ ؟! أين هما ؟! وكأنها لم ترهما منذ مئة سنة
وكانها عاشت دائما بين الحرائق والأشلاء .

وغامت عينا فايژه ، واشتدت قبضتها على اللفة التي تحملها وكأنها
تحميها من عدو يتربص بها :

- أمتى ؟ أمتى يا عادل . . ؟

- حالا يا فايژه ، حالا يا حبيبتي ، ان دخل العدو حايدخل على
جثتنا ، وان قعد يوم مش حايقعد الثانى .

واحتضنت فايژه اللفه فى صدرها وقالت بصوت مكتوم .

- عادل ، أنت ضرورى تعيش ، ضرورى يا عادل .

وقال عادل وهو يخفى انفعاله تحت ستار من الاستخفاف :

- ما تخافيش يا فايژه ، عمر الشقى بقى .

ولم تضحك فايژه ، قالت وهى تهمس :

- توعدننى ، توعدننى يا عادل

وقال عادل فى لهجة نصف مازحه :

- أوعدك يا حبيبتي . .

واختلطت دموع فايژه بابتسامتها ، ومن خلال دموعهما ملأت
عينيهما بصورة حبيبها ، وداخل الاطمئنان قلبها .

ان عادل وعدها ، وعادل لم يكذب أبدا عليها ، عادل سيطرد
الاعداء . عادل والآلاف من المصريين الذى رأته شجاعتهم بعينيها .
الم يبيدوا رجال المظلات فى بور فؤاد والجميل ؟

ستعود ، ستعود حتما الى بلدها والى بيتها ، الى البحر والى الشاطئ ، ستعود الى عادل ومع عادل ستعيش ، ستحيا ويحيا عادل ان هذا حقها وحق عادل ، ولا يمكن أن يسمح الله لأحد أن يسلبها حقها فى الحب ، وحقها فى الحياة .

وقال عادل فى صوت هامس :

— أوعذك يا فائزة أنك حاترجعى بور سعيد وان الناس دول كلهم حايرجعوا بورسعيد

وطافت عينا عادل بالشاطئ كانت المراكب التى امتلات بالركاب تفرد قلوها ، واللنشات تدير آلاتها استعدادا للرحيل ، وأمام المرسى لنش أبيض صغير خال من الركاب الا من امرأة ذات ضفيرتين تلبس السواد وتحتضن بين ذراعيها طفلا نائما لا ترفع عينيها الخائفتين عنه ، وكأنها تستمد قدرتها على الحياة من وجوده هكذا نائما على صدرها ، وكأنها لاتشعر بوجودها الا من خلال وجوده .

وحزن يسود المكان ، حزن رقيق كالماء الرقراق يخفف من لوعته أمل فى الخلاص وفى اللقاء . وفى سرعة وبلا صوت الا صوت القبلات وعبارات مع السلامة تتردد من الأعماق ، يمتلىء المزيد من المراكب واللنشات ، وعلى المرسى أم تنتزع فى ألم ابنها الذى تعلق بعنق أبيه ، وابن يحمل امه العجوز ، وجريح مربوط الساق يتكىء على كتف امرأة .

وعلى الشاطئ لم يتبق الا عدد قليل من الناس . يقفون جماعات ، ورجل عجوز يفترش الأرض ويضع يده على خده وينتظر فى استسلام وفى استسلام تنساب الدموع من عيني فتاة حلوة ممتلئة الجسم وهى تقف مع فتاة رهيقة مطبقة الشفتين ، ومع شابين فى ملابس المقاومة الشعبية . وقد ساد الصمت الأربعة

وليلى لاتستطيع ان تمنع دموعها من الانسياب ، كانت تشعر بالهزيمة ، وكأن أحدا قد ضربها علقة حامية ولم تستطع حتى أن تصرخ فى احتجاج .

وقالت ليلى ودموعها تتجمع فى ركنى فمها ،

- ضرورى نسا فر يامحمود ؟ مانقدرش نعلل ءاآه ؟ نسلال فى ءاآه ؟

وانآنى محمود يقرب الءائب بعضها الى بعض ، ثم اعلل وقال فى صول مكلوم :

- اآنا ءانرجل للمناقشة ءى ءانى ، قلت لكم ءاآعللونا ، ءاآزآموننا ، الصل الى عايظه ءآلم صآيل ءسليب البلل للرجالل وسعل عينا ليلي للالآلاء بعيني عصام ، ورأى عصام الرجاء الصامل اللل وأشال بولله بعيلدا •

وأطبقت سناء شفللها فى عيلظ •
وارآفلل صيلآه نسللله ءناللى من آءيل •

- فايظه ، فايظه

وقالل فايظه

- ماما بآناللى

وقرب عادل فايظه منه وأآآها بين ذراعيه وقبلها فى عينيها اللالآله بعء الاآرى ، ومسآ على آآها بشفللين مرآآفللين ، ثم أآللها وهو يقول

- مع السلامه ، مع السلامه يا آبيبللى

ولشبآل به فايظه فى آنون

وقالل عادل فى آزم مآكلف

- مع السلامه

وهمسل فايظه

- مش عايظه أسيبك ياآادل ، مش عايظه أسيبك لولآلك •

وقالل سناء وصولها يرآآفل •

- واشمعنى آآل الى ءاآفضل هنا لولآلك •

ورد محمود فى عنف أشد مما يستدعيه الموقف

- أنا راجل ..

تم أضاف فى لهجة أرق

- أظن احنا انتهينا من مسألة السفر دى ياسناء

ونظرت اليه سناء فى عتاب والدموع تلمع فى عينيها ... منذ أن تزوجا قاسمته كل دقيقة من حياته ، كل انفعالة وكل تجربة ، فلماذا يريد أن ينفىها ، أن يعزلها ؟

وفتحت سناء فمها لتتكلم ومدت يدها لتؤكد كلامها ، ولكن الكلمات جمدت على شفتيها وبقيت يدها معلقة فى الهواء ...

وارتفع صوت نسائي يئن بالرعب والهلع

- فايژه ، بنتى ، بنتى

ومن علو شاهق انخفض سرب من الطائرات المعادية وعلا أزيزها وهى تقترب من البحيرة .

وهمست ليلى وكأنها تصلى

- مش ممكن ، مش ممكن ياربى ، مش ممكن

وجاء جواب تساؤلها فى نظرة محمود القلقة التى ارتفعت الى السماء

وارتعدت يدا عادل على جسد فايژه وقال والقلق يتسلل الى صوته

- اجرى ، اجرى يافايژه

وابتسمت فايژه فى اطمئنان وهى فى حضنه وقالت

- ولايهمك ، أهم طول النهار بينبحوا زى الكلاب المسعورة

وارتفع صوت أم فايژه من جديد هالعا مسعورا .

وقبلت فايژه عادل من جديد وهى تقول

- استناني يا عادل استناني

واستدارت تجرى فى اتجاه البحيرة وعادل يرقبها ، وهى تتلفت ما بين الحين والحين ، ووجهها يشرق بابتسامة جميلة ويدها اليسرى تلوح لعادل ويدها اليمنى تنطوى فى احتراس على اللفة التى تحملها وبدأت فائزة تعبر المرسى ، واستدارت هذه المرة استدارة كاملة وهى تلوح لعادل التلويحة الاخيرة ...

وانكفات فائزه على وجهها وانحلت اللفة التى تحملها .

ورفعت المرأة ذات الضفرتين عينيها الخائفتين عن الطفل الذى تحمله وتطلعت الى السماء ، وصرخت صرخة مدوية ملتاعة مجنونة وهى تلوح بيديها .

واضطرب سطح البحيرة بدوائر واسعة تتخللها الفقايع وبصرخات ، صرخة بعد صرخة ، وصرخة فوق صرخة ، وكأن جبلا من الصرخات ينتفض من الأرض الى السماء ، والصرخة قصيرة لاتستغرق ثواتى ، ولكنها مشحونة بالعمر كله ، بالرعب ، بالرغبة الجارفة فى الحياة ، باليأس الموجه من الحياة ، بالثورة ، بالحب ، بالكراهية ، بالاستسلام ، بكل أطياف الماضى وبوارق ما كان يمكن أن يكون مستقبلا .

ولم يعد أحد يرى شيئا . تفجرت الأرض وهبت منها عاصفة كثيفة من ذرات التراب حجبت الرؤية .

وانسحبت الطائفة خفيفة بعد أن ألقت حمولتها على ناس كانوا فى البحيرة وناس كانوا على شاطئ البحيرة

واقشع التراب ليحل محله دخان أسود لزج مختلط برائحة الشواء ، دخان ينبعث من نار تتأجج على سطح البحيرة فى مساحات كانت تشغلها مراكب مليئة بالناس ومراكب خالية من الناس .

ثم هدأت الصرخات واتضحت الرؤية ، وشيئا فشيئا ضاقت الدوائر التى خلفها الغرقى على سطح البحيرة حتى استوت . وعاد الماء كعادته يتموج فى سكون وعلى سطح الماء بقايا أخشاب محترقة ، ودمية من مطاط خلفتها صبية ، دمية مقفلة العينين تهتز فى رقابة وتبتسم .

ولم تشعر ليل بشئ ، سوى أن الأرض اهتزت هزة عنيفة وكأن

بركانا قد تفجر تحت قدميها وأن شيئاً ما قد ألقاها أرضاً • وفقدت
ليلي الوعي وهي مدفونة تحت كوم من التراب •

وعندما بدأت تفيق ، وقبل أن تستجمع كل وعيها خيل اليها أنها
ماتت وأنها مدفونة وأن هذا التراب الذي يملأ خياشيمها ويثقل
جسدها هو قبرها • وامتلأ كيائها برغبة في الاسترخاء ، في الضياع
والاستسلام •

ولكن شيئاً ما كان يحول بينها وبين الاستسلام ، أنين متقطع
يصدر من هنا ومن هناك ومن كل مكان وكأن الكون كله يئن من حولها
يهزها المرة بعد المرة ، ويحول بينها وبين الضياع •

والآن لم يعد الانين فقط هو الذي يهزها • فهي تستطيع أن
تتبين أصواتاً فزعة تنادى أسماء ، ومن بين الأسماء اسمها ، اسمها
مختلطا بعشرات الأسماء •

والآن لم يعد صوت واحد هو الذي يناديها ، الكل يهزها ، الكل
يحول بينها وبين الضياع •

وفتحت ليلي فمها لتصرخ ، ولكن التراب انهار في فمها ، وكاد
يحول بينها وبين التنفس • وأطبقت فمها وأدركت أن عليها هي أن
تنفض أكوام التراب التي تراكمت عليها ، وأن تشق طريقها وحدها
إلى الحياة •

واستندت على يديها وبدأت تزحف ، خطوة بعد خطوة وكأنها تحمل
أطنانا من الحديد ، والتراب في فمها وفي أنفها ، وتنفسها يضيق
أكثر وأكثر ، وصدرها يحترق ، وأطرافها تتشجع وشيء ما يشدها إلى
الأرض ، شيء غير ثقل التراب ، شيء لين هين لزج يدعوها إلى الاسترخاء ،
..... دقيقة واحدة وينتهي كل شيء •• دقيقة واحدة ولا تشعر بشيء
•• تنام ••

ولكن الأصوات عادت تناديها وتلح في النداء ، كل الأصوات •
الكل يناديها ، الكل يستنهضها ويحول بينها وبين الاستسلام ، شيء
ما بداخلها يستجيب للنداء ، شيء ينتفض في داخلها كالعملاق ، شيء
جديد مثير لا يتخلى عنها أبداً ، شيء أقوى من النار التي تحترق في

صدرها ومن الثلج الذى يرتجف فى أطرافها ، أقوى من الاسترخاء ، من
التراب ، من الموت . .

وانتفضت ليلي واقفة ، وغشى النور عينيها فأغمضت يداها
تتحسسان جسدها . وأدركت أنها خرجت من المذبحة سليمة .

وفتحت عينيها وقد اعتادت النور ثم أطبقتها فى الحال وجرت بعيدا
وهى تترنح وكأن أحدا قد طعنها من الخلف بسكين .

وكفت عن الجرى ووقفت لحظة مترددة ، ثم استدارت تواجه المكان .
والتقطت عيناها الصورة كاملة ، ثم بدأت تتركزان على كل تفصيل ،
فى ببطء وفى تمنع وكأنها تخشى أن يفوتها شئ . . .

فى اضطراب وذهول يجرى الأحياء ، يخوضون الدم ويصطدمون
بالأشلاء ، أذرع وسيقان وأمعاء ممزقة وجماجم متفجرة . والأحياء
يدوسونها ويجرون ، يقلبون جثث الموتى ويطلقون فى وجوه الجرحى .

ولم يعد أحد ينادى الآن . . الموتى لا يجيبون والجرحى أضعف من
أن يجيبوا سوى بالأنين .

وبعض الأحياء كفوا عن البحث ، جاءهم رد النداء .

هذا الرجل الذى ينكفى على جثة زوجته وولديه جاءه الرد .

وهذا الرجل العجوز الذى يجلس على حافة الشاطئ يبني كوما من
التراب بوجه جامد ويداه لا تكفان عن تسوية التراب ، وكأن كيانه كله
رهين ببقاء هذا الكوم سليما لا ينهار ، هذا الرجل العجوز جاءه رد النداء

وهذا الشاب الوسيم الذى يلبس ثياب المقاومة الشعبية ، ويطوى
فى عناية ثوب زفاف أبيض ملطخ بالدم والتراب ، جاءه الرد .

ماذا كانت تسميه هذه الفتاة الحلوة ذات الغمازتين ؟ ماذا كانت
تسمى ذلك الشاب الذى تحترق عيناه بلا دموع ، وكأنهما امتلائا فجأة
بالحصى ؟ عادل . هكذا كانت تسميه الفتاة الحلوة المشرقة ، ذات الشعر
المرسل والغمازتين . كانت تتراقص بفرحة الحياة ، والموت يحلق فوق
رأسها ، لم يدر الموت أبدا بخيالها ، لم يتسع خيالها لسوى الحب ، حب
عادل وحب الحياة . وراحت أشلاء ، ولم يتبق لعادل سوى ثوب زفاف
أبيض ملطخ بالدم والتراب ، ثوب زفاف يطويه عادل فى حنو ، وكأنه

يربت على شعر جبينته ، وكأنه يهمس فى أذنها بشيء ويعدها بشيء •
وينتفض واقفا •

وهذه الأم ذات الضفيرتين التى تقف متشحة بالسواد والماء يقطر
من ثوبها ، أين ابنها ؟ •• كان يرقد على صدرها ، وكانت تحميه
بذراعاها فماذا حدث ؟! ولماذا لا تنادى ابنها ، ولماذا يقبض هذا الرجل
على ذراعاها ويحول بينها وبين الحركة ؟!

جواب ندائها فى البحيرة ، فى أعماق البحيرة ، ولا خوف فى عينيها
ولا انتظار ، لم تعد تخشى شيئا ولا تأمل فى شيء • ماتت وهى تقف
بجانب هذا الرجل الذى يحول بينها وبين الانطلاق الى البحيرة •

وانطلقت صيحة فرح من محمود وهو يتحسس جسد ليلي وتمتمت
سنة بشيء وانفرطت دموعها وقال عصام :

— الحمد لله ، الحمد لله ••

وبقى وجه ليلي جامدا •• وخطر ببالها أنها لم تحاول من قبل أن
تتحقق من سلامتهم ، وكأنها نسيت وجودهم فى غمرة الآلام من
حولها ، آلام الكل ••

وانضمت ليلي الى بقية الأحياء فى مساعدة رجال الاسعاف على
نقل الجرحى •••

فى سكون وبلا صوت انتقل مزيد من الجرحى من المحفات الى عربات
الاسعاف •

ولم يعد أحد ينوح ، حتى المرأة العجوز ذات الشعر الأبيض لم تعد
تنوح ، كانت دموعها تسيل بلا صوت ، وكأن ما حدث قد استنزف
قدرتها على النطق ••

ولم يعد أحد يبحث بين الأشلاء ، يقلب جثث الموتى ، ويطل فى
وجوه الجرحى ، سوى طفلة سمراء فى السابعة من عمرها ، ما زالت
تجربى والآمل يحبس دموعها •••

ومرت ليلي بمحمود وهو يضم جرح طفل يسيل الدم من صدره
فى غزارة ، وركزت عينيها عليه ، وحاولت أن تشعر بشيء من الغزاء
لأن أخاها أفلت من الموت • وهمست وهى تردد : محمود حى ، حى •

ومسحت ليلي حبات من العرق تجمعت على جبينها وانحنت تسند الى صدرها امرأة شابة فقدت ساقها ، ورفعتها الى المحفة بمساعدة رجل من رجال الاسعاف ، ثم مالت عليها تغطيها بملاء بيضاء ، والتقت عيونهما لحظة ...

واعتمدت ليلي وفي كيانها ألم ، ألم يستعصى على العزاء ، ألم لا يخفف منه نجاة محمود شيئا ، ولا يضيف اليه موت محمود شيئا ، ألم الشابة التي فقدت ساقها ، والألم التي تتحرق شوقا الى مياه البحيرة ، والرجل العجوز الذي يبني قصرا من الرمال على الشاطئ .

وسارت ليلي وهي تحمل طرفا من المحفة في اتجاه عربة الاسعاف ، وحين مرت بعادل كان يلقي برأسه الى الخلف وهو يهوى بفأس على الأرض يحفر قبراً لخطيبته .

ووقفت ليلي لحظة تنظر اليه مبهوته .. كان الضوء الذي انحبس في الحفرة ينعكس في عينيه ، وفي هاتين العينين رأت ليلي نظرة أرسلت الرعدة الى جسدها ، نظرة لن تنساها ولو عاشت مئة سنة .

وتقدمت ليلي الى الأمام ، وأقفل رجل الاسعاف الباب خلف الشابة الجريحة ، وتحركت العربة تاركة خلفها المكان ، وعادت ليلي تخوض الدم ، وتصطدم بالأشلاء وتحمل الجرحى .

وأدركت فجأة انها قد تجاوزت مرحلة الألم . لم تعد تتألم ، لم تعد تعيش في الحاضر الا بجسدها الذي ينحني ويعتدل ثم يتقدم ويعود لينحني من جديد . ومع ذلك يبدو ذلك الحاضر الذي تعيش فيه بجسدها طويلا وكأنه العمر بأكمله ، طويلا لا ينتهي ، وهي تريد له أن ينتهي ، تريد أن تفرغ من كل هذا ، وأن تعمل شيئا .

واستدارت عربات الاسعاف مليئة بحمولتها الواحدة بعد الأخرى ولم يتبق الا عربة واحدة .

وانحني عادل وأسجى حبيبته في الحفرة وبقي منحنيا عليها لحظة ثم استقام وبدأ — في بطاء — يهيل عليها التراب .

وأسرعت يد الرجل العجوز تسوى في رقابة وحرص كوم الرمال الذي بناه .

وتمللت المرأة ذات الضفيرتين فى جلستها ولكن رفيقة لها ثبتها فى الأرض وهى تهمس فى أذنها بشىء ..

وعلى سطح البحيرة تموجت دمية مغلقة العينين تبتسم .

ولهت الصبية السمراء وهى تجرى بين الجثث والأشلاء ، وتكشف عن وجوه الجرحى على المحضات . وبدأت نظراتها القلقة تتوزع بين الجرحى وبين عربة الاسعاف ، وكأنها أدركت أن أملها مرتبط ببقاء العربة فى هذا المكان .

ودخل آخر جريح عربة الاسعاف ، ووقفت الطفلة السمراء متسمة بلا حراك ، وعيناها على العربة .

وانضمت ليلي الى سناء وعصام وقال محمود :

- أنا رايع المستشفى ، وأنت وصلهم البيت يا عصام ، بعدين
نبقى نشوف طريقة تانية ، يقدروا يسافروا مع الجرحى .

وبخطوات ثابتة اقتربت منه ليلي حتى حاذته وقالت :

- أنا مش مسافرة يا محمود .

ونظر اليها محمود فى استغراب ، عندما تكلمت بدا له صوتها غريبا وكأنه ليس صوتها ، وكأن انسانا آخر هو الذى تكلم . والطريقة التى تكلمت بها طريقة غريبة هى الأخرى . نبرة صوتها ليس فيها استعطاف ولا تهديد ولا غضب ولا ثورة ، انها نبرة عريضة على ليلي ، نبرة لم يسمعها قط منها أبدا . انها نبرة تقرير .

وقابلت ليلي نظراته لحظة ثم أشاحت بوجهها عنه بلا اهتمام ، وركزت نظرها على الأفق البعيد .

وشعر محمود بالآلم ، لقد نظرت اليه وكأنها لا تعرفه ، وكأنها لا تنتمى اليه وكأنه ليس أخاها
نظرت اليه وكأن شيئا لم يعد يربطها به ، لا رباط الأخوة ولا العائلة ، ولا شىء ، لا شىء على الإطلاق .

وانزاحت نظرة محمود عن ليلى فى ألم واستقرت على سناء ،
وأشاحت سناء بوجهها عنه • ثم قالت وكأنها خشيت اغصابه :

- على العموم أنا جايه دلوقت المستشفى ، وبعدين نبقى نفكر •

• ثم أضافت فى سخرية مرة :

- أظن حاتحتاجوا لمرضات •

وطافت نظرة محمود بمرسى البحيرة ، وعادت تستقر على ليلى •
وأدرك اذ ذاك فقط أن نفس الشئ الذى حدث له أثناء معركة الفدائيين
فى القناة ، قد حدث لها • لقد خرجت من دائرة العائلة ، من دائرة الأنا
الى دائرة الكل • وما من أحد يستطيع أن يوقفها الآن •

وبدت له ليلى وهى تقف هكذا متباعدة ، أطول مما هى وأقوى •

وقبل أن يستدير ليركب عربة الاسعاف ، مد يده ليربت على كتفها •
وبدلا من أن يفعل ذلك ، وجد نفسه يصافحها ، مصافحة الند للند •

وعندما همت سناء بالالحاق بمحمود ، توقف وأفسح لها الطريق •
وأغلقت سناء خلفها باب عربة الاسعاف فى رفق ومضت العربة فى
طريقها •

وشقت السكون صرخة مدوية مجلجلة ، وراحت الطفلة السيمراء
تجرى بلا هدى وهى تنادى :

- أمى ، أمى ، أمى •

والنداء اليائس المفجع يتكرر وكأن الكون بأجمعه يردده •

وانتفضت المرأة ذات الضفيرتين وكأنها أفاقت من كابوس ، وخلصت
نفسها من قبضة المرأة المكلفة بحراستها وانطلقت تجرى • وعند شاطئ
البحيرة لحق بها رجلان ، واستماتت فى وحشية وهى تخلص نفسها
من قبضتيهما •

وعندما وطأت البحيرة بدأت تنادى ابنها ، وتوغلت فى الماء وصوتها
يردد النداء ، وعندما وصل الماء الى عنقها كانت ما تزال تناديه بصوت
رقيق وكأنها تغنى ، وكأنها تهنئ ابنها على صدرها •

ولم يعد الكون يردد سوى صوت الطفلة تنادى أمها ، والأم
تنادى ابنها .

وانهارت الطفلة مكومة على الارض .

. وغابت الأم في البحيرة وهي تصرخ صرخة مزعزعة ، فرحة ،
منتصرة ، مجاورة .

وانهار الرجل العجوز فوق كوم الرمال وهو ينشج والدموع تتجمع
في ذقنه البيضاء .

وعاد سطح البحيرة ساكنا ، وعلى السطح دمية مغلقة الغيتن تهتز
في رقابة وتبتسم .

وعندما استدارت ليلى لتلقى نظرة أخيرة على المكان ، كان عادل قد
سوى التراب على قبر جيببته .

٢٧

ومن خلف القبور ارتفعت الرؤوس ، واستقرت الأيدي في تحفز
على المدافع الرشاشة والبنادق .

ولكن إشارة البدء لم تأت بعد .

والطائرات تلقى بمزيد من جنود المظلات خلف سور المطار ، والمظلات
تتكور ، مظلة بعد مظلة ، بيضاء كالحراج الملىء بالقبيح .

والقوات العسكرية بالموقع الدفاعي في منطقة الجبانة تتململ، والأيدي
ترتجف على البنادق والمدافع في غيظ ، وإشارة البدء لم تأت بعد .

ومئات الأعين القلقة تنتقل بين القائد وبين المظلات التي تنفرج من
الجو ، والقائد يشعر بوطأة القلق من حوله ، ويكاد يسمع السؤال الصامت
الذي يختنق به الجو . . السؤال الذي يردده أفراد المقاومة الشعبية ،
وحتى جنود الجيش المدربون الذين اعتادوا اطاعة الاوامر دون سؤال .

ماذا ننتظر ؟

وينتظر القائد دون أن تتحرك خلجة في وجهه

ومسحت ليلي بيدها حبات من العرق تجمعت على جبينيهما وقالت
لعصام في همس :

- احنا منتظرين ايه ؟

ومد عصام يدا مرتجفة وربت على يدها وهو يبتسم لهما ابتسامته
الحجول غير المكتملة .

وشعر كل منهما أنه قريب من الآخر ، وكأن الانتظار الذي يرتجف
في أعماق كل منهما قد أزال الجفوة التي قامت بينهما ، حين فرضت
ليلي نفسها فرضا على عصام وتبعته الى نقطة حراسته . وأخرجته
أمام قائده .

وتلملت ليلي في قلق ، والخوف يدب اليها . . .

لم يكن الموت هو الذي يخيفها ، لم يعد الموت يخيفها . . من هي ؟ . .
قطرة في بحر ، والبحر مواج بها ومن غيرها . وان ماتت فهي واحدة من
الآلاف الذين ماتوا ، وان عاشت فهي واحدة من الملايين الذين اغتصبوا
حقهم في الحياة . لا ، ليس هو الموت الذي يخيفها ، ولا العدو الذي
يستتر خلف سور المطار . أن عدوها الرئيسي يرقد هنا ، في أعماقها :
ضعفها . وأغمضت عينيها ، وأحكمت اقفال فمها حتى لا تتسلسل
اليه الرعدة .

وشعرت ليلي برغبة جارفة في أن ترقب مرة أخرى الناس من حولها
وأن تشعر من جديد أنها جزء منهم . واعتدلت في جلستها خلف القبر
الذي تحتوى به ، ورفعت رأسها في احتراس وأمام عينيها امتدت رؤوس
مغطاة بالخوذات ، ورؤوس عارية . رؤوس يختلط سوادها بالبياض
ورؤوس شابة .

وارتخي جسدها وهي ترقب هذه الكتلة الضخمة المتراسة الممتدة
من الرؤوس . واستدارت وخلفها امتدت وجوه جامدة ، ووجوه هادئة
صفوف متراسة متكئة من الوجوه .

وتوقف تنفس ليلي عندما استقرت عيناها على وجه من الوجوه .

وانبعثت في خيالها صورة عادل وهو يحفر قبر حبيبته ، يلقي
برأسه الى الخلف ، وفي عينيهِ النظرة التي لن تنساها أبدا ، نفس النظرة

التي تراها فى عينى هذا الرجل الذى حسبته عادل ، نفس المزيج من الحب ، من الكراهية ، من التحدى ، من الاصرار * من الاعتداد الواثق المظمن .

وتنهدت ليلى فى ارتياح ، وعادت عيناها تطوفان بالوجوه ، وجهها بعد وجه ، وفى مختلف الوجوه رأت شيئا فاتها رؤيته من قبل ، نفس النظرة التي رأتها فى عينى عادل .

واستدارت ليلى تنظر الى الامام وهى منتشية ، وشعرت أنها قوية .
لم تعد وحيدة ، انها معهم الآن .

معهم ، ومعها الحب الذى يضطرم فى قلوبهم والكراهية ، وشيئا ما من ذلك الاعتداد الواثق المظمن .

وانبعثت أمام ليلى صورتها وهى تنحنى لتنتشل المجداف الغارق فى النيل . . نعم ، فى اللحظة المناسبة ستدفع الانسانة الاقوى الكامنة فى أعماقها الباب ، وتخرج لتتصرف فى هدوء وبرود وحكمة ، كما يجب أن تتصرف تماما . نعم ، فى اللحظة المناسبة ستحدث المعجزة .

واغرورقت عينا ليلى بالدموع وكأنها ترقب رؤيا جميلة .

ورأى عصام الدموع فى عينيها وأرجعها الى الخوف وقال :

— ارجعى يا ليلى ، الباب قريب ، ازحفى لغاية الباب .

وازداد صوته نعومة وهو يهمس :

— انت ست ما حدش حايلومك ، ودا مش مكانك .

وشعرت ليلى بالدوار الذى يشعر به من يتطلع الى أسفل ، من مكان شاهق الارتفاع ، وفى أعماقها ارتجفت العجز من جديد .

هل تستطيع ؟ هل تصمد ؟ وهى امرأة ، امرأة لا غير . ومن أين لها القوة ؟ من أين ؟

وبدأت طائرات العدو تنزل فوجا جديدا من رجال المظلات داخل أرض المطار ، فى متناول نيران قوات الدفاع العسكرية فى منطقة الجبانة .

وفى نفس الوقت بدأت الريح تعوى وتصفر وتهب هبات عنيفة غاضبة وتنشر فى الجو ستارا أصفر من ذرات الرمال ، والطائرات تنزل حمولتها داخل المطار .

وحملت الريح جانبا من المظلات بعيدا عن المطار ، بعيدا فى اتجاه منطقة مجاورة من المساكن الشعبية .

وأعطى القائد إشارة البدء .

* * * *

- اضربى - اذيله .

ارتجف صوت امرأة عجوز مقعدة وهى تنحنى تحد النظر الى الامام، وعلا عويل الطفل الذى تحمله بين يديها .

وارتفعت يدا امرأة فتية بقطعة ثقيلة من الحجارة ، وهوت بهما على رأس جندى من جنود المظلات وهو يهم بالاستواء ، فسقط على الارض مهشم الرأس .

ورفعت المرأة الفتية قامتها ، ومدت يدها اليسرى تمسح حبات من العرق تجمعت على جبينها . وقبل أن تبلغ يدها جبينها اندفعت تجرى الى الامام وهى تصرخ صرخة عالية مجلجلة . . .

لمحت مزيدا من المظلات تتساقط فى الفضاء كالحفافيش .

ووصلت الصرخة للنساء وهن داخل أكواخهن يعددن الطعام للأطفال ، ولأزواج ولأبناء قد يعودون ، وقد لا يعودون . مع الصرخة ادراك أن الخطر الذى خرج له الأبناء والأزواج قد جاء يدق الباب .

وانفتحت أبواب الاكواخ الخشبية المتداعية فى عجلة . وخرجت النساء مسلحات بالسلاح الذى أعد من قبل ، لمواجهة هذا الموقف : أعناق الزجاجات المكسورة والسكاكين والمطاوى وأيدي الهون .

ووصلت الصرخة العالية المجلجلة الى الأطفال وهم ينتظرون فى رهبة وفضول أمام كوخ يقف فى معزل ، بعيدا فى أقصى اليمين .

وتفرق الاطفال مذعورين .

وفى داخل الكوخ قفزت امرأة جالسة وقد ارتسم الرعب على وجهها .

وانحنى بنصفها الأعلى على نصفها الأسفل حين داهمها من جديد ، الألم الذى ما يزال يداهمها منذ الصباح .

وتوقفت يدا القابلة على طرفى صفيحة مليئة بالماء المغلى ، كانت تهم برفعها من فوق موقد الغاز .

و اعتدلت القابلة وجرت الى الباب ووقفت لحظة تتطلع حولها .

وأنت المرأة التى تلد فى رعب ، والعرق يتساقط من جبينها على عينيها وقالت فى صوت مخنوق :

- فيه ايه ؟

وعادت القابلة الى داخل الكوخ بوجه جامد ، وأمسكت بخرقتين ورفعت صفيحة الماء المغلى بين يديها ، وسارت فى اتجاه الباب من جديد فى خطوات سريعة ثابتة .

وصرخت المرأة الشابة صرخة يأس موجعة ، وزحفت خلف القابلة ، والعرق يكاد يعميها ، وجسدها يتقلص تقلصات سريعة متتالية .

وعند عتبة الباب لحقت بالقابلة وتشبثت بساقها فى جنون وهى تتمتم :

- ماتسيبينيش لوحدى ، ماتسيبينيش .

ولم تستطع الشابة أن تكمل كلامها . داهمها الألم من جديد ، أقسى وأعنف وأحد ، ألم لا يطاق . وشعرت بشيء صلب مستدير يكاد يطل من جسدها . ودمدمت :

- أنا خلاص ، خلاص .

وأدارت القابلة رأسها وهى تقف على عتبة الباب ، ونظرت الى الشابة الممددة خلفها ، والتفت العيون لحظة .

وفى عيني القابلة رأت المرأة الشابة ما يحدث فى خارج الكوخ ، رأت الموت الذى يهددها ، ويهدد الحياة التى تنتفض فى أحشائها .

وارتخت يدا الشابة عن سساق القابلة ، وتكومت على الأرض وانفجرت باكية .

وخرجت القابلة من الكوخ ، والبخار يتصاعد من الماء المغلي .
ورفعت المرأة الشابّة رأسها وتوقفت الدموع في عينيها . وبدأت
تزحف ، وفي احتراس تمددت على فراشها ، وسحبت ملاءة بيضاء ،
وغطت جسمها . . .

إنها لم تلد من قبل ، ولكنها ستلد ، ستلد وحدها ، رغم كل شيء .
الطفل في بطنها ، وهو يريد الخروج ، وما عليها إلا أن تساعد . يجب
أن ترتخي لتساعده .

ولكنها لا تستطيع أن ترتخي .

صرخة رعب يصطك لها جسمها ، وعويل طفل ، وتهليل مكتوم ،
وانتظار . . وخطوات تتدافع ونداءات مختلطة ، ودبيب أقدام على الأسطح
وكان خيولا تجري ، وصوت المرأة المقعدة يرتجف في الفضاء :

— اضربي — اديله . . .

وأنين ، وعواء كلب ، ودخان أسود يتسلل الى الكوخ ، وماء يطش
على النار ، وصرخات موجعة ، وسكون أقسى من الضجة .

وجموع تتدافع وتصطك بالجدران الخشبية ، وطلقات نار وصوت
المرأة العجوز المقعدة يرتجف في الفضاء ، وانفجار ضخم يهتز له الكوخ
حتى يكاد يسقط على رأسها . . وانتظار أقسى من الانفجار .

ووجه الشابّة الممددة على الفراش يتقلص ، وجسمها يتقلص ، وهي
تعض على جانب من الملاءة البيضاء مكوم في فمها . . . يجب ، يجب أن
ترتخي ، والا سيموت الطفل في بطنها .

وأخرجت المرأة الملاءة التي تكومت في فمها ، ومسحت بها العرق
الذي يبلل وجهها . وحاولت — بطاقة لا تستطيعها إلا أم — أن تركز
انتباهها في الطفل الذي يهدده الموت في بطنها .

وشيئا بعد شيء ، تلاشى العويل والآنين والنار والدخان والخطوات
المنعورة ، وأصوات الرعب المستطيلة ، وأصوات الانتصار المكتومة ،
تلاشى العالم الخارجي . ولم يعد في وعي الأم ، سوى الطفل الذي يريد
الخروج الى الحياة .

وبينما كان الأطفال يخرجون من مخابئهم ، والأطفال الكبار يجمعون
المدى والسكاكين والحبال التى استخدمت لاصطياد جنود المظلات ، وبينما
كانت النساء يجفن عرقهن وبرؤوسهن دوار ، وكأنما استيقظن فجأة
بعد حلم مخيف ، وقبل أن يحسبن خسارتهم ومكاسبهن ، وقبل أن
يدركن تمام الإدراك ما قمن به ، دوت فى الفضاء صرخة ضعيفة متقطعة .
وما لبثت الصرخة أن اتصلت واستطالت ، قوية ، مجلوة مزهوة
مزغردة . . . صرخة الحياة .

★ ★ ★ ★

وصرخت ليل صرخة مجلوة مزهوة مزغردة ، والكتل الآدمية تدفعها
الى ارض المطار .

كان الفوج الثانى من جنود المظلات قد أبيد على أرض المطار ، وفلول
الفوج الأول تتراجع أمام القوات المصرية .

والطائرات الانجليزية تحوم حول المكان حيث تلتحم القوتان ،
ولا تستطيع أن تقربه ، فتحسر عنه عاجزة .

وتتالى الانفجارات فى أماكن متفرقة من المدينة ، وتندلع الحرائق
فى مستودعات البترول ، وفى البيوت وفى الشوارع .

والقوات الانجليزية تحاول الافلات من الحصار والعودة الى مخابئها
خلف سبور المطار ، والقوات المصرية تواصل انضغط تحول بينها
وبين الافلات .

والأرض تتفجر ، وعواصف من رمال ، ونار تتأجج من المدافع ،
وطلقات كالسيل تترك دوائر واسعة فى الرمال ، ودخان أبيض ، ونقط
خضراء تلتهم أمام العيون .

وجثث تتساقط وجرحى وقتلى يسحبون الى الخلف ، وناس تتدافع
تحل محل الجرحى والقتلى .

وبين القتلى عصام ، وبين الجرحى ليلي .

والحلقة تضيق على القوات الانجليزية ، وحلقة النار تضيق على المدينة .

والشمس توشك على المغيب ، والعتمة تتسلل الى المكان .

ونار كالنور تتأجج ، تحول بين الظلمة وبين الاستقرار ، وتكشف

من بعيد عن العدو وهو يتقهقر .

ولم يكن جرح ليلى جرحا خطيرا ، كان جرحا ظاهريا ، وبعد أن
استخرجت الشظايا التي استقرت فى كتفها الايمن بدأت تتحسن .

وفى البداية استغرق الألم كل حواس ليلى . ألم لا عنف فيه ،
ولا قسوة ، ولكنه ممض متواصل ، يملى وجوده عليها بحيث لا تشعر
بسواه ، ولا تفكر فى سواه . وحاول طبيب المستشفى أن يحقنها بمخدر
ليجنبها الألم ، ولكنها رفضت . وكأن من الضرورى لها أن تمر بهذه
المرحلة من الألم

وعندما بدأ الجرح يلتئم توقف الألم .

وكفيض طال كبته ، انسالت أفكار ليلى والصور تتبالي عليها
وتتراكم وهى فى المعركة وطلقة تمر الى جانب أذنها اليسرى ،
وأخرى تصطدم بالأرض وسيل من الطلقات ينهمر ، ويترك فى الرمال
دائرة واسعة ، والدائرة تضيق حولها ، وكأن يدا غير مرئية تحكم
الدائرة على رقبتها وهى الآن تتراجع أمام أبيها وقد حمت عنقها
بيديها ورمزى يسد الطريق ويقول : « ما فيش فايدة » وهى على
السطح فى بيتهم تتطلع الى كتل الدخان الكريهة يوم حريق القاهرة . .
وحسين يقول : « دى مش النهاية يا ليلى » وهى تمشى على البحر
فى رأس البر ، وحسين يمر بأصبعه على ذراعها ويهمس فى أذنها :
« أنا مستنيك يا حبيبتي ، طول عمري مستنيك » وهى فى حجرتها
فى رأس البر ، وقبضتها متشنجة على الباب المغلق ومحمود يصيح ،
« مع السلامه يا حسين » وهى الآن تتدلى على السور وخيوط المصعد
تجذبها الى أسفل والى أسفل يجذبها ثقل التراب وهى مدفونة فى
مرسى البحيرة ، وتحت التراب تزحف على البلاط بعد أن ضربها
أبوها وهى الآن تنتفض واقفة تنفض عن نفسها التراب ، وحسين
يقول : « عارفه حاتلاقى آيه ؟ حاتلاقى نفسك ، ليلى الحقيقه » وهى
تنحنى تعبىء بندقيتها بيندين ترتجفان ، وترفع رأسها فى احتراس .
وترى العدو الذى يحكم دائرة النار عليها ، تراه بوجهه الملىء بالنمش
وبشاربه الأصفر الكريه وتنتفض واقفة ، وتصوب ، وينطح العدو على
مدفعه الرشاش ، وتنكسر الدائرة

كم عدوا قتلت ؟

فى البداية ، عندما كان الفوج الثانى ينزل بمظلاته على أرض المطار ، كان من الصعب أن تقرر إذا كانت رميته قد أصابت أو لم تصب .
كان الجندى ينطرح على الأرض والثقوب تملأ جسده ، وكأن الكل قد قتله . وبعد ذلك . . .

وقفت ليلي جالسة فى سريرها وهى ترى العدو يتراجع أمامها ، أمامها هى . . . ومدت يديها تحتضن كتفيها وهى تسكن فورة الحب والاعتزاز والاعتداد التى اجتاحت جسمها . . . وكل شئ حدث كما يجب أن يحدث تماما ، لم تخطئ فى شئ ، لم يفتها شئ ، قامت بما يجب أن تقوم به تماما .

وتمددت ليلي على السرير من جديد عندما بدأ الجرح يؤلمها . . . ستعيش لترى العدو يتراجع نهائيا من بورسعيد ، ستكرس العمر كله - لو اقتضى الامر - لتراه وهو يتراجع أمامها ، أمامها هى .

وتنهدت ليلي فى ارتياح ، واستدارت شفتها فى ابتسامة عندما لمحت محمود يدخل الحجرة .

وقال محمود وهو يزيح الستار عن النافذة :

- هيه ؟ ازاي الحال النهارده ؟

وتدفق النور الى الحجرة وتمطت ليلي فى سريرها وهى تقول :

- عال .

- والألم ؟

- راح .

وجلس محمود على طرف السرير ، وأمسكت ليلي بيده وقالت :

- محمود ، أنا عايزه أخرج من المستشفى .

- مستعجلة على ايه ؟

وتطلعت ليلي الى الأمام وتألقت عيناها ببريق وهاج وهى تقول :

- ضرورى يا محمود . . ضرورى .

- انت متأكدة ان حالتك تسمح لك بالخروج ؟

ومالت عليه ليلى وهى تقول بصوت متهدج :

- انا عمرى ماكنت أحسن من كده يامحمود ، عمرى ..

وتغلب محمود على دهشبتة وهو يقول :

- على العموم لما نشوف رأى الطبيب المعالج .

* * * *

وبعد أن خرج محمود حاولت ليلى أن تستعيد صورة أبيها وهو يتقدم نحوها بخطوات قصيرة كآلة مسلطة لسحقها ، وأن تسمعه وهو يصرخ بصوت مشروخ ويقول : عايزه ايه أنت كمان ؟

وفى أذنيها تردد صوته وهو يبكى كالطفل الخائف يوم بلوغها ، وفى خيالها انبعثت صورته وهو يميل على المائدة والدموع تلمع فى عينيه ووجهه وقد لان فى ابتسامة حنان .

وحاولت ليلى أن تستعيد صورة رمزي وهو ينظر الى صدر جميلة وعلى فمه تكشيرة كتكشيرة الحيوان المفترس ، ورأت وجهه وهو يحمر تحت نظرة جميلة كوجه صبي مراهق . وحاولت أن تتصوره كما كان يبدو لها دائما فى الفصل جبارا عتيا ، ورآته وهو يمد يده يجفف عرقه فى عز البرد ...

وهى الآن تقف أمام مكتبه ، تواجهه فى تحد ، ويده ترتجف على حافة المكتب ... وشفته ترتجف وهى تميل تجاهه فى حجرة الجلوس وتقول : « تحب أقول لك أية اللي كان ناقص لى ؟ » .. وملابس التدريب العسكرية تتأرجح فى يدها وهى تقف تجاهه على عتبة الكلية وتبتسم فى وجهه ابتسامة من يأخذ طفلا صغيرا على قدر عقله .

ونفرت العروق فى جبين ليلى ، ولم تستطع أن تتخيل صورة رمزي وهو يسد الباب ويقول : « مافيش فايده » .

وفيما بعد حاولت أن تستعيد صورته فى مخيلتها فى أى وضع من الأوضاع ولكنها فشلت فى محاولتها .

واكتشفت ليلى أن صورة رمزي قد انطمست فى خيالها وكأنها لم تكن .

وهزت ليلي رأسها فى تعجب .. مم كانت تخاف ؟ ! من أبيها ؟
من رمزي ؟ ! وابتسمت وهى لا تكاد تصدق أن كل ذلك حدث لها ،
لها هى ؟ !

وأمام عينيها انبعثت صورتها وهى تندفع الى أرض المعركة ، والعدو
يتراجع أمامها .. لا بد ، لا بد وأن ترى العدو وهو يتراجع من بورسعيد
وهى تستطيع .. كل شيء تستطيعه ، لا شيء أصبح الآن مستحيلا .

وقفزت ليلي من سريرها فى انفعال ، وعيناها تتألقان بهيق وهاج .
وبدأت تدور حول نفسها وهى تحاول أن تجمع حاجياتها ، وكأنها
لا تعرف من أين تبدأ ، واصطدمت يدها بملابسها المعلقة على الشماعة
ولم ترها . وعادت تدور حول نفسها وهى تبحث عن حاجياتها .

وتوقفت ليلي فى وسط الحجرة وعيناها تتطلعان الى الأمام وتتوهجان
وكانها ترى رؤيا رائعة الجمال ، وسمعت صوتا يناديها واستدارت وهى
تمد ذراعيها الى الأمام وتصيح : حسين .

وأفاقت ليلي حين لم تجد فى الحجرة أحدا ، وبدين ثابتتين ،
وبشفيتين مطبقتين ، بدأت تجمع حاجياتها .

ولكن حسين كان معها كما لم يكن قط من قبل ، وكأنه أصبح حقيقة
تستطيع أن تمد يديها وتحتويها .. وعيناه تذوبان فى نظرة حنان وهو
يميل بوجهه نحو وجهها ، وأنفاسه تثير شعرات على خدها الايمن فتعيد
تسويتها ، وتستأنف جمع حاجياتها بيدى ثابتتين ، وبشفيتين مطبقتين

بدأت حركة المقاومة مع بدء احتلال القوات الانجليزية والفرنسية
لبورسعيد ، وفى كل يوم كانت حركة المقاومة تتضخم ، وهى تضم اليها
مزيدا من الرجال والنساء .

وتحت قيادة منظمة تفرقت وحدات المقاومة ، متخفية فى البيوت وفى
عيادات الأطباء ، وفى المحلات التجارية ، وفى كل ركن من أركان
بورسعيد .

وفى بيت قديم فى شارع عبادى ، وفى شقة مواطن مصرى ، وقف

خمسة شبان يدرسون مواقع تجمعات العدو ، والطرق المؤدية الى هذه المواقع على خريطة كبيرة لمدينة بورسعيد .

وكان هؤلاء الشبان ينتمون الى سلاح المهندسين بالكتيبة الرابعة المشاة التى حمت انسحاب القوات المسلحة فى طريق أبو عجيلة - الإسماعيلية ، ثم تحركت الى بورسعيد لتعزيز الدفاع عن المدينة .

ومن بين هؤلاء الشبان الخمسة ، كان حسين عامر ، الذى عاش المعركة فى كل مراحلها منذ أن بدأت فى سينا حتى انتهت بانسحاب العدو من بورسعيد .

وبعد بدء حركة المقاومة بأسبوع قابل حسين محمود .

كان حسين قد كلف بتوصيل بعض التعليمات الى وحدة من وحدات المقاومة ، وعندما دخل الحجرة التى يجتمع فيها أفراد الوحدة ، اكتشف أن من بينهم محمود .

وارتجفت يدا حسين وهو يعانق محمود ، وفى صعوبة تمالك نفسه وبدأ العمل الذى جاء من أجله .

ولخص محمود نشاط وحدته ، وبدأ حسين يخبر الموجودين بالنجاح الذى حققته بقية الوحدات فى ميدان المقاومة ، وسادت المجتمعين فرحة معتدة والمستقبل يتفتح أمام أعينهم .

وارتجف الرجاء فى قلب حسين .

وحين انفرد حسين بمحمود بعد الاجتماع سأل عن ليلي . وعندما علم بالدور الذى قامت به فى المعركة طلب مقابلتها ، وحدد له محمود موعدا .

وقبل الموعد المحدد خرجت سناء ، وتركت ليلي تنتظر حسين فى البيت .

وعلى عتبة الباب المفتوح وقفت ليلي تواجه حسين .

ورفعت رأسها اليه وهى تتلقى نظراته التى انصببت على وجهها ، ووقفا هكذا ، بلا كلام ، وعيناها فى عينيه .

وفى عينيها تفجرت العاطفة التى طال كبتها ، والفرحة المزهوة بهذه
العاطفة ، وفى شفتيها ، وفى وجنتيها ، وفى أطراف أصابعها وفى كل
ذرة من جسدها • وكأنها نور شفاف ينساب مع الدم الذى يجرى فى
عروقها •

وفى نظراته تتالت الدهشة ، وفرحة غامرة ، لقد جاء ليراها ربما
للمرة الأخيرة ، واكتشف فجأة أنه سيصبح كل يوم على وجهها ، جاء
وهو يحسب أنها فتاة رجل آخر ، وحبوبة رجل آخر ، واكتشف وهو
يقف على عتبة الباب المفتوح ، أنها فتاته هو ، وحبوبته هو ، انها له هو •
وفى عينيها تدفق حنان سنين ، وشوق سنين ، وحرمان سنين ،
وفرحة كادت تفقده توازنه •

وبصوت يرتجف ناداها ، وبدين ترتجفان قريبا منه •
وعلى صدره العريض أراحت رأسها ، وودت لو توقف الزمن وظلت
هكذا تريح على صدره العريض رأسها ، وقلبا ينتفض فوق قلبه ، مع
قلبه •

ويداه تنتفضان على شعرها ، وتنسحبان الى كتفيها تتحسسانها
من جديد ، والفرحة تعتصر قلبه ، والحلم لم يعد حلما ، والسراب الجميل
أصبح حقيقة فى أحضانه •

وشعر حسين برغبة جارفة فى أن يتأمل وجه ليلي ، وفى رقة متناهية
مسح بظهر أصبعه على أسفل ذقنها ، ورفعت اليه وجهها ، وبعينين
يثرققان نادته ، وبشفتين منفرجتين ، وبأشراق لفتهما سويا •

وأمال حسين وجهه الى وجهها ، وفى بطء سعت شفاته الى شفتيها
وكانه يريد أن يستوعب اللحظة ، وكأنه يضمن بها ، ويخشى أن تنقضى •
وأرتجفت شفتا حسين على شفتي ليلي ، ولفتهما نشوة أشبه بالغفوة
ووصلت الى سمعيهما خطوات تدب فى الشارع ، خطوات ثقيلة
رتيبة •

وتبددت الغفوة •

وجمد وجه ليلي وارتسمت الكراهية فى عينيها ، واعتدل حسين
وهز رأسه وكأنه يفيق من حلم على حقيقة كثيبة •

واستدارت ليلي وسارت الى النافذة ، واقفل حسين باب الشقة
ولحق بها .

* * * *

وفي حرص أزاحت ليلي طرفا من الستار الذى يغطى النافذة ورأت
داوريه انجليزية تمر بالشارع الخالى ، وشعرت بانسحابة فى قلبها
وكان نصلا قد اخترقه .

وارتطمت يد ليلي بالنافذة وهى تعيد الستار الى مكانه ، واختك
الخاتم الذهبى بالزجاج محدنا رنينا . وبسطت ليلي يدها ، وهى تنظر
فى استغراب الى خاتم الخطوبة ، وكأنها كانت قد نسيت أنه يحتل
أصبعها .

وعادت ليلي تزيج الستار ، وعاد النصل يخترق قلبها من جديد .
وقالت فى صوت هامس وهى تتابع الدورية التى كادت تختفى من
الشارع :

- دى مش النهاية يا حسين .

وقال حسين فى شىء من الاستنكار :

- دى مش أول مرة تسألينى السؤال ده ياليلي .

وابتسمت ليلي ابتسامة خفيفة واستدارت تواجهه وهى تقول :

- دا مش سؤال يا حسين ، أنا با أقرر حقيقة .

وسارت فى خطوات هادئة الى مقعد مواجه لحسين وجلست .

وتركزت نظرة حسين على وجه ليلي ، وجذب انتباهه شىء لم يره قط
فى عينيها حتى وهى فى أوجها . . مزيج من الاعتداد المطمئن ، ذلك المزيج
العجيب النادر الذى لا ينعكس الا فى عيني انسان وجد طريقه ، وعرف
بتجربته أنه من القوة ، بحيث يستطيع دائما أن يقف الى جانب ما يعتقد
أنه الصواب .

وقال فى رقة وهو يقترب منها :

- أنت اتغيرت ياليلي .

وهزت ليلي كتفها هزة خفيفة وقالت :

- ومين ما اتغيرش يا حسين ؟ *

واستقرت نظرتها على حسين لحظة وتهدج صوتها وهي تقول :

- ودلوقت حانعمل ايه ؟

وكادت الكلمات تتدفق جياشة من فم حسين ، ظن لأول وهلة أنها تشير بسؤالها الى مستقبلهما معا ، ثم توقفت الكلمات على لسانه ، أدرك بقدرته العجيبة على فهمها أنها تعنى بسؤالها شيئاً آخر ، أعم وأشمل -

وقال بعد فترة توقف :

- القيادة علمله حساب كل شيء ، وحركة المقاومة بدأت فعلا .

- وانت ؟ مشترك *

وهز حسين رأسه بالإيجاب دون أن يتكلم .

ومالت ليلي برأسها الى الامام ، وقالت :

- وأنا ؟ .. أقدر أساعد في حاجه ؟

واستقرت نظرة حسين على الخاتم الذهبى الذى يطوق أصبع ليلي وقال فى استغزاز :

‘ - تقدرى ؟

- عندك شك ؟

ولانت ملامح حسين فى ابتسامة ، وهز رأسه وهو يستبعد الشك فى قدرتها ، وقال فى صوت هامس ينبض بالحنان *

- أنا طول عمري وانا مؤمن بك .

ولمحت عينا ليلي بالدموع وهي تقول :

- حتى لما كنت مش مؤمنة بنفسى يا حسين *

ولكن شيئاً ما كان يشد نظر حسين الى الخاتم الذهبى ويجعله يقول فى صوت غاضب :

— زيارتت ساقعيلي ايه ؟

وقامت ليلى راقفة وهي تقول :

— جايه وياك .

وحين رأت الدهشة التي ارتسمت في وجهه ابتسمت وهي تقول :

— عايزه أنضم للمقاومة ، مش تقدر ترشحنى ؟

وابتسم حسين وهو يهز رأسه في تعجب ، وقال في خفة :

— كفايه مفاجآت النهارده ، أحسن أعصابى ما عدتش مستحمله . .

وضحكت ليلى ضحكة قصيرة ، وقالت في عناد طفولى .

— حاتر شحنى ولا لا ؟

وقال حسين وهو يختبر مدى صلابتها .

— المسألة مش سهله يا ليلى ، مش مسألة يوم ولا اثنين ، المقاومة

جايز تطول ، وجايز تقتضى انك تختفى شهور .

واستدارت ليلى وهي تقول :

— حاجيب البالطو .

ووضع حسين يده على كتفها يستوقفها ، وأدارها برفق اليه ، وقال

وهو يركز عينيه في عينيه .

— وأهلك ياليلى ؟

— محمود يبقى يطمئنهم على .

وتنهّد حسين فى ارتياح ، واستدارت ليلى ومضت الى حجرتها

وحين اختفت علا الوجوم وجهه وهو يفكر ، وكأن شيئاً ما يحول

بين سعادته وبين الاكتمال .

وخرجت ليلى من حجرتها وقد لبست معطفاً أبيض فوق ثوبها البصوف

الأبيض .

وأشرق وجه حسين حين رآها ، وكأن كل مخاوفه قد زالت وكأن

كل أجلامه قد تحققت .

وقالت ليلى :

— يللا بينا .

وسبقت حسين الى الباب المفتوح .

كانت شوارع بورسعيد تزدهم بالناس ، أمواج متلاطمة من الناس
وكان البيوت قد خلت من سكانها ، وقذفت بهم الى الشارع موجة أثر
موجة ، لتختلط ببحر مائج من الناس .

. وناس يضحكون ، وناس يبكون بالدموع ، وهم لا يعرفون أى دموع
هذه ، أهى دموع الفرح بالخلاص ؟ أهى دموع الذكريات الاليمة التى
طغت فجأة على السطح فى يوم الجلاء ؟ أم هى دموع التطلع الى مستقبل
أفضل ؟

وناس يحملون لافتات النصر ، وناس يهتفون ، وناس يرقصون على
الوحدة ، وناس يصفقون وملء قلوبهم نشوة النصر ، وملء عيونهم الغد
وفى أعماقهم أدراك أن ما حدث كان لابد وأن يحدث ، ان ما حدث كان ثمن
النصر .

وناس خرجوا يحملون الزهور الى موتاهم ، ولم تصل الزهور الى
موتاهم ، فى الطريق نثروا الزهور على موكب النصر ، موكب الغد .
فمن أجل الغد مات موتاهم .

وعند نقطة التقاء القناة بالبحر ، وعلى مبعدة من تمثال دلسبس ،
وقفت جموع من الناس تنتظر فى سكون ، وشاب فى ثياب المقاومة
الشعبية يقف على آخر درجات سلم مرتفع ويحفر بملقاب حفرة فى جسد
التمثال .

وفى هذه اللحظة لم يكن التمثال تمثال بالنسبة للشباب
الذى يحشو الحفرة بالمفرقات ، ولا بالنسبة للناس الذين ينتظرون
الانفجار واجفى الأنفاس . كان رمزا لكل ما توارثوه عن عصور من
العبودية والاستعمار ، رمزا يشدهم الى ماضى بغيض ويحول بينهم وبين
الاندفاع الى مستقبل أفضل .

وكان لابد وأن يتحطم الرمز .

وعال الشاب على قاعدة التمثال ، وأشعل الفتيل ، وتراجع الى الخلف
منضمًا الى الجماهير .

ومادت الأرض من أثر الانفجار ، وعلت موجة من الدخان والتراب
حجبت الرؤية .

• ثم علت مهمة استنكار

• وصاحت ليلي في انفعال

• - الراس ، الراس بس الى انهدت

لم يتحطم سوى رأس التمثال والطلاء ، وبقي رابضاً مكانه كما لو
كانت جذوره ممتدة في الأرض .

وأمسك حسين بيد ليلي

وتلملم محمود في وقفته ، رأى نفسه وهو يدفن وجهه في كفيه
ويقول بعد حريق القاهرة : هدر ، دم وراح هدر .

وغامت عينا سناء ، وهي تتذكر فجأة أباهما وأمهات اللذين قاطعاهما
من يوم زواجهما بمحمود .

وارتجفت يد ليلي في يد حسين ، ورأت جميلة ممددة على الشيزلونج
وصدقته يركع الى جانبها ، وسمعت رمزي يقول : « دى قواني طبيعة ،
الطبيعة عايزه كده » .

وصرخت ليلي في انفعال :

• - الأصول ، ضروري الأصول

وعادت تصحح جملتها :

• - الأساس ، المهم الأساس

وتدافعت الجماهير في اصرار في اتجماه التمثال ، وضاقَت الحلقة
حوله من جديد ، وارتفع الشاب على السلم ، وبدأ يحفر التمثال بالمشقاب
واستغرقت العملية مدة أطول هذه المرة ، كان عليه أن يصل الى
الأعماق ، الى أعماق الأعماق .

وحين فرغ من عمله وأشعل النار في الفتيل ، ردد الفضاء صدى
انفجار كبير .

• وتناثر التمثال وقاعدته الى أشلاء .

وتنهدت ليلي في ارتياح . . .

وتردد في أذنيها صوت انفجار آخر في المعركة ، انفجار يعلن موت
عصام وموت أعدائه ، ورأته يقفز كالنسر من فوق السور والدماء تنزف
من جراحه ، ويده اليمنى مطوية على قنبلة ، ووجهه الشاحب يتألق
بشفافية أثرية ، وعيناه تلمعان ببريق وهاج ، وكأنه يرى رؤيا رائعة
الجمال .

وارتفع صوت الناس كالهدير وانطلقوا في موجة جارفة الى الأمام
وملأوا المسالك المتفرقة من المكان .

أمسك حسين بيد ليلي حتى لا يفقدها في الزحمة التي ابتلعت محمود
وسناء .

ودفعت الجماهير ليلي وحسين ، وانفجرا يضحكان وهما يندفعان
وكان موجة عاتية تحملهما الى الأمام .

وخف الضغط ، ولم تتوقف ليلي ، استمرت تجري ويدها في يد
حسين ، وهي تضحك ضحكاتها القصيرة المتقطعة كوقع الاجراس
الموسيقية .

كان لابد لها أن تندفع ، أن تجري ، أن تضحك ، أن تفعل شيئا بهذه
الفورة من السعادة التي ترفرف كجناحي الطائر، في صدرها وفي شفتيها
وتحت بشرتها وفي أطراف أصابعها .

ونظر حسين الى شعر ليلي الذي تناثر على جبينها والى الوهج الذي
يتألق في عينيها ، وأدرك أنها قد استعادت الاشرقة التي انتظر طويلا
ليراها من جديد .

لقد قابل ليلي مرتين أثناء فترة المقاومة ، ولم يكن في عينيها هذا
البريق ، ولكنه عاد ، ومع الاشرقة التي كادت تجعله يصرخ حين رآها
في المصعد لأول مرة .

وخفق قلب حسين بالفرحة ، وضغط على يد ليلي التي رقدت في
استسلام في يده .

وصاحت ليلي في انفعال :

- حسين

ولم يكن بها حاجة الى أن تصيح ، كان حسين قريباً منها ، يكاد كتفه يلمس كتفها ، ومع ذلك صاحت من جديد بصوت يتهدج :

- حسين . . أنا عايزه أوريك حاجة .

وتوقفت ليلي وسحبت يدها من يد حسين ، وبسطتها الى الامام فى انتصار .

وأدرك حسين أن ليلي قد رمت خاتم الخطوبة .

وأمسك بكتفها وصاح وصوته يرتجف بالانتشاء :

- أنت حره ، حره يا حبيبتي

وأرخت ليلي ذراعيها ، وشعرت بسكينة حلوة تتسلل الى جسمها سكينة أجمل وأعمق من الفورة التى كانت تختلج فيه ، ونظرت الى حسين وابنسمت .

وتقدمت الى الامام وحسين لا يرخى عينيه عنها . . لا ليست نفس الاشراق القديمة ، انها اشراق جديدة ، الاولى كانت فورة ، لمعة تبرق لتنطفئ ، كالشمس فى يوم ملىء بالغيوم . أما هذه فنور هادىء دافئ متصل ، نور ينبع من الداخل .

وتنهد حسين فى ارتياح وهو يقول :

- اخيراً . . وصلنا .

وتألق وجه ليلي وهى تنظر الى الامام وكأنها ترى رؤيا رائعة الجمال وقال حسين :

- كام سنة واحنا منتظرين اليوم ده ؟

وطافت عينا ليلي بالناس وهم يهللون فى انتصار ، وقالت :

- العمر كله .

وركز حسين عينيه فى عينيها ، ومر بأصبعه على ذراعها ، ورقص صوته حتى كاد يهمس وهو يقول :

- أنا وانت ياليلي •

ولمعت الدموع في عيني ليلي :

- العمر كله برضه يا حسين •

وبطؤت خطوات ليلي وحسين ، وران الصمت بينهما لحظة والانفعال
يثقلهما •

وأرادت ليلي أن تتخفف من حملها ، وأمالت رأسها الى كتف عصام
ولمعت عيناها بنظرة فيها شقاوة ، وقالت وكأنها تلعب لعبة مسلية :

- دى النهايه يا حسين ؟

وأشرق وجه حسين وكنم ضحكته وهو يجارها في لعبتها :

- دى مش أول مرة تسألينى السؤال ده يا ليلي •

وانفجرا ضاحكين كطفلين يلهوان •

وساد الصمت بينهما من جديد ، وهما يتطلعان الى الجماهير المتدفقة
أمامهما وخلفهما ، وكأنها موجة عاتية منتصرة جارفة تندفع الى الأمام •

وقال حسين وعيناه تزدحمان بعمق عاطفته :

- دى البدايه يا حبيبتي •

مكتبة الأسرة



بسعر رمزي جنيه واحد
بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦

مطابع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

Bibliotheca Alexandrina



1111014